الكتاب المقدس والاستعمار

القس مايكل پريور

ترجمة
وفاء بجاوى

مراجعة وتقديم
أحمد الشيخ

مكتبة الشروق الدولية

الكتاب المقدس والاستعمار

هذه ترجمة لكتاب:

THE BIBLE AND COLONIALISM

A MORAL CRITIQUE

Michael Prior, CM

First published by Sheffield Academic Press 1997

Reprinted 1999

ISBN 1-85075-815-8

الطبعــــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـــ يوليه ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الكتاب المقدس والاستعمار

القس مايكل پريور

ترجمة : وفاء بجاوى

مراجعة وتقديم : أحمد الشيخ



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

پريور، مايكل

الكتاب المقدس والاستعمار / مايكل پريور؛ ترجمة وفاء بجاوى، مراجعة وتقديم أحمد الشيخ

ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦ .

٢١٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم.

تدمك : 7 -1658-09 -977

١- الاستعمار الجديد

٢- الكتاب المقدس

أ- العنوان ٣٢٥,٣

رقم الإيداع ١٣٦٥٣ /٢٠٠٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 977-09-1658-7

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مدخل	١٣
الجزء الأول	
المشكلة الأخلاقية لتراث الكتاب المقدس عن الأرض	
الفصل الأول : تراث الكتاب المقدس عن الأرض	٢١
الأرض فى التوراة	٢٤
الأرض فى سفر يشوع	٤٠
الأرض فى الأسفار الأخرى من الكتاب المقدس	٤٤
استغلال تراث الكتاب المقدس عن الأرض	٤٦
الكتاب المقدس والتراث الشفهى : دراسة حالة	٤٩
الكتاب المقدس والسلام والاستعمار	٥٢
الجزء الثانى	
الاستغلال الاستعمارى لتراث الأرض فى الكتاب المقدس	
الفصل الثانى : الاستعمار وأمريكا اللاتينية	٦٣
١٢ أكتوبر ١٤٩٢ : اكتشاف أمريكا وسواحلها	٦٥
الدعم اللاهوتى : اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى	٧٠
أصوات معارضة	٧٦

الانعكاسات اللاهوتية المعاصرة والكتاب المقدس........ ٨٣
الفصل الثالث : الاستعمار وجنوب أفريقيا........ ٩٣
تاريخ البوير........ ٩٥
صناعة أسطورة القومية الأفريقانية المبكرة........ ١٠٣
الكتاب المقدس ولاهوته فى قلب التعصب الأفريقانى........ ١١٥
الأسطورة والتاريخ والعلم والأخلاق........ ١٢٢
خاتـــمة........ ١٣١
الفصل الرابع : الاستعمار وفلسطين........ ١٣٥
المرحلة المبكرة للصهيونية (١٨٩٦ - ١٩١٧)........ ١٣٧
المرحلة الثانية من الصهيونية (١٩١٧ - ١٩٤٨)........ ١٥٥
وعد بلفور........ ١٥٥
المرحلة الثالثة للصهيونية (دولة إسرائيل ١٩٤٨ - ١٩٦٧)........ ١٧٠
المرحلة الرابعة للصهيونية (١٩٦٧ -)........ ١٧٤
البعد الدينى........ ١٨٥
خاتـــمة........ ٢٠٧

تقديم

عندما قرأت للمرة الأولى عنوان هذا الكتاب الهام عبر صحيفة «الأومانيتيه» الناطقة بلسان حال الحزب الشيوعى الفرنسى، كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لى. وأتذكر يومها أننى وقفت حائراً ومذهولاً أمام صفحة كاملة تبدأ بعنوان فرعى: «الإمپريالية والتبرير من خلال الكتاب المقدس - العهد القديم»، وعنوان رئيسى يقول: «الكتاب المقدس والاستعمار». وفى ذيل الصفحة عنوان ثالث: «الدعوة المقلقة للمسيحيين الصهاينة».

فى البداية ظننت أن حرف الواو فى العنوانين الأولين ليس له أى دلالة حقيقية. ثم تذكرت بعد لحظة أن الصحيفة شيوعية، وأن الشيوعيين لديهم، فى العادة، جرأة تقليدية فى تناول الكتب المقدسة، لكن عندما بدأت سطور المقالة تتوالى أمام بصرى أدركت أننى أمام مجموعة أخرى من المفاجآت، أولها أن الصفحة الكاملة التى أعدتها الصحيفة مرسلة من المبعوثة الخاصة للصحيفة بالقدس! وثانى هذه المفاجآت أن «الكتاب المقدس والاستعمار» هو عنوان لكتاب جديد سيصدر باللغة الفرنسية - نقلاً عن الأصل الإنجليزى الذى صدر فى ١٩٩٧م وأعيدت طباعته فى ١٩٩٩م - وأن مؤلف الكتاب ليس شيوعيّا، وإنما هو أب مسيحى أيرلندى بالقدس ويدعى مايكل پريور، ينتقد كما تقول الصحيفة «عمليات توظيف النصوص المقدسة، ولا سيما العهد القديم، فى تبرير الغزو والاستعمار وإبادة الشعوب الأصلية، وأن الإمپرياليين، فى كل الأزمان، وجدوا فى النصوص المقدسة تبريراً لحملاتهم الاستعمارية بدءاً من الحروب الصليبية وحتى الحرب على العراق، ومروراً بغزو الأمريكتين واستعمار فلسطين».

وهنا أدركت بالفعل أننى أمام عمل غير عادى، وأن الأمر يستحق اقتناء الكتاب وقراءته على مهل بعيداً عن الكتابة الصحفية وضروراتها. وبعد قراءة مدققة تيقنت أننى أمام كتاب ليس مثل الكتب الأخرى، وأن المؤلف مايكل پريور رجل دين ليس مثل رجال الدين الآخرين، وأنه يمثل بالفعل لحظة شجاعة نادرة لرجل دين فهم بحق العمق الأخلاقى للنصوص المقدسة، ولم يقف عند ظاهر النصوص كما يفعل أغلب

رجال الدين والسياسة فى عالمنا المعاصر، وأن الكتاب يستحق أن يترجم وأن ينشر بالعربية بدون تردد.

لكن ما هى قصة هذا الكتاب أولاً؟ وما الذى دفع القس إلى تأليفه؟ وما هى الصعوبات التى واجهته فى طريق إنجاز هذا العمل الهام؟

يروى مايكل پريور هذه القصة فى التقديم الذى خص به الطبعة الفرنسية، التى كتبها فى أمريكا بعد أيام من أحداث ١١ سپتمبر:

«كانت دراساتى فى القدس عاملاً مهمًا فى تغيير مجرى حياتى . . . لأن القيام بدراساتى فى الأرض المقدسة جعلنى أطرح تساؤلات على ما أسميه بـ «اللاهوت الأخلاقى» المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسكان والشعوب التى تعيش فى هذه المنطقة . . وعلى الرغم من أن اهتمامى الأساسى كان يتعلق بماضى الكتاب المقدس وتاريخه فقط؛ إلا أننى لم أستطع الابتعاد عن السياق الاجتماعى الحديث لهذه المنطقة. وفتحت دراستى للكتاب المقدس فى أرض الكتاب المقدس آفاقًا لى لم تكن لتفتح فى أى مكان آخر».

ويقول الأب مايكل پريور عن بدايات تجربته فى هذا الشأن: « . . . لم أكن أعتبر نفسى قبل حرب يونيو ١٩٦٧م، معنيًا بشكل خاص بدولة إسرائيل، باستثناء إعجابى باليهود الذين توصلوا إلى إنشاء دولة، وإعادة إحياء اللغة العبرية. وكانت المرة الأولى التى انتبهت فيها للصراع العربى الإسرائيلى تعود إلى اللحظة التى احتلت فيها إسرائيل الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وقطاع غزة وسيناء. وكنت أبتهج لانتصار دولة إسرائيل «الصغيرة». ولم يكن هناك فى ذلك الوقت أى تحليل أو تعليق يدعم الموقف العربى، ولم أكن واعيًا بقدر كاف فى تلك الفترة. ولم أتشكك إطلاقًا فى فصاحة وزير الخارجية الإسرائيلى، وهو يخطب فى الأمم المتحدة، ويبدى أدبًا واحترامًا كالدبلوماسيين الغربيين، حتى عندما يقوم بخداع الآخرين؛ حيث وصف إسرائيل بأنها الضحية البريئة للعدوان المصرى.

وفيما بعد، فى لندن أثناء الصيف، شد انتباهى ملصقات كانت تؤكد على أن من يثق بأنبياء الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون مندهشًا من انتصار إسرائيل. ولم أكن أقارن قط بين الأحداث المعاصرة ونبوءات الكتاب المقدس، فتعاليم الكتاب تنظر

لنبوءات الكتاب المقدس على أنها تتعلق فقط بفترة الأنبياء ولا تكشف المستقبل أو تعلن عنه إطلاقًا . . . واستغربت أن يوجد من يرى غير ذلك.

. . . وعندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، لم أشعر تجاه إسرائيل بالحماس نفسه الذى كان لدى عام ١٩٦٧م . . . وبدأت أتشكك فى الرأى السائد الذى كان يبرر الاحتلال لدواع أمنية. واكتشفت، خلال عامى ١٩٨٣-١٩٨٤م، أن الاحتلال لم يكن لدواع أمنية فقط؛ وإنما كان يدعم سياسة التوسع من أجل قيام «إسرائيل الكبرى»، التى كانت الهدف النهائى للصهيونية. وبعد ذلك فهمت البعد الدينى للصراع، حيث كان الصهاينة يربطون بشكل وثيق بين النشاط الاستعمارى ونصوص الكتاب المقدس. وأعلنت فى تلك الفترة اعتراضى الصريح على هذا التصور الذى يرى أن تراث الكتاب المقدس بشأن الأرض يشجع على إبادة السكان الأصليين . . . وقمت فى عام ١٩٩١م بمسيرة دولية مع آخرين، من القدس إلى عمان من أجل السلام، لكن لم نصل قط إلى إكمال المسيرة وقبض علىَّ وتم سجنى مرتين . . . وبدأت أتعرف أكثر فأكثر على تاريخ المنطقة، وقمت بإجراء اتصالات مع أهم الشخصيات الفلسطينية خاصة زعماء الكنائس، وأسهمت فى عام ١٩٩٣م فى مؤتمر حول المسيحيين فى الأرض المقدسة . . .

وعندما رجعت إلى إنجلترا كتبت مقالاً عن «الكتاب المقدس: أداة قمع» وركزت على ثلاثة نماذج: أمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وفلسطين. واعتبرت أن هذا الموضوع يستحق بحثًا أعمق، وأنه يجب النظر فى الأبحاث المتعلقة بالعهد القديم قبل القيام بذلك. وكنت أظن أن هناك من تناول الموضوع من وجهة نظر أخلاقية، إلا أن ظنى كان خاطئًا حيث لم يقم أحد بأية دراسة جادة فى هذا الشأن حتى الآن.

وفى خريف ١٩٩٥م بدأت بالفعل فى تأليف كتاب حول هذا الشأن. وانتهيت من تأليف «الكتاب المقدس والاستعمار» خلال فترة إقامتى كأستاذ فى جامعة بيت لحم، وكأستاذ مقيم فى المعهد المسكونى للاهوت فى الطنطور بالقدس ١٩٩٦-١٩٩٧م . . وأثارت دراستى للكتاب المقدس فى أرض الكتاب المقدس قضايا أخلاقية لا تتعلق فقط بالعلاقة بين تأويل الكتاب المقدس والتوظيف الاستعمارى له، بل تتعلق أيضًا بالمهمة الأخلاقية للباحثين والمتخصصين فى الكتاب المقدس فى هذا الشأن . . . وقد صُدمت عندما رأيت أن تبرير ترحيل العرب الفلسطينيين عام ١٩٤٨م كان يصدر عن تفسير

ساذج للكتاب المقدس، وأن البحث اللاهوتى الغربى - على الرغم من تشدده فى نقد الأنظمة القمعية فى كل أنحاء العالم - إلا أنه يترك مساحة كبيرة للصهيونية. . . . فى حين يجب رؤية الصراع الحديث من وجهة نظر الضحايا، كما يجب قراءة نص الكتاب المقدس «بأعين الكنعانيين»؛ لأن متخصصى الكتاب المقدس لم يقرءوه من هذه الزاوية. . . وينبغى القيام بالبحث فى الكتاب المقدس فى إطار «المصداقية الأخلاقية»، أى انطلاقًا من الحرص على النتائج الأخلاقية للنص الكتابى ومعانيه، لا سيما عندما تخدم أشكالاً عديدة من القمع وتطورها، أقلها نزع كل ما هو إنسانى وتدميره من جراء الاستعمار. ومن الضرورى اليوم ممارسة النظرة الأخلاقية لنصوص الكتاب المقدس وتأويلاته.

. . . لقد قمت بهذه الدراسة وقرأت نص الكتاب المقدس بأعين الكنعانيين وسجلت اعتراضى على استخدام الكتاب المقدس كوسيلة قمع للشعوب».

وفى مواجهة الانتقادات الموجهة لعمله، يوضح الأب مايكل پريور، فى أكثر من موضع، أنه لا يقوم بدراسة شاملة للكتاب المقدس فى كل جوانبه وأبعاده، وإنما يقتصر فقط على مجال محدد لم يحظ باهتمام كاف من الباحثين والدارسين، وهو حالات الارتباط بين الكتاب المقدس فى عهده القديم والاستعمار، وأنه لا يتناسى الإنجازات الإنسانية التى تحققت مع انتشار الكتاب المقدس لدى مناطق وشعوب عديدة، وأنه يبحث فقط فى الوجه الآخر الذى لم ينظر إليه أحد، والذى يسمح بما لا يمكن أن يقبله أى دين.

وفى الحقيقة يذهب الأب مايكل پريور مسافة بعيدة وجريئة فى هذا الشأن، فهو يرى أنه لا يمكن للمرء أن يتهرب بسهولة من ضرورات ما يسميه بـ «المصداقية الأخلاقية» وأعبائها، تحت ادعاء أن المسألة تنحصر فقط فى التأويل الخاطئ للنصوص المقدسة، بينما يرى الأب مايكل پريور أن على المرء أن يعترف بأن أجزاء كثيرة من التوراة، ومن سفر التثنية، على نحو خاص، تحتوى على عقائد مفزعة ونزعات عنصرية وكراهية للغرباء وتشجيع على استخدام القوة العسكرية، وأن بعض الروايات فى العهد القديم أسهمت فى معاناة أعداد لا تحصى من المواطنين الأصليين.

ويؤكد الأب مايكل پريور على أن الهدف من دراسته، التى تعالج الارتباط بين الكتاب المقدس فى عهده القديم والاستعمار، هو أولاً: نقد إهمال المسألة الأخلاقية

من التأويلات الكتابية الأوروبية والأمريكية وإدانة غيابها، وثانيًا: محاولة إنقاذ الكتاب المقدس من استخدامه كأداة قمع واضطهاد للشعوب، وإثارة الغضب الأخلاقى، بالتالى، ضد المستعمرين وما ارتكبوه بحق الشعوب الأصلية، وأنه لم يكن من أهدافه الهجوم على الكتاب المقدس أو اليهود والمسيحيين؛ لأن الكتاب المقدس كان ـ ولا يزال ـ المؤسس لممارساته الدينية.

كما أشار الأب مايكل پريور إلى أن ما صدمه فى الروايات التوراتية، هو تلك الصلة العضوية بين الوعد الإلهى بالأرض، والأوامر الواضحة بإفناء السكان المحليين؛ حيث نقرأ فى التوراة تحت عنوان: **التحذير من مخالطة الأمم وعبادة الأصنام.**

ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم، أكثر وأعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرمونهم. لا تقطعوا لهم عهدًا، ولا ترفقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتى ليعبدوا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا. ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم وأحرقوا تماثيلهم.

سفر التثنية ـ الإصحاح ٧: ١ - ٥

وتحت عنوان: **شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد.**

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم، لكى لا يعلموكم رجاساتهم التى مارسوها فى عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم.

سفر التثنية ـ الإصحاح ٢٠: ١٦ - ١٨

يتساءل الأب مايكل پريور: «أليس الله إله محبة؟ أليس هو منبع الأخلاق والعدل؟ أليس رحيمًا وحانيًا وعطوفًا؟ لماذا يجعلون منه قائدًا لحملة تطهير عرقى ويصورونه كأنه يرتدى رداءً عسكريًا ويشن حرب إبادة ويكره الغرباء؟!».

باختصار يحتوى كتاب الأب مايكل بريور على مادة معرفية غنية بالمعلومات والنصوص والتأويلات والتحليلات التى تخدم فكرة المؤلف الرئيسية، وهى نقد هذا الارتباط الوثيق ــ فى حالات محددة ـ بين الكتاب المقدس وظواهر الاستعمار والاضطهاد والإذلال والإبادة البشرية لبعض الشعوب فى أمريكا وجنوب أفريقيا وفلسطين.

لكن ماذا يعنى لنا نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية؟

لقد أردنا أولاً: توجيه الانتباه ـ على أكبر نطاق ممكن ـ لهذا العمل الأكاديمى الهام، وأن يكون ذلك ــ فى الوقت نفسه ـ تحية لرجل دين شجاع يستحق التقدير والثناء. وكان هدفنا ثانيًا: الإشارة إلى هذا المستوى المتقدم من التفكير النقدى الحر، الذى لم يقتصر على نقد التأويلات الخاطئة والظالمة للنصوص المقدسة، وإنما أشار إلى ضرورة التساؤل حول هذه النصوص ذاتها قبل التركيز على تأويلاتها التى أفضت إلى إذلال شعوب أخرى واستعمارها وإبادتها.

تبقى كلمة أخيرة عن ترجمة هذا العمل الرائد الذى نتوقع له أن يكون فتحًا جديداً فى مجال فهم النصوص المقدسة وقراءتها، وكذلك الواقع المتأثر بها. لقد بذلت المترجمة وفاء بجاوى ـ وهى جزائرية مقيمة بالقاهرة ـ جهداً كبيراً فى ترجمة الكتاب نقلاً عن الترجمة الفرنسية الصادرة عن دار لارماتان الفرنسية فى ٢٠٠٣م، وذلك لأننا حاولنا مراراً الاتصال بالدار التى أصدرت الكتاب باللغة الإنجليزية، ولم نتمكن من الحصول على النسخة الأصلية إلا مؤخراً. ورب ضارة نافعة، فمع وصول هذه النسخة الإنجليزية بذل المهندس عادل المعلم جهداً كبيراً فى مراجعة الترجمة العربية عن الفرنسية مع الأصل الإنجليزى، وهو ما أضفى على الترجمة العربية مزيداً من الدقة والتحسين. ونأمل أن يثير هذا الكتاب الجاد ما يستحقه من نقاش وحوار يرتفع إلى مستوى قيمة الكتاب وما يطرحه من قضايا بالغة الأهمية على الصعيدين النظرى والعملى فى آن واحد.

أحمد الشيخ

مدخل

يمكننى أن أقول إننى لم أعرف إلا شعبًا واحدًا فقط شعر بأنه قادر على تأكيد أنه قد تلقى أمرًا إلهيًا باستئصال جميع الشعوب التى يقهرها، ألا وهو شعب إسرائيل. ويتفادى اليوم كل من المسيحيين واليهود على حد سواء التمعن فى قساوة يهوه [Jahweh.] (الله بالعبرى) التى تكشفها ـ ليس المصادر المعادية ـ ولكن الأدبيات التى يعتبرونها مقدسة. ويسعى كل من المسيحيين واليهود ـ كقاعدة عامة ـ إلى تناسى حتى وجود هذه المادة التجريبية.

(من سانت كروا فى سعيد ١٩٨٨ : ١٦٦).

موضوع هذه الدراسة هو تناول رواية الكتاب المقدس بشأن وعد إبراهيم وذريته بأرض كنعان ؛ وتجديد هذا الوعد لموسى وقومه بعد خروجه من مصر. هذا بالإضافة إلى النص المتعلق بغزو هذه الأرض مثلما تم روايته فى سفرى يشوع و القضاة. كما ستتناول هذه الدراسة الطريقة التى استُغلّت بها هذه النصوص من الكتاب المقدس لتبرير غزو الأراضى فى مناطق عديدة وأزمنة مختلفة، لا سيما أثناء الاستعمار الإسبانى والبرتغالى لأمريكا اللاتينية، واستعمار البيض لجنوب أفريقيا، بالإضافة إلى غزو الصهاينة لفلسطين و المستعمرات اللاحقة. ولا يمكن مناقشة هذا الموضوع إلا باللجوء إلى عدة تخصصات.

إن تداخل التخصصات الأكاديمية وتعدد فروعها أوضح صعوبة الإلمام بموضوع شائك كهذا من وجهة نظر واحدة وتناوله من زاوية واحدة فقط. ويمثل تناول الاستعمار مثالاً جليًا عن هذه المشكلة. فالقانون الدولى يتناول الحقوق الشرعية المتعلقة بالسيادة، وتتعرض الاتفاقيات الدولية إلى حقوق الإنسان، أما علم الاجتماع والأنثروپولوچيا (علم الأجناس البشرية) فيدرسان ما يتعلق بالثقافات المختلفة والهوية السياسية والدينية للسكان الأصليين. ولا نستطيع أن نغفل المناظير الدينية و اللاهوتية.

وما يشتت الأفكار فى تناول متنوع مثل هذا التناول أن كل عنصر فيه يُطرح بصورة مستقلة عن بقية العناصر. فالفكر اللاهوتى لا يذكر شيئًا عن القانون الدولى، والقانون الدولى يصمت عن مسائل تتعلق بحقوق الإنسان. ويبتعد المدافعون عن حقوق الإنسان عن أى مبادئ وراء تلك المتفق عليها عالميًا. أما علماء الاجتماع والجغرافيون، فيهتمون بوصف الأحداث دون إطلاق أحكام عليها. ورغم كل هذا، فإن كلاً من هذه التخصصات(وتخصصات أخرى طبعًا) لا يمثل إلا مظهرًا واحدًا من صورة أكثر تعقيدًا.

وحاليًا أدى التخصص والتدقيق العلمى فى كل علم من العلوم بالذين ليس لديهم خبرة فيه إلى أن ينسحبوا من المناقشة. فالعلماء يُخيفُون غيرهم من غير الملمين بعلمهم؛ حتى الباحثون الأكثر براعة نادرًا ما يخوضون فى مواضيع بعيدة عن حدود تخصصهم.

وهناك توجه عام إلى القول بأن هذه المجالات هى من شأن المتخصصين فقط؛ لتبرير الهروب من مسئولية الخوض فى عالم أكبر، بحجة أنه حتى مناقشة القضايا الأخلاقية يجب تركها للمتخصصين. ويقع كل علم يتناول مسألة أرض كنعان فى الكتاب المقدس فى فخ التخصص؛ حيث لا يهتم علماء الكتاب المقدس فى تناولهم لمسائل نقد تاريخية الكتاب المقدس وحرفيته، بالأبعاد الأخلاقية. وبصفة عامة، فالباحثون المعنيون بحقوق الإنسان يتجنبون الرجوع إلى مسألة الله، رغم أنهم يعترفون - روتينيًا - برابطة أرض الوعد بالله. أما الخبراء فى السياسة فيتناولون الموضوع من وجهة نظر السلطة السياسية والمصالح.

كل هذا يؤدى إلى تناول ناقص وغير متكامل للموضوع؛ لأن كلاً يدرس الموضوع من وجهة نظر تخصصه دون أن يتصور مدى تعقد الموضوع. وحتى عند التعرض لنصوص الكتاب المقدس فى المناقشة، يجب أن يتحلى الدارس بالشجاعة للتعرض إلى عدة مظاهر. ولا يمكن لأى متخصص أن يجرؤ على المخاطرة بدراسة تخصصات أخرى متخمة بدراسات وتحاليل علمية لا حصر لها: قصص البطاركة، وعلم الآثار، والتاريخ، والمسائل الأدبية للنوع والاختلاط، وفترات النفى أو وجهات النظر حول

الأرض فى العهد الجديد . . إلخ . وإذا حاول أى كتاب أن يتناول فقط الرؤية الكتابية فعليه أن يجمع فريقًا من الباحثين (مثلاً التسعة عشر باحثًا فى فريق پرودكى ١٩٩٥). فالمهمة صعبة للغاية بالنسبة لفرد واحد، إلا أن الخيار الأخلاقى يرجع للفرد.

تتناول هذه الدراسة ـ على وجه الخصوص ـ المسألة الأخلاقية التى أثارتها عواقب الغزو والمستعمرات على السكان الأصليين. ما هى المعايير المناسبة لتقييم حركة غزو واستعمار؟ ما هو دور الكتاب المقدس؟ وهل يجب علينا أن نسترشد فقط بمعايير احترام الإنسان التى تنص عليها اتفاقيات حقوق الإنسان، أو اتفاقيات القانون الدولى؟ ويبدو أن إخضاع الكتاب المقدس لتقييم أخلاقى على أساس المبادئ الأخلاقية العامة، هو أمر جديد مقارنة بالتناول التقليدى للكتاب المقدس الذى عادة ما ينظر إليه على أنه نموذج الكمال الأخلاقى، ويتجسد فيه روح اللاهوت. وكما سنثبت ذلك فيما بعد، فإن دراستنا هذه ليست فقط لها ما يبررها، بل و أيضًا ضرورية. فعندما يتم نزع ممتلكات شعب و تشتيته وإهانته، يُستثار حسُّنا الأخلاقى. وعندما يتم ممارسة مثل هذه الأعمال الوحشية بزعم أنها مؤيدة إلهيًا، بل و أنها أمر من الله، لا نستطيع إلا أن نعبر عن رفضنا لهذا الرعب والهول. إن أية فكرة تزعم تعاون الله فى تدمير البشر يجب أن تخضع لتحليل أخلاقى. إن التعارض الواضح بين ما يزعم البعض أنه إرادة الله، وبين التصرف الإنسانى المتحضر والجدير بالاحترام يطرح ـ بشكل واضح ـ مسألة هل الله شوڤينى (وطنى متعصب)، وقومى، ولديه هلع مرضى بإشعال الحروب؟

لكن وبشكل عام، تجنب التفكير اللاهوتى ـ تمامًا ـ مثل هذه الاعتبارات. ورغم ذلك، فإن الخطاب الصادر عن الدراسات الخاصة بحقوق الإنسان والقانون الدولى يمضى دون تفاعل مع الدين واللاهوت. وهدفى فى هذا الكتاب هو تحديث دراسة لنص مألوف لدرجة أنه يقاوم أى أبحاث جديدة. تفترض أية دراسة للكتاب المقدس الرجوع ـ حتمًا ـ إلى المنظور الأركيولوچى (فوكو)؛ فما يُحتمل أنه ساعد فى الماضى على إرساء أسس متينة، أصبح الآن موقعًا مفتوحًا وأفسح الطريق لإجراء أبحاث جديدة، وأثار عدة تساؤلات جديدة. النقطة الحاسمة فى هذا الصدد هى سلطة الكتاب المقدس فى التأثير على السلوك البشرى على مستوى الأمم. ونعلم جيداً أنه لم يتغير أى مجتمع بسبب عامل أيديولوچى واحد فقط، سواء كان اقتصاديًا أو وطنيًا أو دينيًا. «إن تفسير أى تطور تاريخى ذى أهمية بعامل واحد فقط، هو فى الواقع خطأ» (لونسدال ١٩٨١، ص ١٤٠)؛ إذ تتطور النظم بتفاعل عدة عوامل.

وباتباع منهجية تتفق مع البحث فى دراسة تضم عدة عوامل، نستطيع أن نستند إلى مبدأين من نظرية «الكم» وهما التتام واللايقين. يزعم مبدأ التتام لـ «بوهر» أن التعريف التقليدى للحالات وفقًا للمكان أو الزمان غير كاف؛ وأنه فقط عندما نجمع هذين العاملين المتتامين سنحصل على صورة حقيقية وكاملة حتى للعالم الفيزيائى. وعلى مستويات أكثر تعقيداً، هناك عوامل مختلفة بل متعارضة تتكامل لوصف آلية معقدة. ومن جهة أخرى، يوضح مبدأ اللايقين لـ «هايزنبرج» أنه لا يمكن فى أى وقت من الأوقات إلاّ أن نحلل عاملاً واحداً من نظام: ليس من الممكن تأكيد كل من وضع الجسيم والقوة الدافعة له. وهذا مأزق، حيث إنه حتى الملاحظة تزعج نظام الحركة على الأقل على مستوى الذرة.

أقترح دراسة الكتاب المقدس فى سلسلة أحداث بشكل يسعى إلى تقدير الظروف الاجتماعية و السياسية المعقدة لكل حالة. وهذه الدراسة واسعة؛ لأنها تناقش الكتاب المقدس و تفاسيره الحديثة و الثقافات اليهودية والمسيحية، والاستعمار الذى قاده الأوروبيون فى أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا والشرق الأوسط؛ كما تعرض تاريخ الصهيونية وتطورها، والقوانين الدولية بشأن الحروب و الاستعمار و حقوق الإنسان. إذا كانت مهمة دراسة كل مظاهر المشكلة ـ بكفاءة ـ قد تخيف الباحثين الموهوبين والمتعددى القدرات من الخوض فى الموضوع؛ فإن كل شخص تعنيه هذه المشكلة يجب أن يعتبرها على المستوى الشخصى واجبًا معنويًا. ومع أن فريقًا من الباحثين يكون على الأرجح مؤهلاً للنجاح أكثر من فرد بمفرده، فلن يكون هناك وعى جماعى أو إجماع فى هذا الفريق. إن المسئولية الأخلاقية لإطلاق حكم وتقرير عمل ما تبقى فردية، حيث لا يمكن إطلاق الأحكام بالتناوب أو بالنيابة. فلا يمكن إعطاء هذه المسئولية للآخرين حتى لو كانوا أكثر كفاءةً أو أغزر علمًا أو أرفع أخلاقًا.

وأزعم أن علم اللاهوت يجب أن يهتم بظروف الحياة الحقيقية للناس ولا يمكن أن يغلق على نفسه الأبواب فى جو أكاديمى و كنائسى. سيهتم هذا الكتاب برصد بعض تأثيرات التأويلات اللاهوتية، وتأويلات الكتاب المقدس التى تتعلق بالأيديولوچية الاستعمارية وممارساتها فى مناطق مختلفة وعصور مختلفة. كما سيتطرق إلى سوء استغلال الكتاب المقدس واستعماله كوسيلة لتقنين ممارسة برنامج أيديولوچى أو

سياسى ما؛ تسببت نتائجه فى الماضى والحاضر فى العذاب الدائم والمستمر الذى لا يمكن تحمله، لشعوب بأكملها، بل وحتى فى إبادتهم أحيانًا. إن الاعتراف بالعذاب الذى تسبب فيه الاستعمار يلزمنا بإعادة دراسة الأبعاد الكتابية [من الكتاب المقدس] واللاهوتية والأخلاقية لهذا الموضوع. وأعتقد أن اللاهوتية يجب أن تكون رسالة لتطوير المثل والنموذج الأخلاقى؛ كما يجب أن تؤسس مستقبلاً أفضل للجميع سواء كانوا ظالمين أو مظلومين. وهذه الدراسة موجهة إلى الملتزمين مباشرة بالخطاب الكتابى و اللاهوتى، فهى تهتم ببعض مظاهر التفسير التى تم تجاهلها. كما تعتزم إعلام قطاع أوسع من الناس بمواضيع لها تأثير على رفاهية الإنسان ورخائه، بل وأيضًا على الوفاء والإخلاص لله. و بالنسبة لبعض العلماء، فقد يرون هذه المحاولة على أنها مساهمة أكاديمية مفيدة. أما بالنسبة لى، فهى واجب أخلاقى.

***

الجزء الأول

المشكلة الأخلاقية
لتراث الكتاب المقدس عن الأرض

الفصل الأول

تراث الكتاب المقدس عن الأرض

وأهبك أنت وذريتك من بعدك جميع أرض كنعان، التى نزلت فيها غريبًا، مُلكًا أبديًا. وأكون لهم إلهًا.

وقال الرب لإبراهيم: «أما أنت فاحفظ عهدى، أنت وذريتك من بعدك مدى أجيالهم. وهذا هو عهدى الذى بينى وبينك وبين ذريتك من بعدك الذى عليكم أن تحفظوه: أن يُختتن كل ذكر منكم، تختتنون رأس قلفة غرلتكم فتكون علامة العهد الذى بينى وبينكم، تختتنون على مدى أجيالكم، كل ذكر فيكم ابن ثمانية أيام سواء كان المولود من ذريتك أم كان ابنًا لغريب مُشتَرى بمالك ممن ليس من نسلك. فعلى كل وليد سواء ولد فى بيتك أم اشتُرى بمال أن يُختتن، فيكون عهدى فى لحمكم عهدًا أبديًا. أما الذكر الأغلف الذى لم يختتن، يُستأصل من بين قومه لأنه نكث عهدى».

[التكوين ١٧ : ٨ - ١٤]

تراث الكتاب المقدس عن الأرض

سأركز فى هذا الفصل على نصوص الكتاب المقدس التى تتناول موضوع الأرض، خاصة نصوص أسفار التكوين والخروج و اللاويين والعدد والتثنية، وأخيراً يشوع. وحتى يتم تسهيل القراءة، سأتعرض للتحاليل النقدية لهذه النصوص فيما بعد، إلا أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار بعض الملاحظات الأولية. أولها أن الكتاب المقدس، مثله مثل أى إبداع أدبى، يعكس نطاقًا واسعًا من أشكال الأدب والمضامين. كما أن الذين يرجعون للكتاب المقدس لا يفسرون مضمونه، ولا يرون مرجعيته، بالطريقة نفسها. وللعهد الجديد مكانة خاصة لدى المسيحيين، ويسمون الكتابات العبرية العهد القديم. أما اليهود، فيستعملون كلمة «تناخ»[1] للتعبير عن العهد القديم وأسفاره. وتعترف الكنائس المسيحية و الجماعة اليهودية بالأسفار التسعة والثلاثين التى تشكل العهد القديم من النصوص المقدسة، رغم أن هناك مستويات مختلفة لمرجعيتها فى تراثها المتنوع[2]. ومنذ العصور الأولى للكتاب المقدس، تم الاعتراف بوحدة التوراة. وهناك ما يؤدى للقول بأن الجزأين الآخرين منبثقان منها: هناك «نبييم»، أى أسفار الأنبياء، الأوائل والأواخر، والتى تتناول بشكل خاص دعوة الناس للرجوع إلى التوراة؛ أما كتب «كتوبيم» فتوضح كيفية تطبيق التوراة فى الحياة اليومية، وتم تدريجيًا اعتبارها من النصوص المقدسة بجانب التوراة، مما سيجعل لها بعض المرجعية القانونية (شورير ١٩٧٩ - ٣١٦)[3].

---

(١) «بالنسبة لليهود، الكتاب المقدس هو التوراة. وهو تعليمات إلهية جاءت بطريق الوحى لإسرائيل» (شورير ١٩٧٩ : ٣٢١). وبالرغم من أن التوراة تعنى على وجه التحديد أسفار موسى الخمسة، إلا أن المصطلح صار أوسع ليشمل كل الكتابات العبرية.

(٢) على سبيل المثال، عند اليهود، التوراة لها الأهمية الأعلى، وعند المسيحيين كتب الأنبياء لها الشعبية الأعلى.

(٣) فى عدة أماكن من العهد الجديد نجد هذه التسمية المزدوجة: القانون و الرسل(فى متى ٥ : ١٧، و لوقا ٢٤ : ٢٧، و يوحنا ١ : ٤٦، و فى أعمال الرسل ١٣ : ١٥، وفى الرسالة إلى مؤمنى روما ٣ : ٢١) ولا توجد الثلاثية: قانون موسى و الرسل والمزامير إلا فى لوقا ٢٤ : ٤٤ .

وفيما بعد اتخذ مجموع هذه النصوص مستوى الكتابات المقدسة. وعلى الرغم من أن أصل أسفار الأنبياء والكتب غير معروف، نجد أول شهادة فى إلحاقها بالتوراة فى مقدمة كتاب دوَّنه يسوع بن سيرة فى القرن الثانى قبل الميلاد. احتلت التوراة دائمًا المكانة الأعلى: «ففيها تم كتابيّا، وبالكامل، الوحى الأصلى لإسرائيل. أما الأنبياء والكتب الأخرى «كتوبيم» فهى فقط تنقل الرسالة، ولهذا يتم وصفها بأنها التقليد (التراث)» (شورير ١٩٧٩ : ٣١٩)، و بالتالى فإنه من الطبيعى التركيز على التوراة فى دراستنا هذه عن أرض كنعان.

لا يوجد فى الكتاب المقدس وجهة نظر واحدة ومتناسقة فيما يتعلق بمسألة «الأرض» بل رؤى مختلفة وفقًا لكل فترة. ومن المستحيل دراسة هذا الموضوع بشكل شامل. تكتسب الطريقة التى استقر بها أبناء إسرائيل على أرض كنعان أهمية أكاديميةً واضحة؛ فقد أفرزت وتفرز إلى اليوم عواقب وخيمة لها جذورها فى الماضى ونتائجها فى الحاضر. من ضمن هذه النتائج يجب الإشارة إلى مفهومنا عن الله وعلاقته بشعب إسرائيل، بل وأيضًا بشعوب أخرى مثل الكنعانيين وبجميع الشعوب الأخرى. وهنا تثار مجموعة من الأسئلة، منها: كيف يجب أن نقرأ الكتاب المقدس؟ وما هى أهمية المعنى الذى نكشفه بتفسير النص؟ وهل يجب قراءته على أنه نص إبداعى متناسق ونهائى من عمل كاتب واحد فى زمن واحد؟ أو بالعكس يجب الأخذ بعين الاعتبار الوقت الطويل الذى تم فيه كتابته؟ و ما هو موقف القارئ أمام النص؟ وأى مرجعية يحيلها القارئ للنص ولتفسيره؟ و هل يعتبر القارئ أن الكتاب المقدس هو «كلمة الله» التى تستحق كل الاحترام الذى نعطيه لأصل نعتبره إلهيّا؟ سأجيب عن هذه الأسئلة فيما بعد. أما فى هذا الفصل فسأعرض بشكل خاص بعض مظاهر مفهوم «الأرض» فى الكتاب المقدس بدون تعليق على طريقة الكتابة، وسأهتم فقط بالنصوص كما هى. وسأحلل فيما بعد ما قد توحى به طريقة الكتابة.

الأرض فى التوراة

سفر التكوين

قدم (سفر التكوين) فى إصحاحه الأول، عرضه عن أصل تكوين العالم والحيوانات و البشر، بينما يتناول فى آياته ١١ : ٢٧ إلى ٥٠ : ٢٦ أصل شعب إسرائيل منذ

الأسلاف إبراهيم و سارة حتى موت يعقوب ويوسف فى مصر . وسأهتم هنا بتعريف مكانة الأرض وتحديدها فى العلاقة بين الرب و الشعب . وتدعم قوة النصوص العبرية الإيمان بالوعد الذى أعطاه الرب لإبراهيم وذريته لتملك أرض كنعان ، والاعتقاد التام بأن استعمار هذه الأرض ما هو إلا تطبيق لإرادته :

> **فشرع أبرام يتنقل فى الأرض إلى أن بلغ موضع شكيم إلى سهل مُورَةَ . وكان الكنعانيون آنئذ يقطنون تلك الأرض . وظهر الرب لأبرام وقال له : «سأعطى هذه الأرض لذريتك» (التكوين ١٢ : ٦ - ٧).**

غادر أبرام البلد بسبب المجاعة وذهب ليقضى بعض الوقت فى مصر . بعد خروجه من مصر (التكوين ١٢ : ٢٠) رجع مع زوجته إلى منطقة بيت إيل . وبما أن الأرض كانت صغيرة بحيث لا تكفى لإعالة إبراهيم ولوط ، قامت نزاعات بينهما (التكوين ١٣ : ٥ - ٦) . وأضاف الكاتب : « فى الوقت الذى كان فيه الكنعانيون والفرزيون يقيمون فى الأرض» (التكوين ١٣ : ٧) . وعلى الرغم من ذلك تقاسم أبرام ولوط الأرض ؛ واختار لوط حوض الأردن واستقر أبرام على أرض كنعان . وبعد هذا الاتفاق «الأرض مقابل السلام» ، قال الرب لأبرام :

> **ارفع عينيك وتلفت حولك من الموضع الذى أنت فيه ، شمالاً وجنوبًا ، شرقًا وغربًا ، فإن هذه الأرض التى تراها ، سأعطيها لك و لذريتك إلى الأبد . وسأجعل نسلك كتراب الأرض ، فإن استطاع أحد أن يحصى تراب الأرض يقدر آنئذ أن يحصى نسلك . قم وامش فى طول الأرض وعرضها لأنى لك أعطيها (التكوين ١٣ : ١٤-١٧).**

إذن بالمباركة الإلهية ، نصب أبرام خيامه فى سهل مَمْرَا فى حبرون ، حيث شيَّد للرب مذبحًا (التكوين ١٣ : ١٨) . وعقد الله ميثاقًا مع أبرام/ إبراهيم قائلاً :

> **سأعطى نسلك هذه الأرض من وادى العريش إلى النهر الكبير ، نهر الفرات . أرض القينيين ، والقنزيين ، والقدمونيين ، و الحثيين ، والفرزيين ، والرفائيين ، والأموريين ، والكنعانيين ، والجرجاشيين ، واليبوسيين (التكوين ١٥ : ١٨ - ٢١) . ولن تُسمَّى بعد الآن أبرام [ومعناه الأب الرفيع] بل يكون اسمك إبراهيم**

[ومعناه أب لجمهور] لأنى أجعلك أبًا لجمهور من الأمم؛ وأصيِّرك مثمرًا جدًا، وأجعل أممًا تتفرع منك، ويخرج من نسلك ملوك. و أقيم عهدى الأبدى بَيْنى وبينك، وبين نسلك من بعدك جيلاً بعد جيل، فأكون إلهًا لك و لنسلك مَن بعدك. وأهبك أنت وذريتك من بعدك جميع أرض كنعان ،التى نزلتَ فيها غريبًا، مُلكًا أبديًا. وأكون لهم إلهًا (التكوين ١٧ : ٥-٨).

وتجدد بعد ذلك الوعد مع إسحاق (التكوين ٢٦ : ٣-٤). ولضمان الإرث، دعا إسحاق الله أن يكمل الوعد ليعقوب (التكوين ٢٨ : ٤). وبينما كان يعقوب نائمًا قرب حاران سمع الوعد ذاته (التكوين ٢٨ : ١٣- ١٥) وعندما ظهر الرب ليعقوب مرة ثانية غيَّر اسمه إلى إسرائيل؛ ووعده مرة أخرى بهذه الأرض (التكوين ٣٥ : ١٢) وفى الآيات الأخيرة لسفر التكوين، قال يوسف لإخوته:

«أنا موشك على الموت ، ولكن الله سيفتقدكم ويخرجكم من هذه الأرض ويردكم إلى الأرض التى وعد بها بقسم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب (التكوين ٥٠ : ٢٤).

سفر الخروج

كما يتجلى فى العنوان، فإن الموضوع الأساسى لهذا الكتاب هو الخروج من مصر (الخروج ١:١ - ١٥ : ٢١). إلا أن الأحداث التى جرت بين الخروج من مصر والاستقرار فى كنعان مهمةٌ جدًا، حيث تم اللقاء الفريد من نوعه بين يهوه وموسى فى جبل سيناء (الخروج ١٩ : ١- ٤٠ : ٣٨) الذى كلم الله عليه موسى بينما بقى الناس حيث أمر يهوه موسى (الخروج ١٩ : ٢)، ومنح يهوه لموسى وشعبه كل ما يحتاجه شعب فى مرحلة انتقال، فقد أعطاه قائدًا وهوية ووعدًا بمكان يستقر فيه. أكد الله دور موسى كقائد للشعب، كما وضع لهم قانونًا وأعلن عن الوصايا العشر، وأرسل الشعب إلى بلاد كنعان. كان لمضمون هذا الكتاب أثر بالغ على كتبة الكتاب المقدس، وأصبحت أهمية هذه القصة ذات تأثير حاسم فى كل من الفكر اليهودى والمسيحى. حيث أصبح رمزًا لمجتمع يَهْوَهْ (الله) الذى أنقذه يهوه من العبودية فى أرض أجنبية، وقاده إلى أرض الوعد. وأظهر موسى ذلك عندما سمى ابنه جرْشوم، ومعناها غريب، وقال: «كنت نزيلاً فى أرض غريبة» (الخروج ٢ : ٢٢). وبينما كان بنو

إسرائيل يعانون من وطأة العبودية، سمع الرب أنينهم وتذكر ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (الخروج ٢ : ٢٤) وقرر أن ينقذ هذا الشعب من مصر :

فنزلت لأنقذهم من يد المصريين وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض طيبة رحيبة تفيض لبنًا وعسلاً، أرض الكنعانيين و الحثيين و الأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين (الخروج ٣ : ٨).

ويتلقى موسى أمرًا بحمل رسالة تحرير لشعبه (الخروج ٣ : ١٧)حيث أكد يهوه على لسان موسى عهده مع بنى إسرائيل حيث قال :

أنا هو الرب. قد ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهًا قديرًا على كل شىء. أما اسمى يَهْوَه فلم أعلنه لهم. وقد أبرمت معهم ميثاقى بأن أهَبَهُمْ أرض كنعان حيث أقاموا فيها كغرباء (الخروج ٦ : ٢ - ٤).

كان يجب على موسى أن يقنع شعبه بأن الرب «يهوه» سيحررهم من وطأة المصريين وسيجعلهم شعبه المختار، وأنه سيكون إلههم وسيقودهم إلى هذه الأرض التى وعد بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب (الخروج ٦ : ٦- ٨). وأثناء مفاوضات موسى وهارون مع فرعون، ركز موسى على هذا المطلب «أطلق سراح شعبى» دون أن يذكر التوجه أو الهدف من ذلك ؛ إلا تقديم تضحيات للرب وعبادته (الخروج ٧ : ١٤، ٨ : ١،٨: ٢٠، ٩ : ١٣، ١٠ : ٣). وتظهر فكرة أرض الوعد أيضًا فى الاحتفال بعيد الفصح (١٢ : ٢٤-٢٥).

وبعد أن قضى بنو إسرائيل ٤٣٠ عامًا فى مصر(*)، ارتحلوا من رعمسيس إلى سكوت، حيث بلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ رجل باستثناء الأطفال (الخروج ١٢ : ٣٧- ٤٠). إن طقوس الاحتفال بعيد الفصح ما هى إلا طقوس الاحتفال بالاستقرار فى هذا الوطن(الخروج ١٢ : ٨).

(*) طبقًا للكتاب المقدس، خرجوا بعد أربعة أجيال، لأنه - طبقًا للكتاب المقدس - تزوج عمرام من عمته بوكابد، فأنجبا موسى (الخروج ٦ : ٢٠)، وعمرام هو بن قهات بن لاوى بن يعقوب (الخروج ٦ : ١٤ - ١٨) وكانوا سبعين عند هجرتهم لمصر - المترجمة.

لذلك عندما يُدخلكم الرب أرض الكنعانيين و الحثيين و الأموريين والحويين واليبوسيين، التى تفيض لبنًا وعسلاً، والتى أقسم لآبائكم أن يهبكم إياها، تمارسون هذه الفريضة فى هذا الشهر . سبعة أيام لا تأكلون فيها خبزًا مختمرًا، وفى اليوم السابع يكون احتفال للرب (الخروج ١٣ : ٥ – ٦).

هذا كما تم تكرار الإشارة إلى هبة الأرض فى موضع آخر(الخروج ١٣ : ١١-١٢).

وبدأ خروج موسى وشعبه. ووصفت ترنيمة موسى التى أنشدها بعد أن عبر البحر الأحمر الرعب الذى أصاب أهل فلسطين وملوك أدوم وموآب وكل سكان كنعان بسبب هلاك المصريين (الخروج ١٥ : ١ – ١٦). وفى النهاية استقر بنو إسرائيل (الخروج ١٥ : ١٧ – ١٩). وخلال التيه ، اقتات الإسرائيليون بالمن طوال أربعين سنة حتى وصلوا إلى حدود أرض كنعان (الخروج ١٦ : ٣٥). ولكن شهدوا نزاعات مع العمالقة؛ وانتصر يشوع والشعب عليهم بالسيف فى رفيديم (الخروج ١٧ : ٨ – ١٦). وفى سيناء، وعد يهوه أن يجعلهم شعبه الخاص إذا أطاعوا أوامره (الخروج ١٩ : ٣ – ٨). ويذكر الإصحاح العشرون من سفر الخروج كلمات يهوه لموسى، بينما يعرض الإصحاحان ٢١ و ٢٣ أوامر الرب، لاسيما تلك التى تناسب شعبًا استقر بالفعل حيث يقول:

إذ يسير ملاكى أمامك حتى يُدخلك بلاد الأموريين و الحثيين و الفرزيين والكنعانيين والحويين و اليبوسيين الذين أنا أبيدهم؛ إياك أن تسجد لآلهتهم، ولا تعبدها، ولا تعمل أعمالهم، بل تبيدهم وتحطم أنصابهم (الخروج ٢٣ : ٢٣-٢٤).

وسيكون حتمًا ربهم المحارب فى صفهم:

وأجعل هيبتى تتقدمك، أزعجُ كل أمة تقف فى وجهك، وأجعل أعداءك يولون الأدبار أمامك. وأبعث الزنابير أمامك، فتطرد الحويين و الكنعانيين و الحثيين من قدامك، إنما لن أطردهم فى سنة واحدة لئلا تقفر الأرض فتتكاثر عليك وحوش البرية، بل أطردهم تدريجيًا من أمامك ريثما تَنْمون وترثون البلاد. وأجعل تخومك تمتد من البحر الأحمر إلى ساحل فلسطين، ومن البرية حتى نهر الفرات، وأخْضِع لك سكان الأرض فتطردهم من أمامك. لا تبرم معهم ولا مع آلهتهم

ميثاقًا، ولا تسكنهم فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ إلىَّ، لأنك إن عبدت آلهتهم، فإن ذلك يكون لك فخًا (الخروج ٢٣ : ٢٧ - ٣٣).

وعلى الرغم من الأمر الإلهى بإعمال الذبح الجماعى فى السكان الأصليين، نجد هذا الأمر بعدم قمع الأجنبى (الخروج ٢٢ : ٢١، ٢٣ : ٩). وعندما تأخر موسى على جبل سيناء، قدموا أضحيات للعجل الذهبى (الخروج ٣٢ : ١٩-٢١). وفى حالة غضب، كسر موسى لوحى الشهادة(*)، ودمر العجل. و قد أمر اللاويين أن يثبتوا ولاءهم واتباعهم للرب بقتل ٣٠٠٠ عضو من الشعب (الخروج ٣٢ : ٢٦-٣٠). وعند قدوم وقت الارتحال:

قال الرب لموسى: «اترك هذا المكان أنت والشعب الذى أصعدته من ديار مصر، وامض إلى الأرض التى أقسمتُ لإبراهيم وإسحاق و يعقوب قائلاً: سأهبها لنسلك. و سأرسل أمامك مَلاكًا، وأطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيِّين والحويِّين واليبوسيين، إنها أرض تفيض لبنًا وعسلاً. أما أنا فلن أسير فى وسطكم لأنكم شعب متصلب القلب لئلا أفنيكم فى الطريق» (الخروج ٣٣ : ١-٣).

واستبدل يهوه باللوحين الأوَّلين لوحين آخرين لموسى (الخروج ٣٤ : ١ -٥). وعندما ظهر الرب لموسى، طلب موسى من الرب العفو باسم الشعب (الخروج ٣٤: ٨- ٩). ووعد يهوه أن يقوم بمعجزات للشعب وأمرهم أن يخلصوا له كل الإخلاص؛ كما أمر بالانفصال عن الشعوب الأخرى:

ولكن أطع ما أوصيتك اليوم به، ها أنا طارد من أمامك الأموريين و الكنعانيين والحثيين و الفرزيين والحويين و اليبوسيين. إياك أن تعقد معاهدة مع سكان الأرض التى أنت ماض إليها لئلا يكُونوا شَركًا لكم. بل اهدموا مذابحهم، واكسروا أنصابهم، واقطعوا أشجارهم المقدسة. إياكم أن تعبدوا إلهًا آخر غيرى، لأن الرب اسمه غيور جدًا. إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض، لأنهم حين يعبدون آلهتهم مشركين ويذبحون لهم، يدعونكم فتأكلون من ذبيحتهم (الخروج ٣٤ : ١٥-١١).

(*) اللذين عليهما الوصايا العشر، طبقًا للكتاب المقدس ـ المترجمة.

ومن المحظور على بنى إسرائيل أن يتزوجوا من أجنبيات أو أن يصنعوا آلهة مسبوكة ؛ كما يجب أن يحتفلوا بالأعياد (الخروج ٣٤ : ١٦-٢٣). وقد تم الإشارة مرة أخرى إلى العناية الإلهية : «ها أنا أطرد الأمم من أمامكم ، وأوسع حدودكم، ولن يطمع أحد فى أرضكم حين تصعدون للمثول أمام الرب إلهكم ثلاث مرات فى السنة» (الخروج ٣٤ : ٢٤). وتلقى موسى الأمر بكتابة هذه الكلمات «دَوِّنْ هذه الكلمات ؛ فبها أبرمت معك ومع إسرائيل ميثاقًا» (الخروج ٣٤ : ٢٧ - ٢٨). وعندما نزل موسى من جبل سيناء، نقل كل الأوامر التى تلقاها من يهوه (الخروج ٣٤ : ٣٢). وينتهى سفر الخروج بوصف اكتمال بناء مسكن يهوه (الإصحاحات ٣٥ - ٤٠).

سفر اللاويين

ويتناول هذا الكتاب المخصص للاويين الشعائر الدينية ؛ كما يحدد كل ما يضمن قداسة كل مظاهر الحياة . و يستكمل هذا السفر إصحاحات سفر الخروج من الإصحاح ٢٥ إلى الإصحاح ٤٠ ؛ ويستمر موضوعه الأساسى فى سفر العدد. ويحدد كتاب اللاويين (الإصحاحات من ١ إلى ٧) التشريع بشأن تقديم الذبائح . أما الإصحاحات من ٨ إلى١٠ ، فتتناول مسح هارون وأبنائه بالزيت (التكريس للخدمة الكهنوتية). وأعطى يهوه أمرًا لهارون بالتمييز بين المقدس والمحلل، والنجس والطاهر، حتى يعلم شعب إسرائيل جميع الفرائض التى أمر بها الرب على لسان موسى(اللاويين ١٠ : ٨ -١١) وتأتى بعد ذلك مجموعة من القوانين بشأن الطهر الذى يصل إلى الذروة أو الكفارة، يوم كيبور (الإصحاحات من ١١ إلى ١٦ ، يوم الكفارة فى ٢٣ : ٢٨). أما قانون القداسة فيتطرق إلى الطابع المقدس للدم والجنس والقواعد المختلفة للسلوك والتصرف و العقوبات (اللاويين من ١٧ إلى ٢٠). تأتى بعد ذلك الإشارة إلى أوامر عن قداسة الكهنوت والقواعد المتبعة للذبائح (اللاويين من٢١ إلى ٢٢) ومواسم أعياد الرب (اللاويين ٢٣). وهناك تشريع خاص بالسنة السابعة وسنة اليوبيل(اللاويين ٢٥). أما الإصحاح السادس والعشرون، فيحدد عقوبات العصيان. وأخيرًا يأتى فى الإصحاح السابع والعشرين، الذى يبدو كملحق لقانون القداسة، ذكر النذور المقدمة للمعبد.

وتم فى هذا السفر تكرار الوعد الإلهى بشأن هبة أرض كنعان (اللاويين ١٤ : ٣٤)؛ كما أمر يهوه الإسرائيليين بضرورة أن يطبقوا أحكامه وليس قوانين المصريين والكنعانيين(١٨ : ١-٥) ولكي يضمن بنو إسرائيل بقاءهم على هذه الأرض يجب أن يحترموا قوانين الطهر(اللاويين ١٨).

وهناك ممنوعات خاصة تتعلق بتقديم الذرية قربانًا للوثن مولك (اللاويين ١٨ : ٢١)، والشذوذ الجنسى (١٨ : ٢٢) ومعاشرة البهيمة (١٨ : ٢٣). وبسبب هذه الأعمال المشينة تَقيَّأت الأرض سكان كنعان، فلا يجب على بنى إسرائيل أن يرتكبوا مثل هذه الرجاسات حتى لا تتقيأهم الأرض؛ كما يجب عليهم المحافظة على شعائر يهوه (اللاويين ١٨ : ٢٤-٣٠).

و نلاحظ مرة أخرى أن سوء معاملة الأجنبى وظلمه ممنوعان (اللاويين ١٩ : ٣٣-٣٤)، كما سيكون مصير من يقدم أحد أبنائه قربانًا للصنم مولك، هو القتل رجمًا بالحجارة (اللاويين ٢٠ : ٢)، وكذلك بالنسبة لانتهاكات أخرى (اللاويين ٢٠ : ٩-٢١)، كما يتم إعادة التذكير بالشروط التى تسمح لهم بالبقاء على هذه الأرض وبالانفصال عن سكان الأرض (اللاويين ٢٠ : ٢٢- ٢٧) وبعد تشريع الأعياد، يتم وصف كيفية التعامل مع الأرض (اللاويين ٢٥ : ٢ - ٣) فنلاحظ وصف السنة السابعة التى ترتاح فيها الأرض وسنة اليوبيل. أما الإصحاح السادس والعشرون، فيصف البركات الناجمة عن الطاعة، ومن بين هذه البركات: خصوبة الأرض و السلام والفوز على الأعداء وكثرة الذرية وضمان وجود الرب معهم (اللاويين ٢٦ : ٣-١٣). و فى المقابل، سيتم معاقبة العصيان بعقوبات وآفات كثيرة: الأمراض وتدمير المحاصيل والجفاف وهجوم الحيوانات المتوحشة والأعداء والمجاعة وأكل لحم الأبناء وتدمير المدن والمعابد (اللاويين ٢٦ : ١١ - ٣٩)، وسيلى ذلك تشتيت الشعب ونفيه:

وأجعل الأرض قفرًا فيرتاع من وحشتها أعداؤكم الساكنون فيها و أشتتكم بين الشعوب، وأجرد عليكم سيفى، وألاحقكم، وأحول أرضكم إلى قفر ومدنكم إلى خرائب. عندئذ تستوفى الأرض راحة سبوتها طوال سنين وحشتها وأنتم مشتتون فى ديار أعدائكم؛ فتعوض فى أيام وحشتها عن راحتها التى لم تنعم بها فى سنوات سبوتكم عندما كنتم تقيمون عليها. أما الباقون منكم فى أرض

أعدائكم، فإنى ألقى الرعب فى قلوبهم فيهربون من حفيف ورقة تسوقها الريح، وكأنهم يهربون من السيف، ويسقطون، ويَعْثُر بعضهم ببعض كمن يفر من أمام سيف من غير طارد لهم، ولا تثبتون أمام أعدائكم فتهلكون بين الشعوب، وتبتلعكم أرض أعدائكم. أما بقيتكم فتفنى بذنوبها وذنوب آبائها فى أرض أعدائكم كما فنى آباؤهم من قبلهم (اللاويين ٢٦ : ٣٢ - ٣٩).

«ولكن إذا اعترفوا بخطاياهم وخطايا آبائهم وبخيانتهم لى. . . فإنى أذكر ميثاقى مع يعقوب وميثاقى مع إسحق وميثاقى مع إبراهيم . . . . وأذكر الأرض» (اللاويين ٢٦ : ٤٠ - ٤٢). وحتى وهم فى أرض أعدائهم، فلن ينبذهم الرب ولن ينقض ميثاقه معهم (اللاويين ٢٦ : ٤٤ - ٤٦).

وينتهى هذا الكتاب بملحق يشرح بالتفصيل طرقًا لفداء نذر [شخص] موهوب للرب (اللاويين ٢٧).

سفر العدد

يعبر العنوان العبرى لهذا الكتاب عن مضمونه. وتدور أحداثه فى ثلاث مراحل من متاهة بنى إسرائيل فى الصحراء: طريقة تنظيم المجتمع قبل رحيله من سيناء (العدد ١ : ١ -١٠ : ١٠)، و المسيرة فى الصحراء من سيناء حتى سهول موآب (العدد ١٠ : ١١ -٢١ : ٣٥)، والاستعدادات للدخول إلى أرض الوعد من سهول موآب (العدد ٢٢ : ١ - ٣٦ : ١٣). وكان عدد الخارجين لا يقل عن ٦٠٣٥٥٠(*) من الرجال البالغين من العمر عشرين سنة فما فوق (العدد، الإصحاح الأول: ٤٥ - ٤٦) و٨٥٨٠ من اللاويين (٤: ٤٨) وبعد أن تأكدوا من طهارة المخيم والمجتمع (الإصحاحان ٥ - ٦) وممارسة طقوس الرحيل (٧: ١ - ١٠، ١٠) ساروا فى الصحراء على مراحل، وطبقًا للتراث الدينى، كانوا فى طريقهم من سيناء إلى صحراء فاران إلى مشارف أرض الوعد كثيرى النواح والتحسر على تركهم مصر، والحنين لحياتهم فيها (العدد: ١٠: ١١ - ١٢: ١٦) (١٣: ١ - ١٥: ٤١).

(*) ارجع لهامش صفحة ٢٧ ـ المترجمة.

أفاد الجواسيس الذين أرسلوا لاستكشاف الأرض، أن الناس الذين يعيشون هناك أقوياء، وأن المدن محصنة وكبيرة:

«فالعمالقة مقيمون فى أرض الجنوب، والحثِّيون واليبوسيون والأموريون متمنعون فى الجبل، والكنعانيون مستوطنون عند البحر وعلى محاذاة الأردن» (العدد ١٣ : ٢٩).

وأمام شكاوى الشعب و الاقتراحات القائلة بالتراجع، حثَّ يشوع و كالب الشعب على عدم التمرد على الرب: «الرب معنا فلا ترهبوهم» (العدد ١٤ :٧ - ٩) وبعد مناقشات عديدة وتهديدات، بدأ الشعب فى مسيرته (العدد ١٤ : ٢٥)، وحُرم موسى من أن يقود شعبه من مريبة إلى أرض الميعاد بعد أن ضرب الصخرة بعصاه مرتين فتفجر ماء غزير وشرب الجماعة (العدد ٢٠ : ١٣)، ثم عاقب الرب هارون بشكل قاس بسبب قلة إيمانه حيث أماته على جبل هور (العدد ٢٠ : ٢٢- ٢٩). ثم أخذت الأحداث شكلاً عنيفًا عندما قبض ملك عراد على بعض من بنى إسرائيل:

فنذر الإسرائيليون للرب نذراً قائلين: «إن أظفرتنا بهؤلاء القوم، لَنُحَرِّمَنَّ(*) مدنهم». فاستجاب الرب لهم، وأظفرهم بالكنعانيين، فأهلكوهم هم ومدنهم، فسُمِّيَ المكان «حُرْمَة» (العدد ٢١ : ٢-٣).

وعندما رفض سيحون ملك الأموريين للإسرائيليين طلبهم بالمرور فى تخومه، هاجمه الإسرائيليون وهزموه بحد السيف واستولوا على بلاده (العدد ٢١ : ٢١ - ٢٤). ولقىَ عوج ملك باشان نفس المصير. و خوفًا من بنى إسرائيل، استُدْعىَ بالاق ملك موآب، إلى بلعام ليلعن بنى إسرائيل إلا أنه على العكس باركهم (العدد ٢٢ : ٢٤). ورغم ذلك ارتكب الإسرائيليون الزنى مع الموآبيات وعبدوا بعل فغور. فحل غضب الرب على بنى إسرائيل (٢٥ : ١-٣). إلا أن فينْحَاس رد غضبه عنهم بقتل عابدين من عبدة بعل فغور وهما رجل إسرائيلى وامرأة مَديانية؛ فكافأه الله بأن عقد معه ميثاق سلام (العدد ٢٥ : ١٢).

(*) أى نستبيح القتل والتدمير ـ المترجمة.

ثم قـال الرب لموسى : «أسـيئـوا مـعـاملة المديانيين وأهلكوهم لأنـهم ضـايقـوكم بمكايدهم التى احتالوا بها عليكم بشأن فغور» (٢٥ : ١٦ - ١٧).

وسمح الله لموسى بلمح الأرض التى لن يدخلها؛ واختار يهوه يشوع ليخلف موسى (العدد : الإصحاح ٢٧). وينقلنا الإصحاح الواحد والثلاثون إلى قصة الحرب على المديانيين. بعد أن قتل بنو إسرائيل كل الرجـال، قتلوا أيضًا ملوك مـديان الخـمسة بالإضافة إلى ملك بلعام، وقبضوا على نسائهم وأطفالهم وسرقوا مواشيهم وحرقوا مدنهم ومخيماتهم، واستولوا على كل الغنائم والأسلاب ممن بقى على قيد الحياة من الناس والحيـوان؛ فأبدى موسى سخطه لأنهم تركـوا النسـاء على قـيد الحـيـاة، وهن اللواتى أغوينهم لعبادة فغور وأمر بقتل كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة ضاجعت رجلاً. و كان لهم الحق فى استحياء كل عذراء لم تضاجع رجلاً، ثم تفرغوا بعد ذلك للأمور الأكثر جدية، بتطهير أنفسهم و ملابسهم وتم تقسيم الغنائم، حيث خُصص جزءٌ منها ليهوه(*).

(*) تحت عنوان القضاء على المديانيين جاء ما يلى: قال الرب لموسى: «انتقم من المديانيين لبنى إسرائيل، وبعدها تموت وتنضم إلى قومك». فقال موسى للشعب: «جهزوا منكم رجالاً مجندين لمحاربة المديانيين والانتقام للرب منهم. أرسلوا للحرب ألفًا واحدًا من كل سبط من أسباط إسرائيل». فتم اختيار ألف من كل سبط، فكانوا اثنى عشر ألفًا من بين ألوف إسرائيل مجردين للقتال. فأرسلهم موسى، ألفًا من كل سبط، للحرب بقيادة فينحاس بن ألعازار الكاهن، الذى أخذ معه أمتعة القدس وأبواق الهتاف. فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر، وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة: أوى وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلوا بلعام بن بعور بحد السيف. وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدنهم كلها بمساكنها وحصونها، واستولوا على كل الغنائم والأسلاب من الناس والحيوان، ورجعوا إلى موسى وألعازار الكاهن وجماعة إسرائيل بالسبى والأسلاب والغنيمة إلى المخيم فى سهول موآب بالقرب من نهر الأردن مقابل أريحا. (٣١ : ١- ١٢).

أما تحت عنوان تطهير المحاربين وقتل النساء الأسيرات: فقد خرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم: «لماذا استحييتم النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بنى إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة للرب، فتفشى الوباء فى جماعة الرب. =

ويقص الإصحاح الثاني والثلاثون رغبة أبناء رأوبين وجاد في الاستقرار في شرق الأردن بدلاً من عبور نهر الأردن مع الآخرين؛ إلا أن موسى أصر على أن يحملوا السلاح وأن يعبروا النهر أمام يهوه، حتى يقضوا على الأعداء، وأن يُخضعوا الأرض، وبعد ذلك قد يستطيعون الرجوع واحتلال شرق الأردن (العدد ٣٢ : ٦-٢٣) ووافقوا على ذلك. وأعطاهم موسى مملكة سيحون- ملك الأموريين- ومملكة عُوج- ملك باشان:

وقال الرب لموسى في سهول موآب بالقرب من نهر الأردن مقابل أريحا، أوص بني إسرائيل وقل لهم: إنكم لا بد عابرون نهر الأردن نحو أرض كنعان، فاطردوا جميع أهل الأرض أمامكم، ودمروا تماثيلهم المنحوتة، وأبيدوا أصنامهم المسبوكة، واهدموا كل مرتفعاتهم. واملكوا الأرض و استوطنوا فيها، لأنني قد وهبتكم الأرض لكي ترثوها. اقتسموا الأرض بالقرعة حسب أسباطكم، فالسبط الكبير يأخذ نصيبًا أكبر، والسبط الصغير ينال نصيبًا أقل. وكلٌّ يقيم حيث يخرج له بالقرعة، واقتسموا الأرض حسب أسباطكم. ولكن إن لم تطردوا أهل الأرض من أمامكم، يصبح الباقون منهم أشواكًا في عيونكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقوكم في الأرض التي أنتم مقيمون فيها، عندئذ أنزل بكم ما أنا مزمع أن أنزله بهم (العدد ٣٣ : ٥٠ - ٥٦).

أما الإصحاحان ٣٥ و ٣٦، فيشرحان كيفية تقسيم الأرض، ويعرضان الجزء المخصص للاويين. وتختم الآية الأخيرة بهذه الكلمات: «هذه هي الوصايا و الشرائع التي أوصى بها الرب بني إسرائيل على لسان موسى، في سهول موآب بجوار نهر الأردن مقابل أريحا» (العدد ٣٦ : ١٣).

=فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً. وأما أنتم فامكثوا خارج المخيم سبعة أيام، وعلى كل من قتل نفسًا، ومن لمس قتيلاً أن يتطهر في اليوم الثالث. . . . وفي اليوم السابع، افعلوا هذا أنتم وسباياكم. وكذلك طهروا كل ثوب، وكل متاع جلدي، وكل ما هو مصنوع من شعر المعز وكل آنية من خشب». (٣١: ١٣- ٢٠).

سفر التثنية

هذا الكتاب هو سفر الشرائع، إذ يسعى إلى مواءمة التراث مع ظروف جديدة. وأحد أهم تأكيداته المميزة، علاقة الأرض بالشعب. ويوجه موسى خطابًا طويلاً للشعب (التثنية ١ : ١ - ٤ : ٤٩) ويعطى مقدمة لكتاب الشرائع (التثنية ٥ : ١ - ١١ : ٣٢). تلا ذلك الشرائع (١٢ : ١- ٢٦ : ١٥) وتوصيات أخرى (٢٦ : ١٦ ـ ٢٨ : ٦٨). ويختم هذا الكتاب الوصية الأخيرة (٢٩ : ١ - ٣٠ : ٢٠)، بينما ينتهى السفر بالعهد والشهادة وموت موسى (التثنية ٣١ : ١ - ٣٤ : ١٢).

على الرغم من أنه يتم وصف سفر التثنية بأنه من الكتب الأكثر لاهوتية فى العهد القديم، وأنه يدعو إلى مجتمع مثالى، إذ يدافع عن حقوق الأكثر بؤسًا (الأرملة واليتيم والأجنبى) (لوفينك، ١٩٩٦) إلا أن التناول الذى يقترحه عن مشكلة الأرض وسكانها الأصليين يثير إشكالية أخلاقية.

يستمر الكتاب المقدس فى تكرار وعد الأرض لإبراهيم و إسحاق ويعقوب وذريتهم. وفى موآب يُذكِّر موسى شعبه بالأوامر التى أمر بها الرب فى جبل حوريب: «ادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من وادى العربة والجبل والسهل والنقب وساحل بحر أرض الكنعانيين و لبنان، إلى النهر الكبير نهر الفرات» (التثنية ١ : ٦-٨). ولا يجب على الشعب أن يخاف من المدن المحصنة: «لأن الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم كما رأيتموه معكم فى مصر» (التثنية ١ : ٣٠-٣١).

وعندما رفض الملك سيحون ـ ملك حشبون ـ عبور بنى إسرائيل، نصرهم يهوه عليه. واستولوا على جميع مدنه وقضوا فى كل مدينة على الرجال والنساء والأطفال «واستولينا على جميع مدنه، وقضينا فى كل مدينة على الرجال والنساء والأطفال، فلم ينج حَىٌّ منهم» (التثنية ٢ : ٣٤). ولم يكن مصير الملك عوج ـ ملك باشان ـ أفضل حالاً «فهزمناه حتى لم ينج منهم حى» (التثنية ٣ : ٣). ولم يكن يشوع خائفًا من المعركة القادمة؛ لأن يهوه يحارب لأجله (التثنية ٣ : ٢٢). واكتفى موسى بالنظر إلى الأرض التى سيحتلها يشوع وهى تقع بعد نهر الأردن (التثنية ٣ : ٢٧ - ٢٩). والدخول إلى الأرض مشروط باحترام القوانين وأوامر الرب (التثنية ٤ : ١- ٨). وإذا

نسى المستعمرون الجدد هذه الأوامر فسيُشَتَّتون فى الأرض (التثنية ٤ : ٢٦ -٢٧).
وكرر موسى وصايا يهوه العشر (٥ : ٦ -٢١)، حيث أصر على الدور الأساسى لتطبيق الأوامر؛ ونقرأ بعد الشيما (شريعة المحبة) ما يلى:

ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أقسم لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يهبها لكم، حيث تنتشر مدن عظيمة لم تبنوها، وبيوت عامرة بخيرات لم تخزنوها، وآبار محفورة لم تحفروها، وأشجار كروم وزيتون لم تغرسوها، فأكلتم وشبعتم، فإياكم أن تنسوا الرب إلهكم الذى أطلقكم من عبودية ديار مصر. فالرب إلهكم تتقون، و إياه تعبدون، وباسمه تحلفون. لا تسيروا خلف آلهة أخرى من آلهة الأمم المحيطة بكم، لأن الرب إلهكم إله غيور حالٌّ فى وسطكم، فيحتدم غضبه عليكم ويبيدكم عن وجه الأرض (٦ : ١٠- ١٥ وانظر أيضًا ٦ : ١٨ - ١٩).

دور يهوه أساسى فى الغزو:

ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم، أكثر و أعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرمونهم. لا تقطعوا لهم عهدًا، ولا ترفُقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتى ليعبدوا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم و يهلككم سريعًا. ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم و أحرقوا تماثيلهم. لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم. فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. و لم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثرُ عددًا من سائر الشعوب. فأنتم أقل الأمم عددًا؛ بل من محبته، وحفاظًا على القسم الذى أقسم به لآبائكم، أخرجكم بقوة فائقة، وفداكم من نير عبودية فرعون ملك مصر. فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله، الإله الأمين الوفى بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظى وصاياه إلى ألف جيل. وهو يجازى مبغضيه علنًا، فيستأصلهم ولا يتمهل، بل يسرع فى معاقبة من يبغضه. فأطيعوا

الوصايا والفرائض والأحكام التى أوصيكم بها اليوم لتمارسوها (التثنية ٧ : ١ - ١١).

وبينما هم يستعدون لدخول أرض الوعد، يعطيهم مزيداً من الأوامر:

استمعوا يا بنى إسرائيل: أنتم على وشك عبور نهر الأردن لتدخلوا لطرد شعوب أكبر وأعظم منكم، وللاستيلاء على مدن عظيمة محصنة بأسوار تبلغ عنان السماء، يقيم فيها العناقيون الجبابرة العمالقة الذين عرفتم عنهم وسمعتم من يقول: «من يستطيع أن يتحدى العناقيين؟» فاعلموا اليوم أن الرب إلهكم يتقدمكم كنار آكلة، وهو الذى يستأصلهم ويذلهم أمامكم، فتطردونهم وتبيدونهم سريعًا كما كلمكم الرب. لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم: «لقد أدخلنا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا». إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم. إذ ليس بفضل صلاحكم و استقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم، و إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم وفاءً بوعده الذى أقسم عليه لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب (التثنية ٩ : ١ - ٥).

وذكَّرهم موسى بأنهم ارتدوا فى جبل حوريب (التثنية ٩ : ٨ - ٢٩) ودعا شعبه إلى أن يحترم الوصايا بشكل يسمح لهم بأن يكونوا أقوياء حتى يحتلوا الأرض ليعيشوا بها طويلاً (التثنية ١١ : ٨ - ٩، ٣١-٣٢). وإذا أطاعوا الرب؛ سيطرد جميع الأمم ويعطيهم أراضيهم (١١ : ٢٣) وستتوسع أرضهم من الصحراء إلى لبنان ومن الفرات إلى البحر غربًا (التثنية ١١ : ٢٤). وتجىء الإشارة إلى القوانين التى يجب أن يحترموها فى الإصحاح الثانى عشر إلى الإصحاح السادس والعشرين؛ حيث يجب عليهم أن يدمروا معابد الشعوب الأخرى ومذابحهم وأصنام آلهتهم ومسح أسمائهم من جميع الأماكن (التثنية ١٢ : ٢ -٣). وسيقدمون إلى المكان الذى اختاره الرب - ليسكن فيه اسمه - كل ما يأمر به (التثنية ١٢ : ١١). التقليد [تقليد الشعوب الأخرى] والشرك محظوران (التثنية ١٢ : ٢٩ -٣٠)؛ ومن يفعل ذلك فيتم رجمه بالحجارة (التثنية ١٣ : ١٠). يجب تفادى الانحراف: «العدل والعدل وحده أجْرُوا، لتحيوا وتمتلكوا الأرض التى يهبها الرب إلهكم لكم» (التثنية ١٦ : ٢٠).

ومن ضمن القواعد أن يبين الكاهن بوضوح أن يهوه هو الذى يعطى النصر (التثنية ٢٠ : ٤). وعندما تستسلم مدينة محاصرة، يخضع جميع السكان للرق، فيصبحون كلهم عبيداً، وإذا رفضوا، اقتلوا كل الذكور وخذوا كل النساء والأطفال والماشية كغنائم (التثنية ٢٠ : ١١-١٤).

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا فلا تَستَبْقُوا فيها نسمة حيَّة، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثيين و الأموريين و الكنعانيين و الفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم، لكى لا يعلِّموكم رجاساتهم التى مارسوها فى عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم و تخطئوا إلى الرب إلهكم (التثنية ٢٠ : ١٦-١٨).

إلا أنه يتم استثناء الشجرة المثمرة ، وكذلك تُستثنى من يرغب فيها أحدكم ويريد أن يتزوجها « . . وشاهد أحدكم بين الأسرى امرأة جميلة الصورة فأولع بها وتزوجها» (التثنية ٢١ : ١١). ويتم بعد ذلك عرض شرائع أخرى فى إصحاحات أخرى (التثنية ٢١ : ١٥-٢٣ : ١) مصحوبة بشرائع ذات طابع إنسانى أو لها علاقة بالطقوس (التثنية ٢٣ : ٢-٢٥ : ١٩). ويتم تقديم أبكار الغلات إلى الرب كرمز للإيمان(التثنية ٢٦ : ٦-١٠) . وهناك تذكير آخر باحترام الشرع (التثنية ٢٧ : ١ - ٢٦)، بالإضافة إلى بركات الطاعة ولعنات العصيان (التثنية ٢٨ : ١- ٦٩). ويُذكِّر موسى بالعهد ويحذِّر من أن الكفر سيعاقب بالنفى من الأرض(التثنية ٢٩ : ١٣- ٢٩). وإذا تذكر الشعب البركات واللعنات، وعاد إلى يهوه « فإن الرب إلهكم يلم شتاتكم من بين جميع الشعوب» (التثنية ٣٠ : ٣ -٥). فالبديل واضح: إذا احترموا الوصايا ينتشرون فى أرض الوعد وإلا لن يبقوا فيها أبدًا إذا لم يحترموها(التثنية ٣٠: ١٥-٢٠).

أما بقية الكتاب ، فيعبر عن وصية موسى الأخيرة، وعهد موسى، و اختيار يشوع ليقود الشعب وراء نهر الأردن (التثنية ٣١ : ٣- ٦)، يكرر موسى الرسالة على يشوع، كما يتلقى موسى نبأ موته وارتداد شعبه بعد وفاته (التثنية ٣١ : ١٦-٢١)، وينشد نشيداً للرب، حيث يمجد الرب لكماله تارة ،وتارة أخرى يذكر سلسلة أخطاء شعبه والتحذيرات المكررة من وقوع فواحش فى المستقبل (التثنية ٣٢ : ١-٤٣). ويعتمد استقرار الشعب فى أرض الوعد على تطبيق كل أوامر الرب وشرائعه (التثنية ٣٢ : ٤٦ - ٤٧)، وقبل أن يموت موسى ، صعد بأمر من الرب إلى جبل نبو، حيث شاهد عن

بُعد أرض كنعان (التثنية ٣٢ : ٥٢). وفي الإصحاح الثالث والثلاثين ينشد موسى ترانيم الموت بمدح يهوه (التثنية ٣٣ : ٢٧ - ٢٩).

وينتهى الكتاب برؤية موسى أرض الوعد: من جلعاد إلى دان وأيضًا أراضى نفتالى، وأفرايم ومنس، وسائر أرض يهودا الممتدة إلى البحر الغربى [البحر المتوسط]. وكذلك النقب فى الجنوب، ووادى نهر الأردن وأريحا مدينة النخيل حتى صوغر. (التثنية ٣٤ : ١ -٣).

ومات موسى «وتم دفنه فى الوادى فى أرض موآب مقابل بيت فغور و لم يعرف أحد قبره إلى هذا اليوم» (٣٤: ٦). كان يبلغ عمره ١٢٠ عامًا عندما تُوفِّى. وكان يشوع بن نون قد امتلأ بروح الحكمة؛ لأن موسى وضع يديه عليه. وعلى الرغم من أنه لا يوجد نبى كموسى، إلا أنه ترك خليفة يستحق خلافته (التثنية ٣٤: ٤ ـ ١٢).

الأرض فى سفر يشوع

يقدم لنا هذا السفر بطله يشوع، والذى تم اختياره إلهيًا لأنه يستحق خلافة موسى (سفر يشوع، الإصحاح ١) وهو صورة طبق الأصل من موسى من عدة وجوه. وقدره هو أن يتمم رسالة موسى بقيادة الشعب إلى أرض الوعد، حيث يتم هناك تطبيق وصايا الله حتى يستمروا فى البقاء على هذه الأرض. ويصف الجزء الأول (٢: ١-١٢ : ٢٤) غزو بنى إسرائيل للأرض فى أسلوب ملحمى، مُركزًا على الاستيلاء على بعض المدن المهمة و على المصير الذى ينتظرهم وفقًا لشرائع الحرب المقدسة. ويلى ذلك تقسيم الأرض (١٣ : ١-٢١ : ٤٥) وينتهى الكتاب بملحق (يشوع ٢٢ : ١-٢٤ : ٣٣).

وبعد موت موسى، يكلم يهوه يشوع، ويؤكد له الوعد بشأن هبة الأرض التى وعدها لموسى: الأرض من البرية إلى لبنان ، ومن البحر [المتوسط] فى الغرب إلى نهر الفرات فى الشرق (يشوع ١ : ١-٤). وقال الجاسوسان اللذان أرسلهما يشوع إلى أريحا إن كل السكان خائفون لدرجة الموت (يشوع ١ : ٢٤)، ويقص الكتاب عبور نهر الأردن (يشوع ٣: ١ - ٥ : ١) ومراسيم الاحتفال بعيد الفصح فى الجلجال (يشوع ٥ :

٢ - ١٢) وتدمير أريحا بعدما نفخ الكهنة فى الأبواق فى المرة السابعة ، فقال يشوع للشعب: «اهتفوا، لأن الرب قد وهبكم المدينة : واجعلوا المدينة وكل ما فيها محرمًا للرب، باستثناء راحاب الزانية، وكل من لاذ ببيتها فاستحيوهم، لأنها خبأت الجاسوسين المرسلين لاستطلاع أحوال المدينة . وأما أنتم فإياكم أن تأخذوا ما هو محرم لئلا تهلكوا وتجعلوا مخيم إسرائيل محرمًا وتسببوا له الكوارث . أما كل غنائم الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد، فتخصص للرب وتحفظ فى خزانته»(٦ : ١٦ - ١٩) . فهتف الشعب، ونفخ الكهنة فى الأبواق . . وكان هتاف الشعب لدى سماعهم صوت نفخ الأبواق عظيمًا، فانهار السور فى موضعه . فاندفع الشعب نحو المدينة كل إلى وجهته، واستولوا عليها . ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير(*) .

وقال يشوع للرجلين اللذين ذهبا لاستكشاف المدينة : «ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجاها مع كل ما لها من هناك كما حلفتما لها» . فمضى الجاسوسان إلى بيت راحاب، فأخرجاها هى وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها، وأقرباءها، وذهبا بهم إلى مكان آمن خارج مخيم إسرائيل، ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها . أما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد ، فقد حفظوها فى خزانة بيت الرب . واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها ، فأقامت فى وسط شعب إسرائيل (وكذلك ذريتها) إلى هذا اليوم، لأنها خبأت الجاسوسين اللذين أرسلهما يشوع لكى يستطلعا أحوال أريحا .

فى ذلك الوقت أنذر يشوع الشعب قائلاً: «ملعون أمام الرب كل من يحاول أن يعيد بناء مدينة أريحا، فإن بكره يموت وهو يضع أساساتها، وصغيره يهلك وهو يقيم بواباتها . وكان الرب مع يشوع فشاع صيته فى كل الأرض»(٦ : ٢٢ - ٢٧) .

ظهر أول مثل على خيانة بنى إسرائيل أن عخان (وهو من قوم بنى إسرائيل) استولى على بعض الغنائم الموهوبة للرب .

(*) تكرر هذا الأمر الإلهى بالقضاء على كل السكان: رجال وشيوخ ونساء وأطفال، وحتى الحيوانات، عدة مرات فى العهد القديم ـ المترجمة .

وبسبب خطيئة عخان، فشلت أول محاولة للاستيلاء على مدينة عاى (يشوع ٧ : ١١). وأخيراً رجم جميع إسرائيل عخان وأهل بيته بالحجارة، ثم أحرقوهم. (يشوع ٧ : ٢٥-٢٦)(*). وبعد هذا، سار المحاربون إلى مدينة عاى لمحاربتها بأمر من يهوه،

(*) وقال الرب ليشوع: «لا تجزع ولا تثبط همتك. خذ جيشك برمته وحاصر عاى لأنى قد أسلمتك ملك عاى وشعبه ومدينته وأرضه. فتجرى على عاى وملكها ما أجريته على أريحا وملكها، غير أنكم تنهبون لأنفسكم غنيمتها وبهائمها. انصب كميناً خلف المدينة». فهب يشوع وجميع المحاربين وتوجهوا لمهاجمة عاى. واختار يشوع ثلاثين ألف رجل من محاربيه الأشداء، وأرسلهم ليلاً، بعد أن أوصاهم قائلاً: «اذهبوا واكمنوا خلف المدينة. لا تبتعدوا عنها كثيراً وتأهبوا جميعكم للقتال. وأما أنا وبقية المحاربين الذين معى فنقترب إلى المدينة. فما إن يخرجوا للقائنا. كما حدث سابقاً، حتى نتظاهر بالهرب أمامهم، فيتعقبوننا، وبذلك نجذبهم بعيداً عن المدينة، ظنّاً منهم أننا هاربون أمامهم كما جرى فى المرة الماضية، فتنقضون أنتم من المكمن وتستولون على المدينة التى يخضعها الرب إلهكم لكم. ولدى استيلائكم على المدينة تضرمون فيها النار بأمر الرب، فافعلوا ونفذوا ما أوصيتكم به». وأطلقهم يشوع فتوجهوا إلى المكمن، حيث تربصوا بالمدينة ما بين بيت إيل وغربى عاى. وقضى يشوع ليلته تلك فى وسط الشعب.

وفى الصباح التالى نهض يشوع مبكراً، وأحصى الجيش وسار هو وشيوخ إسرائيل فى طليعتهم نحو عاى. وتقدمت معه قواته كلها حتى أتوا إلى مقابل المدينة، حيث نزلوا شماليّها، لا يفصل بينهم وبين عاى سوى الوادى، وأرسل يشوع قوة دعم أخرى مؤلفة من خمسة آلاف محارب لتكمن بين بيت إيل وعاى غربى المدينة. وتمركز الجيش الرئيسى فى شمالى المدينة، فى حين تربص الكمين فى غربيّها، أما يشوع فقد قضى تلك الليلة فى وسط الوادى. ولما رأى ملك عاى ما يجرى، خرج بجيشه مبكراً للقاء إسرائيل ومحاربته فى السهل، وهو لا يدرى أن هناك كميناً يتحفز للهجوم عليهم من خلف المدينة. فتظاهر يشوع وبقية الجيش بالانكسار أمامهم، ولاذوا بالفرار فى طريق الصحراء. فتنادى جميع الشعب الذين فى المدينة لتعقب يشوع، فجدُّوا وراءهم مبتعدين عن المدينة. ولم يبق فى عاى أو فى بيت إيل رجل لم يسع فى مطاردة الإسرائيليين، تاركين المدينة مفتوحة للكمين.

فقال الرب ليشوع: «مد رمحك نحو عاى لأننى وهبتك المدينة». فمد يشوع الحربة التى بيده نحو المدينة، فاندفع الكمين من مكانه بسرعة عندما مد يده بالحربة وركضوا واقتحموا المدينة واستولوا عليها وأحرقوها بالنار. فالتفت رجال عاى وراءهم وإذا بهم يشاهدون دخان المدينة يتصاعد إلى السماء، فلم يكن لهم من مهرب، فانقلب الجيش الهارب إلى الصحراء على مطارديه. ولما رأى يشوع ومحاربوه أن الكمين قد استولى على المدينة، وأن دخانها قد ملأ الفضاء، شرعوا فى مهاجمة رجال عاى والقضاء عليهم. كذلك خرج الكمين من المدينة لقطع طريق الهرب عليهم. فوجد أهل عاى أنفسهم محصورين بين الإسرائيليين من الأمام ومن الخلف، ففتك بهم الإسرائيليون، فلم ينج منهم أحد. أما ملك عاى فقد وقع فى الأسر فتسلمه يشوع. وعندما تم القضاء على جيش عاى فى الصحراء حيث تعقبوا الإسرائيليين، وفنوا جميعهم بحد السيف، رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عاى وقتلوا كل من فيها. فكان جميع من قتل فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً. وهم جميع أهل عاى. وظل يشوع ماداً يده بالحربة نحو المدينة حتى تم القضاء على جميع أهل عاى. أما البهائم وغنائم المدينة فقد نهبها الإسرائيليون لأنفسهم، بمقتضى أمر الرب الذى أصدره إلى يشوع. وهكذا أحرق يشوع عاى وحوّلها إلى تل خراب أبدى إلى هذا اليوم. وشنق ملك عاى على شجرة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الشجرة وطرحوها عند مدخل بوابة المدينة وهالوا عليها كومة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم. (يشوع ٨ : ١-٢٩).

وألحقوا بها نفس الخسائر التى لحقت بمدينة أريحا. ولم يبق من الـ «١٢٠٠٠» ساكن أحد على قيد الحياة، وحرق يشوع كل المدينة وجعل منها مدينة خراب للأبد.

وتم الاحتفال بهذا الانتصار بتقديم الذبائح. ووقف جميع الإسرائيليين، نصفهم أمام جبل جرزيم ووقف النصف الآخر أمام جبل عيبال، ثم تلا يشوع فى خشوع ورقّة يتناسبان مع الحدث جميع عبارات التوراة المختصة بالبركة واللعنة (يشوع ٨ : ٣٠-٣٥).

لقيت قوات القتل والسلب بقيادة يشوع مقاومة من الحثيين و الأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين و اليبوسيين، حيث سعت تلك الشعوب إلى الدفاع عن أراضيها. أما أهل جبعون، فقد لجأوا إلى الحيلة الماكرة، حتى عقد لهم يشوع معاهدة صلح وأبرم معهم اتفاقًا للمحافظة على حياتهم، وأصبحوا عبيدًا يحتطبون الحطب ويستقون الماء لبنى إسرائيل (يشوع ٩ : ١-٢١).

يصف الإصحاحان التاليان ـ بصورة دقيقة ـ الاتجاه الجديد لمسرح الغزو. فيصف الإصحاح العاشر الحملة نحو الجنوب؛ أما الإصحاح الحادى عشر فيصف الحملة نحو الشمال. وفى الحملتين سيتم الحرص على تطبيق التحريم [القتل] حرفيًا(*). وأمر يشوع الشمس بأن تتوقف فى جبعون، والقمر أن يتوقف فوق وادى أيلون حتى ينتقم الجيش من أعدائه (يشوع ١٠ : ١٢-١٣).

وأخيرًا يلخص المؤلف تدمير يشوع بأمر من الرب كل نفس بشرية من «قادش برنيع» إلى غزة وأماكن أخرى (يشوع ١٠ : ٤٠-٤٣).

أما الإصحاح الحادى عشر، فيصف الحملة فى اتجاه الشمال بطريقة أدبية تشبه بشكل كبير ما قيل فى الإصحاح العاشر. وكان هناك تحالف بين الملك يابين (ملك حاصور) ويوباب (ملك مادون) وملك شمرون وملك أكشاف وملوك الجبل شمالاً

(*)«.. واستولى يشوع على مقيدة وقتل بالسيف ملكها وكل نفس فيها. لم يفلت منها ناج ... ثم توجه من مقيدة إلى لبنة وحاربها فدمرها وقتل كل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج ... إلى لخيش .. ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف .. نحو عجلون .. ودمروها وقضوا على كل نفس فيها بحد السيف.. وجرون ... ودبير ... كل أرض الجبل والمناطق السهلية والسفح.. لم يفلت ناج...»بل قضى على كل حى كما أمر الرب إله إسرائيل(١٠ : ٢٨-٤٠).

وملوك وادى الأردن جنوبى بحيرة الجليل وملوك السهل و مرتفعات «دور» غربًا وإلى ملوك الكنعانيين شرقًا وغربًا و الأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين فى إقليم الجبل و الحويين المقيمين على سفح جبل حرمون فى أرض«المصفاة»(*) (يشوع ١١ : ١ -٣)، إلا أن هذا التحالف لم يكن يضاهى قوة يشوع الذى كان يُسَانده الرب، وباغتهم بنو إسرائيل وقضوا عليهم بحيث لم يفلت منهم ناجٍ (يشوع ١١ : ٧-٩). ولينهى يشوع مهمته، توجه إلى «حاصور» فقتل الملك والشعبَ وحرق المدينة وقضوا على كل نسمة بحد السيف (يشوع ١١ : ١١). ويلى ذلك ملخص موجه للقارئ عن بقية الحملة. وغزا يشوع كل الأرض وأباد السكان نهائيًا (يشوع ١١ : ١٦-٢٣).

أما الإصحاح الثانى عشر، فيعرض أسماء الملوك الذين انهزموا و الأراضى التى تم احتلالها أولاً تحت قيادة موسى فى شرق نهر الأردن (يشوع ١٢ : ١-٦)، وبعد ذلك غرب نهر الأردن تحت قيادة يشوع (يشوع ١٢ : ٧-٢٤) . أما الإصحاحات من ١٣ إلى ٢١، فتشرح تقسيم الأرض بين أبناء إسرائيل، مع التركيز بالأخص على ما سيكون بعد ذلك مملكة يهودا. وتشير الآيات الأولى من هذه الفصول إلى أن الغزو لم ينته: «وشاخ يشوع وطعن فى العمر، فقال له الرب: لقد شخت وطعنت فى السن، ومابرحتْ هناك أرض شاسعة للامتلاك. وهذه هى الأرض المتبقية: كل مناطق أرض الفلسطينيين. . وكذلك كل أرض الكنعانيين. . وكل لبنان شرقًا. » (يشوع ١٣ : ١ - ٦)، وتأتى نهاية الغزو باستعمار : «جميع الأراضى التى حلف أن يعطيها لآبائهم» (يشوع ٢١ : ٤٣-٤٥). وفى الصفحات اللاحقة نجد وصفًا مثاليًا لإسرائيل تحت قيادة يشوع (يشوع ٢٢ : ١-٢٤ : ٣٣)، وتم تنفيذ الاتفاقيات المبرمة مع الرأوبينيين والجاديين ونصف أفراد سبط مَنَسَّى (يشوع ٢٢ : ١-٣٤)، وتم تحديد المكان الرسمى للشعائر (شكيم فى الإصحاح ٢٤)، وينتهى هذا الكتاب بخطاب الوداع ليشوع (يشوع ٢٣) والتجمع فى شكيم (يشوع ٢٤ : ١-٨)، وإعلان موت يشوع ودفنه هو ويوسف والعازار (يشوع ٢٤ : ٢٩-٣٣).

الأرض فى الأسفار الأخرى من الكتاب المقدس

ويتناول سفر القضاة فترة الانتقال من يشوع إلى شاول. ومع وفاة يشوع تنتهى حقبة

(*) بالنسبة لرقعة أرض صغيرة لا تتجاوز مجرد جزء من فلسطين، يعد هذا العدد من الملوك والمماليك كبيراً، ويبدو أن المقصود بالملوك روساء قبائل، أو ما أشبه ـ المترجمة.

موسى بينما يعلن تقلد شاول زمام الأمور اقتراب فترة داود والملكية. تختلف الصورة التى يقدمها لنا كتاب القضاة تمامًا عن تلك التى قدمها سفر يشوع. بينما يصف سفر يشوع بشكل مفصل نجاحات الغزو، يصف سفر القضاة الغزو على أنه عمليات معقدة ومتتالية من النجاح والإخفاق، تأثرت بنجاحات و بإخفاقات.

ويتجلى موضوع الأرض فى أسفار أخرى فى الكتاب المقدس، ولكن هناك شكّا فى تداول هذه الأسفار قبل فترة النفى. وليس لدى «إشعياء وميخا» رسولى القرن الثامن [قبل الميلاد] ذكر إلا لقصة ميديان (إشعياء ١٠ : ٢٦). ونجد فى مملكة الشمال إشارة إلى الأموريين (عاموس ٢ : ١٠) وإشارة محتملة لفساد جبعة (هوشع ٩ : ٩).

أما فيما يخص الاحتفال بالشعائر المرتبطة بغزو الأرض، فلم يكن هناك إلا القليل قبل فترة النفى. فالمزمور (٦٥ : ٩ -١٣) مجد يهوه لمحافظته على الأرض بصفة عامة؛ أما المزمور (٧٨ : ٥٤ -٥٥) فيؤكد على اهتمامه الخاص ببنى إسرائيل:

وأدخلهم إلى تخوم أرضه المقدسة، إلى الجبل الذى امتلكته يمينه. ثم طرد الأمم من أمامهم، وقسَّم أرضهم بالحبل ليجعلها ميراثًا لشعبه، وأسكن فى خيامهم أسباط إسرائيل.

تكررت الإشارة إلى الأرض فى مزامير أخرى:

وهكذا أخرج شعبه ومختاريه من مصر بابتهاج، بترانيم الظفر. ووهبهم أراضى الأمم، فامتلكوا غلاَّت تعبت فيها شعوب أخرى (مزمور ١٠٥ : ٤٣-٤٤).

وأيضًا: **نقلت كرمة (أى الشعب) من مصر، طردت أممًا وغرستها مكانهم (المزمور ٨٠ : ٨).**

إلا أن التفصيلات عن الغزو قليلة. يشير المزمور (١١٤) إلى تراجع مياه نهر الأردن. والمزموران (٧٨ : ٥٤-٦٦) و (٨١ : ١١-١٢) يشيران إلى عصيان بنى إسرائيل. إلا أنه لا يوجد دليل يؤكد أن هذه الكتابات سبقت فترة النفى، أو أنها ليست مستمدة من سفرى يشوع و القضاة.

وهناك نقص واضح فى الأدلة على أن التراث الكتابى عن الغزو والاستيطان [فى أرض الوعد] قد ظهر قبل فترة النفى. وفى فترة النفى، أصبحت هذه التقاليد ذات

أهمية لدى إرميا وحزقيال، ومع ذلك فهما لا يشيران إلى أن الأرض قد تم احتلالها من قبل يشوع والقضاة[1] ، وهذا ما يشد انتباهنا، لأنه باستثناء سفر التثنية، فإن التراث الخاص بالغزو والاستيطان لا يحتل إلا مكانة صغيرة فى الكتاب المقدس(انظر بارتلت ١٩٩٠ : ٥٥)[2] .

ولنر الآن كيف تم استغلال قراءة ظاهرية للنصوص المقدسة فى خدمة المشاريع الاستعمارية .

استغلال تراث الكتاب المقدس عن الأرض

يتمتع الكتاب المقدس بقوة وسلطة فريدة من نوعها بالنسبة لمعابد اليهود وكنائس المسيحيين على حدٍّ سواء. فالتوراة أتت من السماء[3] ، وبما أنها تحمل أوامر الرب لشعبه، فتطبيق هذه القواعد هو الواجب الدينى الأعلى. وتتجلى تقوى الإسرائيليين فى السعى بكل حماس وحب لطاعة التوراة فى تفاصيلها الدقيقة (شورير ١٩٧٩ : ٣١٤)، وبالتالى يجب قبول التوراة فى مجملها وفى تفاصيلها. ويتمتع الكتاب المقدس بالسلطة ذاتها فى الكنيسة، فهو كلمة الله. إلا أن الكتاب المقدس يُثير مشكلة أخلاقية أساسية بالنسبة لمن يقرأه ظاهريًا.

ووفقًا للكتاب المقدس، هرب اليهود العبيد من مصر، واحتلوا أرضًا مأهولة

---

(١) تم إعطاء الأراضى لأسلاف إسرائيل (إرميا ٧ : ٧) كملكية (٣٢ : ٢٢) أو إرث (٣ : ١٨) وهى أرض العسل واللبن (١١ : ٥، ٣٢ : ٢٢-٢٣) وحزقيال (٢٠ : ٦، ١٥) إلا أن بنى إسرائيل نجسوها (إرميا ٢ : ٧) بسبب عصيانهم (إرميا ٣٢ : ٢٣).

(٢) وفى العهد الجديد، نلاحظ الإشارة إلى انتصارات يشوع الذى حارب الأعداء، وذلك فى خطبة إستفانوس (أعمال الرسل ٧ : ٤٥) وفى (عبرانيين ٤ : ٨) وفى كتابات الآباء، يرى برنابا المزيف أن صلاة موسى بفتح اليدين ورفعهما حتى ينتصر يشوع على العماليق ما هى إلا تقديم لما سيأتى مثل الصليب والمصلب (رسالة برنابا ١٢ : ٢-٣)، ويعتبر برنابا يشوع كصورة ليسوع (١٢ : ٨-١٠). وبالنسبة لجوستين أيضًا، فإن يشوع صورة للمسيح : ومثلما قام يشوع بقيادة جيشه إلى أرض كنعان يقود المسيح أيضًا المسيحيين إلى أرض الوعد الحقيقية (ديال : ١١٣) وقد فسر سيريل من الإسكندرية أيضًا التوراة بنظرة مسيحية من قابيل وهابيل إلى يشوع. كما قام هيلر بإعطاء بعد مسيحى ليشوع (انظر سيمونيتى ١٩٩٤ : ١٤، ٢٠، ٣٣ حاشية ١٤، ٧٩، ٨٩).

(٣) صرح الحاخام جوناثان ساكس : «من لا يؤمن بالطابع السماوى للتوراة، فقد قطع العلاقة مع إيمان الأسلاف».

بالسكان ، ومثل هذا الاحتلال يؤدى حتمًا إلى اندلاع حروب وقتل . وما يميز الرواية المقدسة لهذا النشاط الاحتلالى المصحوب بالقتل والإبادة ـ مثلما يوضحه سفر يشوع ـ أو وفقًا لطريقة أكثر تدريجية ـ مثلما يوضح ذلك سفر القضاة ـ أنه لم يحدث فقط بموافقة من الله ، بل بأمر منه . وفى كتاب يشوع على وجه خاص يقتل بنو إسرائيل الشعوب الأخرى وفقًا للتعليمات الإلهية . وتثير هذه الصورة بشأن الله الذى يأمر بقتل شعوب أخرى مشكلة بالنسبة لكل من يؤمن أن السلوك الأخلاقى الإلهى لا يقل عن متطلبات السلوك الإنسانى المتواضع . ويصبح للوصية القائلة : «وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم ، فلا تشفقوا عليهم ولا تعبدوا آلهتهم لأن ذلك شرك لكم» (التثنية ٧ : ١٦) أهمية خاصة عندما نتذكر كيف استخدمت تلك النصوص كأداة قمع تبرر الاستعمار فى مناطق مختلفة وعصور مختلفة ، حيث تم اعتبار السكان الأصليين كالحثيين والجرجاشيين والشعوب الأخرى التى استحقت القمع والطرد والإبادة من الشعب المختار . ولو لم تكن هذه النصوص من مصدر مقدس ؛ لقلنا إن مثل هذه النصوص تحرض على الكراهية العنصرية . وللوهلة الأولى ـ ووفقًا لمعايير القواعد الأخلاقية و قواعد حقوق الإنسان التى تبناها مجتمعنا ـ تشجع الأسفار العبرانية الستة الأولى على التعصب والعنصرية ، وتدعو لكراهية الأجانب ، ويقوم ذلك التشجيع على قدر مُعتبر من الشرعية ، وهو الاستحسان الإلهى . وعلى المستوى الأخلاقى ، لدينا الحق فى أن نسأل : هل تعطى التوراة شرعية إلهية لاحتلال أراضى الغير وتسمح بإبادة الشعوب الأصلية التى تقطنها؟

تقدم الحروب الصليبية مثالاً صارخًا عن العلاقة بين الدين و السلطة السياسية وتوضح بشكل جلى ، كيف تم استخدام الكتاب المقدس فى قمع الشعوب (انظر بريور١٩٩٥ب) ، ويكفى أن نوضح أسلوب التفكير الدينى واللاهوتى الذى استخدم كمبرر لهذه الممارسات . ويرجع التفسير البابوى لهذا العنف إلى القديس «أوغسطين» الذى يعتمد على العهد القديم ليثبت أن الله يمكن أن يأمر بذلك . إن الحرب التى تقوم باسم الله هى المثل الأفضل عن حرب عادلة . ورفض أخلاقية حرب وافق عليها الرب ، بمثابة رفض الرب . هذا كما سينصر الله الذين سيحاربون باسمه مثلما ساعد بنى إسرائيل على التغلب على الأموريين . ويتجلى رأى القديس أوغسطين فى العديد من مؤلفاته ، حيث تم جمعها كلها فى كتاب واحد قبل الحرب الصليبية الأولى (حوالى ١٠٨٣ من قبل أنسليم من لوكا ، وحوالى ١٠٩٤ من قبل إيفو من شارتر) . وعندما

أعلن البابا «أوربان الثانى» الحرب الصليبية الأولى فى كنيسة كلرمون يوم ٢٧ نوفمبر من عام ١٠٩٥، دعا الجنود لخوض الحرب من أجل المسيح، حيث ضمن لهم أن يغفر لهم جميع خطاياهم (هاجنميير ١٩٠١ فى ريلاى سميث ١٩٨١ : ٣٨) ويتضح من خلال خطابه أنه يجمع بين أربعة دوافع ـ ما زالت فاعلة حتى اليوم ـ : دعوة للتقوى المسيحية، والهلع المرضى من الأجانب، والغطرسة الإمپريالية (الاستعمارية) ـ وذلك صبغ الكثير من المشاريع الاستعمارية التى تلجأ للدين لتبرير أعمالها (انظر ريلاى سميث ١٩٨١ : ٤٣- ٤٤) ـ ثم أخيرًا، وليس آخرًا، يأتى السبب الرابع: تحرير القدس من الأعراق النجسة، والتى بممارساتها النجسة دنست الأماكن المقدسة. بررت الدوافع الأربعة اعتداءات الذين كانوا يحملون الكتاب المقدس بعهديه فى يد والسيف فى اليد الأخرى والصليب على الجبين أو الصدر؛ فقد كانوا يمارسون ذلك وفقًا للرغبة الإلهية: «من لا يحمل صليبه ويتبعنى، فلا يستحقنى».

تتضح الرابطة بين السيف والصليب أكثر فى تأسيس الجماعات الدينية الحربية مثل «رهبان الحرب».

جاء هيوز دى پايان إلى سوريا عام ١١١٥ ومنذ ١١١٨، أعلن نفسه حاميًا للحجاج (سيوارد ١٩٩٥ : ٣٠) وأقسم على ذلك مع سبعة فرسان آخرين؛ وعلى أن يعيشوا عابدين فقراء زاهدين طاهرين. وفى ١١٢٦ عاد إلى فرنسا و طلب مساعدة «برنار دى كليرفو» الذى وعده بأن يجند له مقاتلين. ويرى برنار أن جنود الكنائس ما هم إلا رهبان سيتيون(*) محاربون:

يتناول الرهبان وجبتين أساسيتين، فى صمت مشفوع بتلاوة الكتاب المقدس، مع التركيز على آيات يشوع والمكابيين. ويستلهمون من يهودا وإخوته حروبهم الضارية فى الأراضى المقدسة لاستعادتها من الكفار المتوحشين (سيوارد ١٩٩٥ : ٣٢)

ولم يجد الرهبان السيتيون أى تناقض بين الحرب التى يشنونها من أجل يسوع والصلاة. ويعتمدون على حكم القديس برنار الذى يرى أن القتل باسم المسيح، أى

(*) السيتيون ينتمون إلى جماعة سيتو الدينية التى تأسست فى القرن الثانى عشر، نسبة إلى سيتو وهو دير بندكتى. وقامت هذه الجماعة بدور هام فى الإعداد للحرب الصليبية الثانية، ولم يدخلوا الشرق إلا مع بداية القرن الثالث عشر بمبادرة من الأساقفة القادمين من أوروبا. انظر الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ـ كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ ص ٢٠٦ ـ المراجع.

القضاء على الظلم أو الشر لا يسمى قتلاً، بل هو استئصال للظلم. وبالفعل فقتل عابد الأوثان يجلب المجد لأننا ننصر المسيح، وهناك جماعات أخرى مثل الإسپتارية (*) الذين كانوا يعالجون المرضى. ولكن كان يقال عنهم إنهم عندما استقبلوا جسد المسيح كانوا يحاربون كالشياطين (سيوارد ١٩٩٥ : ٤٠) وكان من يموت في الحرب يموت شهيداً، ويقدر عدد الذين حصلوا على هذا الشرف في الحروب من أجل المسيح في قرني الحروب الصليبية بعشرين ألف شهيد (سيوارد ١٩٩٥ : ٣٥).

الكتاب المقدس والتراث الشفهي: دراسة حالة

ما هو دور النصوص المقدسة في تكوين القيم والمبادئ الأخلاقية؟ لتقييم تأثير التحيزات العرقية و الدينية المكتسبة على الحكم الأخلاقي، قام عالم الاجتماع النفسي الإسرائيلي «جورج تامارين» بإجراء دراسة حول تأثير الإفراط في حب الوطن (الشوڤينية) على الحكم الأخلاقي. وقد درس التحيز في أيديولوچية الشباب الإسرائيلي، و تأثير التعليم غير النقدي للكتاب المقدس على النزوع لمثل هذا التحيز (١٩٦٣). وسعى إلى أن يقيِّم إلى أي درجة يتطور التحيز بسبب الدراسة الدينية غير النقدية لمفاهيم مثل الشعب المختار، وأعلوية الديانات التوحيدية، وأعمال الإبادة الجماعية التي قام بها أبطال الكتاب؟

واختار تامارين سفر يشوع لأنه يحتل مكانة هامة في المناهج التعليمية الإسرائيلية في التاريخ القومي و الأساطير القومية الإسرائيلية على حد سواء. وقسم عينة الدراسة إلى مجموعتين وهما: المجموعة الرئيسة، ومجموعة مكملة. وطلب من المجموعة الرئيسة التعليق على هذه الآيات من كتاب يشوع الذي يقرءونه كثيراً:

فهتف الشعب ونفخ الكهنة في الأبواق. وكان هتاف الشعب لدى سماعهم صوت

(*) الإسپتارية: هم الفرسان البيض (أو فرسان القديس يوحنا) وتعود قصتهم إلى عام ١٠٤٨ حينما سمح حاكم القدس المسلم لتجار أمالفي (مدينة إيطالية تطل على خليج ساليرنو وكانت مركزاً تجاريًا هامًا آنذاك) ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين، وبعد الحملة الصليبية الأولى قام بعض أعضاء المستشفى بالعناية بالمرضى وتضميد جروح المحاربين. وفي عام ١١١٣ أصر ريمون البويي ومن معه في المستشفى على أن يطلقوا على أنفسهم اسم فرسان مستشفى القديس يوحنا. والإسپتارية هي الترجمة الصوتية لها في الأدبيات الكلاسيكية. انظر الترجمة العربية لكتاب كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية. المراجع.

نفخ الأبواق عظيمًا، فانهار السور فى موضعه. فاندفع الشعب نحو المدينة كلٌّ إلى وجهته، واستولوا عليها. ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير (يشوع ٦ : ٢٠-٢١).

واستولى يشوع فى ذلك اليوم على مقيدة وقتل بالسيف ملكها وكل نفس فيها. لم يفلت منها ناجٍ، وصنع بملك مقيدة ما صنعه بملك أريحا. ثم توجه يشوع على رأس جيشه من مقيدة إلى لبنة وحاربها، فأسلمها الرب هى أيضًا إلى يد إسرائيل مع ملكها، فدمرها وقتل كل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناجٍ، وصنع بملكها ما صنعه بملك أريحا. بعد ذلك تقدم يشوع من لبنة إلى لخيش وحاصرها وهاجمها، فأسلم الرب لخيش إلى يد إسرائيل، فاستولوا عليها فى اليوم التالى ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف نظير ما صنعوا بلبنة (يشوع ١٠ : ٢٨ـ٣٢).

ومسح فى دراسته تسع مجموعات من التلاميذ تبلغ أعمارهم مابين ٨ سنوات ونصف إلى ١٤ سنة، يمثلون كل ألوان الطيف فى مدارس إسرائيل: المدن ـ القرى ـ الموشاف ـ الكيبوتز ـ المدارس الدينية ـ مراكز الشباب ـ ومجموعة غير متناسقة من مدارس متنوعة. وكانت الأسئلة المطروحة على التلاميذ هى:

- **السؤال الأول:** فى رأيكم، هل أحسن يشوع و بنو إسرائيل التصرف أم لا؟ اشرحوا وجهة نظركم.

- **السؤال الثانى:** لنفترض أن الجيش الإسرائيلى حاصر قرية عربية فى إحدى المعارك. هل ترون أنه سيكون من الجيد أن يعامل السكان كما عامل يشوع سكان مدينة أريحا و مقيدة؟ اشرحوا لماذا.

وأثناء دراسته، فرق تامارين بين الموافقة التامة و الموافقة الجزئية و الرفض التام[1] وتنقسم الإجابات كالتالى:

(١) لم يتم الأخذ بعين الاعتبار الأجوبة غير الواضحة أو غير المناسبة. ويوضح تامارين ٣ أجوبة فى فئة «الرفض التام» والتى ـ مع ذلك الرفض ـ تؤكد على سلوكيات عنصرية وتمييزية. الأولى تنقد سلوك يشوع بالقول بأن أبناء إسرائيل تعلموا العديد من التصرفات المشينة من (الجويم ـ Goyim) أى الأغيار. والثانية تدين هذا التصرف مستندة على «لا تقتل» وهو النهى الذى فى الوصايا العشر، ولكن وافقت على ممارسات الجيش فى السؤال الثانى بالقول: «أظن أن ذلك سيكون أحسن لأننا نريد أن نوقع أعداءنا بين أيدينا وأن نوسع أرضنا ونقتل العرب مثلما فعل يشوع». والثالثة طفلة تبلغ من العمر ١٠ سنوات رفضت عمل يشوع قائلة: «أظن أنه ليس جيدًا لأن العرب ليسوا بطاهرين، وإذا دخلنا فى أرض غير طاهرة سنصبح نحن أيضًا غير طاهرين وستنزل علينا اللعنات» (تامارين ١٩٧٣ : ١٨٧).

الموقف حيال يشوع و الجيش الإسرائيلي

	موافقة تامة ٪	موافقة جزئية ٪	رفض تام ٪
س١ حيال يشوع	٦٦	٨	٢٦
س٢ : حيال الجيش الإسرائيلى والقرية العربية	٣٠	٨	٦٢

ويستنتج تامارين أن هذا الاختبار أثبت وجود سلوك عالى التحيز لدى عدد معتبر من جيل المستقبل الذين تم استجوابهم ؛ بحيث يبرر التوجهات العنصرية (دينية وعرقية قومية، وتبرير استراتيجى للإبادة . . وما إلى ذلك). أما المجموعة المكملة فقد تم تقسيمها إلى مجموعتين فرعيتين . وتم دعوة المجموعة الفرعية الأولى إلى الإجابة على السؤال الأول انطلاقًا من نص يشوع . أما المجموعة الفرعية الثانية، فقد عرض عليها الصيغة الصينية لسفر يشوع :

«ذهب الچنرال لين ـ الذى أسس الإمبراطورية الصينية منذ ٣٠٠٠ عام ـ يحارب من أجل غزو بلد ما . وصل هو وجيشه أمام مدن كبيرة بها أسوار كبيرة ومحصنة . وظهر إله الحرب الصينى فى حلم للچنرال لين ووعده بالنصر وأمره بقتل كل السكان لأنهم لم يكونوا يدينون نفس الديانة . واستولى لين وجيوشه على المدن وقتلوا كل نفس من رجال ونساء وأطفال وشيوخ و عجول وغنم وحمير . وبعد أن دمروا المدن استكملوا مسيرتهم وغزوا العديد من الدول» .

سأل تامارين هذه المجموعة الفرعية وقال : هل تعتقدون أن الچنرال لين وجيوشه أحسنوا التصرف؟ اشرحوا لماذا .

وتنقسم الإجابات كالتالى :

الموقف حيال القتل الجماعى

	موافقة تامة ٪	موافقة جزئية ٪	رفض تام ٪
حيال يشوع	٦٠	٢٠	٢٠
حيال الچنرال لين	٧	١٨	٧٥

ووفقًا لتامارين، فإن هذه النتائج تؤكد بلا شك تأثير التعصب الوطنى و الأفكار القومية المتشددة و الدينية على الحكم الأخلاقى(تامارين١٩٧٣ : ١٨٧ - ٨٨).

هذا ويوضح تحليل الإجابات ما يلى:

«إن تعليم الكتاب المقدس الخالى من النقد الموضوعى، خاصة بالنسبة لتلاميذ صغار السن حتى وإن لم يكن كنص مقدس وإنما كتاريخ وطنى، مع أخذ موقف محايد بشأن السياق التاريخى أو الأسطورى للمضمون، يؤثر بشكل عميق على تكون التحيزات. . . وهذا الأمر يعم أيضًا الطلبة الذين لا يتلقون تعليمًا دينيًا؛ لأن مثل هذا التعليم ينمى خصائص سلبية وعدوانية تجاه الغريب. ويعد كل من تمجيد حب الوطن كقيمة عليا، مع اعتبار الذوبان [ذوبان اليهود فى البلاد التى يعيشون فيها] هو الشر الأعظم، وتأثير القيم الحربية فى التعليم الأيديولوچى، مصادر للنزعات العنصرية» (تامارين ١٩٧٣ : ١٨٩).

وبالنسبة لتامارين، فإن هذه النتائج تتهم بصورة قاسية نظام التعليم فى إسرائيل وتدعو المسئولين عن هذا النظام إلى الاستفادة من هذه النتائج التى تفرض نفسها. وكانت هذه الدراسة سبب شهرة الكاتب غير المتوقعة وغير المرغوب فيها فى الوقت ذاته، حيث أدى ما سُمىَ بـ«قضية تامارين» إلى فقدان تامارين لمنصبه الهام كأستاذ فى جامعة تل أبيب. وفى رسالة قدمها لرئاسة الجامعة قال منددًا إنه لم يتخيل أبدًا أن يكون الضحية الأخيرة لغزو يشوع لأريحا (تامارين ١٩٧٣ : ١٩٠).

الكتاب المقدس والسلام والاستعمار

يتسم النقاش الذى يدور بين دارسى الكتاب المقدس ومتخصصى اللاهوت حول موضوع استيطان بنى إسرائيل لكنعان العصر القديم، واستيطان اليهود فى فلسطين فى العصر الحديث، بالتجاهل التام للسكان الذين كانوا يقطنون الأرض قبل هذه الغزوات. يدور النقاش حول «الأرض، هبة الله» أو «غزو الأرض هو تطبيق عقد الاتفاق بين الرب وبنى إسرائيل». و يلاحظ ـ على سبيل المثال ـ أرنولد توينبى أن:

«نفس الاعتقاد الذى دفع بنى إسرائيل لإبادة الكنعانيين بأمر من الرب، هو أيضًا الذى دفع بالبريطانيين للاستيلاء على أمريكا الشمالية و أيرلندا الشمالية وأستراليا، ودفع

الهولنديين للاستيلاء على جنوب أفريقيا، والألمان البروسيين للاستيلاء على پولندا، والصهاينة للاستيلاء على فلسطين» (توينبى ١٩٥٤ : ٣١٠).

يصور عدم الاكتراث بالسكان الأصليين الإجحاف الاستعمارى القائم على محورية الذات المتأصلة فى الأوروپيين، والتى صبغت كل الدراسات التاريخية، والدراسات الكتابية [القائمة على الكتاب المقدس] (انظر وايتلام ١٩٩٦ فى فقرات عديدة). وعلى الرغم من هذا، فإن علماء لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا وكوريا الجنوبية والفليپين. . . الخ، استعملوا نصوص سفر الخروج فى كفاحهم الطويل والصعب ضد الاستعمار و الإمپريالية والدكتاتورية. يتأثر المظلومون بقراءة هذه النصوص ويتعزون بأحداثها وترتفع معنوياتهم. وتختلف نظرة القارئ لسفر الخروج، والأسفار التالية [التثنية ويشوع] إذا كان من بين الكنعانيين، أو - فى التاريخ المعاصر - من بين أفراد الشعوب الأصلية التى أصبحت ضحايا للاستعمار الذى أججته الإمپريالية الدينية، سواء كان ذلك فى أمريكا أو نيوزيلاندا أو أستراليا أوجنوب أفريقيا أو فلسطين.

ويثير عالم اللاهوت التحررى الفلسطينى نعيم عتيق المشكلة بشكل صارخ، لاسيما أن تطبيق سفر الخروج فى وطنه يتم بصورة طبيعية جدًا.

قبل إنشاء دولة إسرائيل، كان العهد القديم يعتبر جزءًا أساسيًا من التراث الكتابى المسيحى الذى يعلن ويشهد للمسيح. ومنذ إنشاء الدولة الإسرائيلية، قام بعض اليهود والمسيحيين بقراءة العهد القديم وفسروه على أنه نص صهيونى بحت، لدرجة أنه أصبح نصًا بغيضًا بالنسبة للفلسطينيين المسيحيين. . . والسؤال الأساسى الذى يتساءله الفلسطينيون هو : «كيف يمكن النظر إلى العهد القديم على أنه كلمة الله من وجهة نظر فلسطينى مسيحى، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التى يستخدم بها الكتاب لتبرير السياسة الصهيونية؟» (عتيق ١٩٩١ : ٢٨٣).

أما عالمة اللاهوت الصينية كوك پويلان، فتعترف بأنها لم تستطع الرد على هذا السؤال، وطرحت سؤالين آخرين : أين هى أرض الوعد اليوم؟ وكيف يمكن لى أن أؤمن بإله قتل الكنعانيين، والذى يبدو أنه لم يسمع بكاء الفلسطينيين منذ أربعين عامًا

في عصرنا الحالى؟ (كوك ١٩٩٥ : ٩٩)، وتؤكد على ضرورة عدم الخلط بين أرض الوعد وأرض الوطن، لاسيما عندما يتعلق الأمر بأرض شعب آخر.

الكتاب المقدس الذى نعتبره المصدر الأعلى للتحرر، تم استخدامه كصك لقمع الشعوب في الماضى والحاضر على حد سواء. وقد نفهم أن تتركز علاقة وطيدة وخاصة بين الخطاب السياسى والخطاب الدينى في حالة «الصهيونية وفلسطين»، ولذلك فإذا استطاعت شعوب أخرى تطبيق نموذج الكتاب المقدس فى الغزو والنهب بالقياس على «حقوق مماثلة» [لبنى إسرائيل]، فإن ذلك يمنح لليهود حقوقًا فريدة للغزو والقمع والسلب والنهب، مع تأييد ودعم، لما يرونه حقوقًا لهم فى الغزو والنهب. وقد صوَّر العلاقة بين السياسة والدين الرئيس كلينتون فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، عندما قام بتقديم رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين والرئيس عرفات فى حديقة البيت الأبيض، حيث أعلن للعالم «أن الشعبين سيقتسمان مستقبلاً مبنيًا على تعاليم التوراة والقرآن والكتاب المقدس [العهد الجديد]». وطبقًا لما نشرته واشنطن پوست، كان الرئيس قلقًا على مشروع خطابه، حتى أنه أفاق من نومه ـ فى الليلة السابقة له ـ فى الساعة الثالثة صباحًا، وأعاد قراءة سفر يشوع كاملاً، وبعض الأجزاء من العهد الجديد (پريور ١٩٩٤ : ٢٠). وبدا خطابه كخليط جمع بين التحريض على طريقة التقاليد المعمدانية، والمناورة السياسية الماكرة. ولكن على ضوء التاريخ يمكن أن نسأل أنفسنا: هل يمكننا أن نثق فى «قيم التوراة والقرآن والكتاب المقدس» لإرساء العدل والسلام وتأكيد مبادئ حقوق الإنسان؟! (*)

اضطر رئيس أمريكى آخر إلى أن يتعامل مع الصراع بين ما تمليه حقوق الإنسان، وما يمليه الكتاب المقدس. فعندما صدم الرئيس كارتر الأمريكيين المسيحيين الإيڤانجليكيين الأصوليين، والخمسينيين، بإبداء اكتراثه بحقوق الإنسان، واستخدم كلمة «وطن الفلسطينيين» فى خطابه فى مارس ١٩٧٧، ظهرت إعلانات على صفحات كاملة فى الجرائد الأمريكية، وقعتها شخصيات إيڤانجليكية بارزة، منها على سبيل المثال:

(*) يمكن ـ لمن أراد ـ مقارنة تاريخ المسلمين فى الأندلس ـ على سبيل المثال ـ مع تاريخ أوروپا فى الأمريكات، ومع الدولة اليهودية فى فلسطين ـ المترجمة.

«حان الوقت بالنسبة للإيفانجليكيين ليؤكدوا إيمانهم بنبوءة الكتاب المقدس، وحق إسرائيل الإلهى فى امتلاك أرض الوعد» (الإيفانجليكيون المهتمون بإسرائيل، إعلان مدفوع الأجر، كريستيان ساينس مونيتور ـ ٣ نوڤمبر ١٩٧٧).

واستهدف اللوبى الموالى لإسرائيل الإيفانجليكيين الذين يبلغون ما بين ٥٠ إلى ٦٠ مليون أمريكى(*)، حتى إن التلى إيفانجليكى [النجم الذى يدعو للإيفانجليكية، ويقدم الخدمات الدينية على شاشة التليفزيون] پات روبرتسون(**) اعتبر أن غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ هو التطبيق النهائى لنبوءة الكتاب المقدس. حيث اعتبر هجمات إسرائيل بمثابة عمل يشوع فى العصر الحديث، ودعا المشاهدين إلى الاتصال بالرئيس ريجان ليعبروا عن مساندتهم للحملة الإسرائيلية (أونيل وواجنر ١٩٩٣ : ٨٤). وقد عبر الحاخام شلومو رسكين الذى رافق الجيش الإسرائيلى فى لبنان للتأمل فى التلمود، عن تأثره البالغ عندما لاحظ أثناء الحرب أن الجنود فى فترات الراحة كانوا يقضون ساعات طويلة فى بحث شرعية قطف الكريز اللبنانى (انظر برمانت ١٩٩٤).

وعلى الرغم من أن نموذج الكتاب المقدس فى القتل غير مقبول فى عصرنا هذا، إلا أنه لا يزال يتمتع بمرجعية كبيرة فى الأوساط الدينية فى إسرائيل. فقد أثار اغتيال ٢٩ مصليًا فى الحرم الإبراهيمى بالخليل (٢٥ فبراير ١٩٩٤) على يد الدكتور «باروخ جولدشتين» ـ وهو خريج أرفع المدارس الدينية اليهودية مكانة فى الولايات المتحدة الأمريكية (ياشيڤا) ـ رفضًا واسعًا. وحتى المؤمنين بالتوراة التى جاءت من السماء، عبروا عن صدمتهم بسبب هذا العمل الإجرامى المرتكب ضد مصلين مستغرقين فى العبادة. إلا أننا نسأل أنفسنا عما يُفَرِّق هذا العمل عن بعض أعمال القتل فى التوراة والتى ارتكبت تطبيقًا لأوامر إلهية، أو يُفَرِّقه عن أشكال مختلفة من الاستعمار والإمبريالية قامت على مثل تلك النصوص؟ و يمكن أن نتساءل إلى أى مدى أثَّر سفر التثنية وسفر يشوع، وبالأخص سفر إستير ـ حيث تتم قراءة هذه الأسفار خلال

(*) كان ذلك وقت طباعة الكتاب ١٩٩٩، والتقديرات الآن أعلى من ذلك ويصل بعضها إلى ٨٠ مليونًا، ومما يتناول ذلك على سبيل المثال كتاب: صعود البروتستانتية الإيفانجليكية فى أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامى ـ د. محمد عارف، منشورات مكتبة الشروق الدولية ـ المترجمة.

(**) علق على دخول شارون فى غيبوبة فى يناير ٢٠٠٦، بأن ذلك عقاب إلهى لمن يتخلى عن أجزاء من أرض الوعد ـ المترجمة.

الاحتفال بعيد البوريم - على فكر الدكتور جولدشتين[1] الذى قام بالمذبحة فى اليوم ذاته. وقد لقى عمله هذا دعمًا من بعض الصهاينة الذين ترتكز معتقداتهم على القراءة الحرفية للنص المقدس[*] (انظر بريور ١٩٩٤).

للأسف، لم يهتم رئيس الوزراء رابين بكشف مثل ذلك التأويل الكريه للكتاب المقدس. وتشاء سخرية القدر أن يُغتال رابين أثناء تجمع من أجل السلام فى تل أبيب يوم ٤ نوفمبر ١٩٩٥. وخلال الجلسة الأولى من محاكمة القاتل، أكد «إيجال أمير» أنه قام بهذا العمل وفقًا للهالاكاه (الشرع). وبالفعل عشية يوم كيبور قبل أسابيع من الاغتيال، تجمع اليهود المتشددون أمام منزل رابين ولبسوا لبسهم الذى يميزهم وأشعلوا شموعًا سوداء و عزفوا بآلة شوفار، ولعنوا رابين بسياط من نار، ورتلوا:

يجب أن نطلب من ملائكة التدمير أن يقتلوا إسحاق بن روزا المعروف برابين، لأنه يعطى أرض إسرائيل لأعدائنا، أبناء إسماعيل (چويش كرونيكل، ١٠ نوفمبر ١٩٩٥: ص٢٧).

ودعا الحاخامُ ساكس، كبير حاخامات بريطانيا، الحاخامات التقليديين أن يبحثوا هل هم يعلمون القيم اليهودية: «نزلت علينا التوراة ليس لنرضى نوازع الانتقام لدينا ولكن لننشر الخير والرحمة والسلام». وأكد قائلاً: «يتعين على الذين يعتنقون اعتقادات دينية أن يدافعوا عن العملية الديموقراطية بشكل قوى. ويجب أن نرفض باسم المبادئ اليهودية، وبشكل صارم، لغة الحقد والضغينة» (چويش كرونيكل، ١٠ نوفمبر ١٩٩٥ ص ٥٦). هل استمد الحاخام ساكس أفكاره من فلسفة عصر التنوير، أكثر مما استمدها من هذا الشكل الخاص من اليهودية التقليدية التى تقرأ النص المقدس بشكل حرفى تمامًا؟ ليس ذلك بالأمر الواضح، وقد انتهت قضية أمير فى ٢٧ مارس ١٩٩٦ بعد ٥ شهور من الإجراءات. وفى الوقت الذى تم فيه إعلان ثبوت تهمته ومن ثم الحكم عليه، قال فى هدوء للمحكمة: «كل ما فعلته كان من أجل توراة إسرائيل،

---

(١) يتساءل روبرت كارول عن مدى تأثر مارك شابمان قاتل چون لينون (المغنى السابق فى فريق البيتلز) بكتاب هولدن كولفيلد «بعض القراءة فى : The Catcher in the Rye» هل يمكن أن تساهم الكتب فى القتل؟ لا، إن القراء هم الذين يقومون بعملية القتل، فالكتب يمكن فقط أن توحى بفكرة القتل (١٩٩١ : ١١٥).

(*) بل شيعت الحكومة الإسرائيلية جنازة رسمية عسكرية مهيبة للشهيد جولد شتين، شفيع اليهود فى السماء، وأصبح قبره مزارًا دينيًا مقدسًا، يأتيه الحجاج اليهود من كل أنحاء العالم - المترجمة.

من أجل أرض إسرائيل. وبالنسبة لأى يهودى لا يمكن أن نسمح بأن نتنازل عن جزء من الأرض التى أعطاها الله لإسرائيل». وعندما سُئل عما إذا كان لديه شيء آخر ليقوله، صرح: «لم يكن أمامى إلا أن أقوم بهذا العمل على الرغم من أن هذه الجريمة غير مناسبة لطبيعة شخصيتى؛ وقمت بها لأن الضرر الذى يلحق بإسرائيل لا يمكن غفرانه. . . . . قمت بهذا الفعل وأقبل أن أدفع الثمن مهما كان» ـ (دريك براون جريدة ذى جارديان، ٢٨مارس ١٩٩٦). وفى عدة مرات، حاول القضاة أن يختصروا دفاعه عن نفسه الذى دام ٥ دقائق، والذى ختمه قائلاً «فليساعدكم الله».

ووفقًا لتفسيرات الكتاب المقدس، فإن «جولدشتين» و«أمير» يمثلان قمة الأصولية التى تبرر الاعتداءات على أنها أمر إلهى مزعوم. إن الطرح الدائم للتفسير الحرفى للتوراة، سواء كان فى المناهج التعليمية فى المدارس الإسرائيلية، أو من خلال التعليم الذى تقدمه العديد من مدارس الكتاب المقدس والتلمود، نادراً ما يسمح بتفادى الهلع المرضى ضد الأجانب والأعمال الحربية.

وهناك العديد من الأمثلة الصارخة التى لا يمكن دحضها، خاصة فى الممارسات الإمبريالية والاستعمارية من قبل شعوب يقال إنها مسيحية، بصدد الاستعانة بالكتاب المقدس لتبرير سلوكها غير الإنسانى[1].

قراءة الكتاب المقدس بعيون الكنعانيين

يبحث علماء لاهوت التحرير المعاصرون عن حجج فى الكتاب المقدس. ونجد العديد من المواضيع التى تدعم بشكل واضح فكرة التحرير ومفهومه (كالتحرير من القمع فى مصر، وفى بابل. . الخ). ولكن ألا تتطلب قراءة متناسقة للكتاب المقدس، أن يصبح الرب المحرر فى سفر الخروج، رب الظلم أثناء غزو أرض كنعان؟ وقد تم طرح المشكلة بشكل واضح من قبل هندى من أمريكا الشمالية، وذلك فى تعليقه: «بالنسبة لنا ـ السكان الأصليين لشمال أمريكا ـ هناك تشابه واضح مع الكنعانيين الذين كانوا يسكنون أرض الوعد. . . أنا أقرأ قصة الخروج بعيون الكنعانيين» (واريور ١٩٩١: ٢٨٩).

(١) إن كفاءتى المحدودة تملى على أن أترك لآخرين المهمة العاجلة لمناقشة أخلاقيات العمليات الوحشية التى تأتى كنتيجة للتفسير الحرفى للنصوص المقدسة للأديان الأخرى.

ليس هناك أرشيف مكتوب عن تجربة تلك الشعوب التى شُرّدت فى العصور القديمة. ولم نسمع أنين تلك الشعوب المطرودة وليس لدينا التقارير المستقلة عن كيفية تشتتهم. وبدراسة دور الكتاب المقدس واللاهوت فى مواصلة عمليات الاستعمار والإمپريالية، تتكشف أمثلة فى عدد كبير من المناطق وفى عصور مختلفة، وقد اخترت أن أركز على ثلاث مناطق فى العالم، وفى حقب زمنية مختلفة، حيث ساندت كل أيديولوچية استعمارية، أيديولوچية دينية مناسبة.

و لقد اخترت غزو أمريكا اللاتينية فى القرن الخامس عشر، وغزو الأفريقان[1] مستعمرة الكاپ فى جنوب أفريقيا عام ١٦٥٢، وعواقب ذلك الاحتلال فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وأخيراً استيطان الصهاينة فى فلسطين خلال القرن العشرين. وأترك لآخرين مهمة تناول اختيارات أخرى.

وفى كل منطقة من المناطق المذكورة، استمر تأثير الظلم المؤسس. فعن الغزو الأوروپى لأمريكا اللاتينية، يستخلص أيبان واجوا وهو يتحدث عن الغزو الأوروپى لأمريكا اللاتينية: «حرقوا جذع الشجرة ومازالت الشجرة تحترق فى ألم» (١٩٩٠: ٤٨).

وأسفر قانون الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا عن أسوأ وأكبر شكل من اللامساواة فى العالم، حيث يعيش ثلثا السود تحت خط الفقر، فهناك ٩ ملايين معدم. وقد أدرك السود فى جنوب أفريقيا الدور الأساسى الذى لعبه الكتاب المقدس فى عملية استعمارهم وظلمهم واستغلالهم. ومن المتناقضات أن يدخلوا المسيحية ـ وهى ديانة مستعمرهم ـ ويعتنقوا نصوص الكتاب المقدس، وهو النص الأساسى لاستغلالهم. وعندما يلاحظون أن الكتاب المقدس يُستعمل للدفاع عن قضايا غير عادلة، يجدون أن الكتاب ذاته يثير مشكلة جادة بالنسبة لشعب يبحث عن حريته، ويعتبر العديد من الشباب السود من جنوب أفريقيا أن الكتاب المقدس هو بمثابة وثيقة تدعو للظلم بطبيعته، ويأملون فى إزاحته.

---

(١) الأفريقان هم الأوروپيون المستوطنون فى جنوب أفريقيا، وهو مصطلح لا يدل ـ بالطبع ـ على الأفارقة. ـ المترجمة.

وهناك العديد من التعليقات الدينية و اللاهوتية بشأن التطورات الحالية فى فلسطين ، إلا أن عدداً قليلاً منها يبدى حساسية لما يعنيه إنشاء دولة إسرائيل اليهودية ، من تمزيق الشعب الفلسطينى . لا تبدى المناقشة الكتابية و اللاهوتية حول هذه المنطقة اهتمامًا كبيرًا بالمبادئ التى يطالب بها المدافعون عن حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية . ولا يُثير هذا الأمر فقط الاستغراب ، ولكنه أيضًا ينذر بالخطر ؛ لأن متخصصى الكتاب المقدس واللاهوت فى كل حلبة أخرى فى العالم يعلنون عن تعاطفهم مع المضطهدين ! . إن ما يحتفل به يهود إسرائيل ويهود العالم الآخرون ، وبعض المسيحيين على أنه تطبيق لنبوءة الكتاب المقدس فى إنشاء دولة إسرائيل ، يسميه الفلسطينيون النكبة ، والتى تضمنت طرد غالبية السكان . وأسفر تطبيق «الحق الذى وهبه الله للإسرائيليين» وتطبيق النبوءة الكتابية عن معاناة لكل منطقة الشرق الأوسط ؛ لا سيما أثناء حروب ١٩٥٦و١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢ وخلال الاعتداءات العسكرية المتكررة على لبنان .

ولم يكن مفسرو الكتاب المقدس اليهود والمسيحيون مهتمين بمسألة الأرض إلا مؤخراً . ومن الصعب شرح هذا السكوت النسبى فى الماضى [ما يقرب من عشرين قرنًا!] ، بيد أن أسباب الاهتمام الحالى بالأرض واضحة للغاية . إلا أننا إذا أخذنا فى الحسبان الاعتبارات الأخلاقية بشأن الأحداث المعاصرة فى فلسطين ، نواجه فوراً مشكلة الدخول فى المحظور أكاديميًا ؛ حيث استقرت فى الأذهان وجهة النظر القائلة بأن الكتاب المقدس يعطى الحق لإسرائيل بأن تُنشئ دولة جديدة - تبرر السياسة التى تمارسها منذ عام ١٩٤٨ - فى أذهان المسيحيين الصهاينة واليهود الصهاينة ؛ وأيضًا تجد جذورها فى تيار فكرى تطور فى اللاهوت المسيحى والدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس فى الجامعات ؛ إذ نلاحظ أن أية محاولة لدراسة خطورة مثل هذه الأفكار تواجه معارضة فورية . ومن جهة أخرى ، يوجد أدب دنيوى غزير حول إسرائيل والأراضى المحتلة ؛ ولكن فى هذه الحالة ترتكز الحجج على القانون الدولى والمبادئ المختلفة لحقوق الإنسان ، ليس هناك مكان للاعتبارات الدينية واللاهوتية . ونحن نتفهم ذلك ، لأننا لا نستطيع أن نطلب من واضعى نظريات القانون الدولى وحقوق الإنسان أن يكونوا خبراء أيضًا فى الدراسات الخاصة بالكتاب المقدس و علم اللاهوت . ولكن إذا

كان كل الذين يدرسون الشرق الأوسط يقرون بأهمية ارتباط الديني واللاهوتي بهذه المنطقة؛ تصبح مثل هذه الثغرة الأكاديمية غير مقبولة.

سأتكلم عن المظهر الديني الذي نَشَّطَ الاستعمار الأوروبي وحركه في أمريكا اللاتينية. وسأدرس إلى أي مدى أفاد النموذج الكتابي مصالح القومية الأفريقانية في تطوير سياسته «التنمية المنفصلة». و أخيراً سأبحث عن بذور الحركة الدينية المتوطنة في الفكرة الصهيونية و التي أصبحت أساسية بعد حرب ٦٧. وفي كل منطقة من المناطق، سأولي اهتماماً خاصاً بالدور الذي لعبه التفسير اللاهوتي والكتابي في دعم التحولات الاجتماعية والسياسية.

ويتعين على العديد من علماء اللاهوت الحريصين على حقوق الإنسان، خاصة بالنسبة للذين يعتبرون الكتاب المقدس مرجعًا هامًا، أن يجتازوا مأزق هذه القضية. وعلى الرغم من الاحترام الكبير الذي يكنونه للنص المقدس، يلاحظون إلى أية درجة تم استعماله كأداة قمع للشعوب. هم يلجأون لفكرة أن المشكلة تكمن في الانحراف في تفسير الكتاب المقدس وليس في النص ذاته. وبالتالي يخفي هذا الحل المغلوط المشكلة الحقيقية؛ فأمثلة الماضي والحاضر تثبت المشكلة الأخلاقية الخطيرة للمسألة، ومداها واستمرارها. تخص الأمثلة التي سأتطرق إليها فترات مختلفة من التاريخ، وفي مناطق مختلفة، وفقًا للتراثات المتنوعة لتفاسير الكتاب المقدس؛ وتلقي الضوء على بعض المشاكل الأخلاقية في صلب الكتاب المقدس. وسنرى أن العديد من التقاليد المذكورة في الكتاب المقدس، تسمح بتفسيرات وتطبيقات قامعة، بسبب طبيعتها القمعية.

***

الجزء الثانى

الاستغلال الاستعمارى لتراث الأرض فى الكتاب المقدس

الفصل الثانى

الاستعمار وأمريكا اللاتينية

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة

وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً. فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيداً لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها. فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم، فاقْتُلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما فى المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التى وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التى ليست من مدن الأمم القاطنة هنا.

[التثنية ٢٠ : ١٠ - ١٥]

يعبر الشعر التالى عن رأى شاعر من المايا [شعب فى أمريكا اللاتينية] بشأن اكتشاف الأوروبيين لأمريكا (بيوزو ١٩٩٠ :٨٨):

لكى يسمحوا لوردهم بالعيش

أتلفوا ورودنا وابتلعوها

هكذا يرى شاعر المايا «اكتشاف» أمريكا (بيوزو: ١٩٩٠ : ٨٨).

يذكر الكاهن الكاثوليكى «أيبان واجوا» - وهو هندى من قبيلة كونا من مواطنى پنما الأصليين - أثناء الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا، أن هناك اسمين لأمريكا هما: «أبيا يالا» وأمريكا، وتاريخين هما: تاريخ «كونا» الخاص بالسكان الأصليين الذين ما زالوا يناضلون من أجل البقاء على قيد الحياة، وتاريخ «أواجا» الذى كتبه الأجانب. لكن ماذا بقى للهنود الحمر حتى يحتفلوا بهذا الاكتشاف؟

بماذا نحتفل فى تاريخنا كسكان أصليين؟ هل نحتفل بالتهميش والعنف والقتل الجماعى وإبادة قبائل بأكملها من أبيا يالا؟ نحن - السكان الأصليين - نعلم أننا يمكن أن نحتفل بمقاومتنا وإرادتنا الشديدة للبقاء على قيد الحياة على الرغم من الظلام والليل الذى يحيط بنا (واجوا ١٩٩٠ : ٤٩).

و فى بادئ الأمر، سنستدعى الأحداث من وجهة نظر الأوروبيين.

١٢ أكتوبر ١٤٩٢: اكتشاف أمريكا[1] وسواحلها

فور هزيمة المسلمين وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢، قام كل من «فرديناند» ملك

(١) فى عام ١٥٣٥، تحدث «فرناندیز دی أوفیدو» مؤرخ الإمبراطور شارل الرسمى «للهند» عن اكتشاف «كولومبس» لأمريكا، وقال إنه ليس اكتشافًا لأراض جديدة ولكنه استرجاع لأراضى إسپانيا «هسپيريد» وهى أراضى مملكة الملك الأسطورى «هسپيروس» القديمة (Historia general y natural de las Indias, bkII. 2; ch. 3) بالتالى، لم يتم غزوها واحتلالها، وإنما استرجاعها بعد سقوطها فى غياهب النسيان (Kadir 1992: 132).

أراجون و«إيزابيلا» ملكة قشتالة بدعم «كريستوفر كولومبس» وتمويله. أبحر «كولومبس» على متن ثلاث بواخر عليها تسعون رجلاً؛ ووصل يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ إلى ما نسميه اليوم جزر «باهاما»، ثم نزل فيما نسميه اليوم السلفادور. وبعد أن استمر فى الاستكشاف، توصل إلى هيسپانيولا (الاسم القديم لجمهورية الدومينيكان وهايتى) وكوبا حيث وجد الذهب، ووجد شعوب الأرواك طيِّعة الانقياد. واعتقد أنه وصل إلى آسيا، وأطلق على الأرواك اسم الهنود. وعندما تحطمت سفينة سانتاماريا بسبب اصطدامها بالصخور الساحلية، بقى ٣٩ بحاراً فى الجزيرة، بينما رجعت السفينتان الأخريان نينا وپينا إلى إسپانيا فى بداية عام ١٤٩٣.

وأثار اكتشاف «كولومبس» لأمريكا ضجة كبيرة فى الأوساط الأوروپية، كما ضمن له اكتشاف الذهب فى هيسپانيولا استقبالاً حاراً عندما التقى بـ «إيزابيلا» فى برشلونة عام ١٤٩٣. ووفقًا لعادات القرون الوسطى ومثلما فعل البرتغاليون فى السابق، طلب «كولومبس» من «البابا ألكسندر السادس» أن يمنح لهم أوسمة لتملك الأراضى التى اكتشفوها مؤخراً. ووافق البابا على طلبهم فى مرسوم أصدره يوم ٣ مايو ١٤٩٣. وبعد شهور من هذا الحدث، رسم البابا ـ رسمًا تخيليًا يقسم القارة من الشمال إلى الجنوب على بعد ٥٦٣ كيلومتراً غرب جزر «أزور» و«الرأس الأخضر»؛ وذلك لتجنب النزاعات بين إسپانيا والبرتغال. فأصبحت الأراضى الواقعة شرق الخط تخص البرتغال؛ أما الأراضى الواقعة غربه فكانت لقشتالة. وعند إبرام معاهدة «تورديسياس» عام ١٤٩٤، اتفق البلدان على أن يكون التقسيم أكثر عدلاً حيث تم نقل الحد الفاصل إلى الغرب بمسافة ٢٠٨٤ كيلومتراً. واستحوذت البرتغال على البرازيل مع وصول «پيدرو ألفارس كابرال» إلى السواحل الشرقية. واستكمل «كولومبس» حملاته الاستكشافية فى المنطقة (١٤٩٢ - ١٤٩٣؛ ١٤٩٣ - ١٤٩٦؛ ١٤٩٨ - ١٥٠٠؛ ١٥٠٢ - ١٥٠٤) حيث تبع اكتشافه للقارة حملات استكشافية أخرى. كان الاستيطان فى هيسپانيولا والجزر الأخرى المحيطة بها من ١٤٩٢ إلى ١٥١٩، بداية تدفق المحتلين على أرض القارة.

ثمن الاكتشاف

وصل أول سكان المنطقة إلى ما سُمى بعد ذلك أمريكا الشمالية عن طريق مضيق يفصل ألاسكا وسيبريا، والذى يطلق عليه اليوم اسم مضيق «بيرنج» وذلك فى الفترة من عام ٤٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد. وتشير الاكتشافات الأثرية إلى وجود مجتمعات إنسانية فى أراضى المكسيك العليا وأمريكا الوسطى وفى سهول «الأنديز» العليا منذ عام ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد؛ بينما تم استيطان مناطق مثل حوض الكاريبى وهضاب أمريكا الجنوبية قبل قدوم «كولومبس» بأقل من ٢٠٠٠ عام. ونجد فى هذه المناطق أدلة على زراعة ناشئة، وبزوغ ثقافات عديدة ومحنكة. وكان عدد السكان الأصليين عام ١٤٩٢ يتراوح ما بين ٣٥ إلى ٤٥ مليون نسمة، ينتمون إلى تشكيلات من قبائل مختلفة، منها قبائل الأزتك والإنكا الأراوكازى والأرواك والكاريب الشيبشا، وغيرها (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٣). وقد طورت هذه الشعوب ثقافات متقدمة (ثقافة الأولمك والمايا والتولتك والأزتك، والإنكا الخ). وبعد أن اكتشف الأوروپيون المنطقة، بدأت عمليات قهر هذه الشعوب بشكل سريع للغاية.

رجع «كولومبس» إلى المنطقة فى نهاية ١٤٩٣ بصحبة ١٥٠٠ رجل، بحارة وإداريين ورجال دين. إلا أنه فى هذه المرة كان ينوى إنشاء مستوطنات. وسعى المستوطنون إلى استعباد السكان الأصليين، وفرضوا عليهم الإتاوات. وأنشأ الإسپان نظام «الإنكوميندا» والذى من خلاله يسمح المستوطنون لأنفسهم بامتلاك أراض واسعة بما عليها من سكانها الأصليين. وأصبحت هذه السياسة الوسيلة الرئيسية فى استعمار أرض القارة. وفى المقابل، كان يتعين على المستعمرين أن يحموا الهنود وأن يدخلوهم فى المسيحية الكاثوليكية وأن يعلموهم أساسيات الإيمان، بالإضافة إلى القيم العليا للحضارة الأوروپية (انظر هاريسون ١٩٩٣ : ١٠٦). وتم إخضاع هنود جزيرة هيسپانيولا لهذا القانون القاسى «الإنكوميندا» ؛ كما تم إرسالهم قسريًا إلى مناجم الذهب حيث كانوا مجبرين على العمل؛ بالإضافة إلى توفير الطعام للإسپان. أما بالنسبة للنساء، فكن يُستخدمن جنسيًا. وتم فرض العمل الجبرى بما فى ذلك الاسترقاق. وعندما نضب معين القوة العاملة الهندية، جلب الأوروپيون الأفارقة. هذا وقد تراجع عدد الأرواك الذين شهدوا انهياراً فى صحتهم بسبب ظروف العمل

الصعبة وسوء التغذية وانتشار الأمراض (خاصة مرض الجدرى الذى ظهر فى الجزيرة عام ١٥١٩) حتى أنه فى منتصف القرن السادس عشر مات مليون منهم (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٢٨).

وبدأ احتياطى الذهب فى هيسپانيولا ينفد عام ١٥٠٩ ، وأصبح البحث عن مصادر أخرى ضروريًا. هذا بالإضافة إلى تراجع أعداد السكان الأصليين، الأمر الذى أدى إلى نقص الأيدى العاملة المتاحة للقيام بأعمال السخرة؛ مما دفع المستعمرين الإسپان (الذين لم يتجاوزوا العشرة آلاف) إلى البحث عن عبيد فى أماكن أخرى. وبحلول عام ١٥١٩ ، كان الإسپان قد دمروا جزر الكاريبى وجزءًا كبيرًا من أرض القارة، ووضعوا أسس الاستغلال الاستعمارى، وتطلع الإسپان لاستعمار القارة (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٣٢- ٣٣). ومنذ أواسط القرن السادس عشر، غزا المغامرون الإسپان (الفاتحون) الذين كانوا متفوقين بسبب استخدام الجياد، والأسلحة النارية، حضارات الهنود الحمر الكبرى؛ مما أعطى سلطة كبيرة لإسپانيا على أمريكا اللاتينية. وانتشر المستوطنون الإسپان والبرتغال حتى قبل انتهاء حملات الغزو. وقد كان هدفهم تحقيق الثروة والسلطة وتحسين وضعهم الاجتماعى. واعتبر ـ وليس لأول مرة ـ المسيحيون المنتصرون أن الله معهم، الأمر الذى كان يعطيهم إيمانًا أكبر بقضيتهم عندما بدءوا فى غزو الأمريكات (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٦ – ١٧).

وكان المغامرون الإسپان يعيشون حياة رغيدة بالاعتماد على عمل الآخرين. وكانت استراتيچيتهم الأولى تعتمد على النهب والسلب الصريحين لثروات إمبراطوريات الأزتك والإنكا الشيبشا، وغيرها، وذلك قبل أن ينتهجوا سياستهم ذات المدى الطويل لاستخراج الذهب والفضة، وقبل أن يستقطعوا مستعمراتهم من أخصب أراضى الهنود الحمر. ولتحقيق ذلك كان يجب عليهم الحصول بانتظام ودائمًا على أيد عاملة مطيعة. وفى هذا الصدد، كانت أفضل خطة تتمثل فى جمع الهنود فى مخيمات، أو فى قرى مثلما كان الأمر فى البرازيل. وزعموا أن هذه التجمعات الجبرية كانت تهدف إلى تسهيل عملية التنصير. ولكن فى الواقع كانت تلك الطريقة هى الوحيدة المضمونة

والأكيدة بالنسبة للبيض لاحتلال الأراضى[1] . ويرى هاريسون أن عدم المساواة التى مازالت تشهدها هذه البلاد، ما هى إلا آثار من الظلم الرئيسى الذى مارسه الأوروپيون عند احتلالهم إياها (١٩٩٣ : ١٠٨).

وقد لقى ملايين الهنود الحمر مصرَعهم خلال المعارك أو بسبب المجاعات أو أعمال السخرة، حتى أن المستعمرين استرقوا الأفارقة وجلبوهم لاستكمال النقص فى الأيدى العاملة . ودارت بعض المناقشات بشأن مدى أخلاقية استرقاق الهنود الحمر؛ إلا أنه لم يكن هناك أى نقاش قضائى أو لاهوتى فيما يخص استرقاق الأفارقة السود؛ ففى خلال أربعة قرون، تم استرقاق ما يزيد على ١١ مليون أفريقى واستجلابهم[٢][*] . جلبت تجارة العبيد اليد العاملة التى طورت الاقتصاد الزراعى لما أصبح فيما بعد البرازيل وڤينزويلا والكاريبى لصالح المستعمرين. وفى أجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية، أكملت النقص فى الأيدى العاملة الهندية . وقد تمتعت مؤسسة الرق بالتأييد الواضح من الكنيسة والدولة والنبلاء والرأى العام جميعًا .

بمرور السنين، أصبح الاقتصاد الإسپانى أكثر اعتمادًا على أمريكا اللاتينية . ودامت السلطة الاستعمارية حوالى ٣٠٠ عام، بعدها انتشر الغضب وعدم الرضا، وتحت تأثير القيم العليا للثورة الفرنسية وحرب الثورة الأمريكية (١٧٧٥-١٧٨٣)، قامت حروب الاستقلال . واستقلت المكسيك عام ١٨٢١ ، ثم أمريكا الوسطى عام ١٨٢٢ ، ولكن بدأت أمريكا الوسطى المتحدة فى التفكك عن بعضها البعض فى عام ١٨٣٨ ، بدءًا باستقلال «جواتيمالا» و «السلڤادور» و«هندوراس» و«نيكاراجوا» و«كوستاريكا» عام١ ١٨٤ . وحققت المستعمرات الإسپانية فى أمريكا الجنوبية استقلالها عن إسپانيا منذ ١٨٢٤. وفى ١٨٢٢ أعلنت البرازيل استقلالها عن البرتغال[٣] .

---

(١) مثلما سنرى ذلك فيما بعد، تم تطبيق طرق مماثلة فى جنوب أفريقيا (البانتوستان)، وفى فلسطين، حيث لا تمثل المناطق التى تحت حكم السلطة الوطنية الفلسطينية إلا حوالى ٤٪ من أراضى الضفة الغربية.

(٢) تذهب بعض التقديرات لأرقام أعلى من الأفارقة المستعبدين والمجلوبين من أفريقيا، تبلغ ١٥ مليونًا عند (هربون ١٩٩٠: ٩١ ـ٩٣)، و٢٠ مليونًا عند (ريتشارد ١٩٩٠ : ٥٩ ـ ٦٠).

(*) وأفادت دراسات أخرى أنه مقابل كل أفريقى وصل لأمريكا عبدًا، مات تسعة آخرون، فى أفريقيا، أو فى الرحلة لأمريكا ـ المترجمة .

(٣) أرادت هذه المستعمرات، الاستقلال والتحرر من العبودية لدولة أخرى، مثلها مثل الولايات المتحدة، دون أن تهتم البتة بإنهاء العبودية داخل حدودها.

الدعم اللاهوتى

اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى

يسود بين المسيحيين الأوروپيين فى العصور الحديثة سلوك الهيمنة، ليس فقط على الطبيعة، بل وعلى الأجناس والثقافات الأخرى، وهنا يجد تاريخ الاستعمار اللاحق [فى إسپانيا وأفريقيا] جذوره، حيث لجأ المستعمر الأوروپى فى أمريكا اللاتينية إلى استبعاد ثقافة الآخر. ومنذ غزو أمريكا، ارتبط الدين بالسياسة ارتباطًا وثيقًا فى أمريكا اللاتينية؛ حيث أعطى كل منهما الدعامة الأيديولوچية والمادية التقليدية والشرعية للآخر (ليڤين ١٩٨١ : ٣). ومنذ قدومها إلى العالم الجديد، كانت الكنيسة الكاثوليكية هى الشريك الحقيقى للمشروع الاستعمارى. وكان من ضمن مهامها ووظائفها مراقبة التقارير وكتابتها بشأن سلوك السلطة المدنية (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢٠٣ - ٢٠٧). ولعبت الجماعات الكاثوليكية المنديكانتية [جماعات الرهبان المتقشفة التى تعيش على التسول] وبالدرجة الأولى الفرانسيسكان، دورًا حيويًا فى المشروع الاستعمارى، مع تأسيسهم الأديرة كمراكز لنشر المسيحية.

وتم الاعتماد على حجج لاهوتية وكتابية عديدة لوضع الأساس الأيديولوچى للاستعمار. وكان علماء اللاهوت المسيحيون فى العصور الوسطى يتبنون رأى رجال الدين الإسرائيليين بشأن الطابع المقدس للدولة ومؤسساتها بما فى ذلك الأرض. وكانوا جميعًا يؤكدون أن الأرض هى هبة الله: بالنسبة للإسرائيليين فى عصرهم، وبالنسبة للإسپان والبرتغاليين فيما بعد فى العالم الجديد (پاردون ١٩٧٥ : ٤٢). وتعنى ملكية الله للأرض سيادته السياسية على جميع أراضى العالم (لامادريد ١٩٨١ : ٣٢٩).

كان الدين فى العصور الوسطى يدخل فى جميع أمور الحياة ومظاهرها، مثلما كان الوضع فى عصر العهد القديم. وكان معظم رجال اللاهوت والقضاة يعتبرون البابا - نائب المسيح - سيد الأرض. ويجب أخذ أوامر البابا بعين الاعتبار وفقًا للتصور الخاص بالحكم الإلهى المتعارف عليه فى العصور الوسطى؛ إذ كان البابا سيد الأرض؛ لأن المسيح أعطاه كل السلطات فى السماء وعلى الأرض. وكان المرسوم الذى أصدره البابا عام ١٤٥٥ يقضى بتقسيم العالم الجديد بإعطاء الأراضى التى تم اكتشافها للبرتغال. أما الأمر الذى صدر عام ١٤٧٩، فكان يقضى بالتنازل للبرتغال عن كل أراضى أفريقيا

التى اكتشفتها . أضف إلى ذلك مرسوم البابا «ألكسندر السادس» عام ١٤٩٣ الذى قضى بمنح بعض المستعمرات لإسبانيا . وكان يُسمح للملوك بأن يشنوا حروبًا مقدسة تهدف إلى غرس الإيمان الحقيقى فى أرض الكفار (لامادريد ١٩٨١ : ٣٢٩). وعبر «كولومبس» عن المظاهر الدينية لاستكشافاته فى الإهداء الوارد فى تقريره بشأن رحلته الأولى(الجمعة ٣ أغسطس ١٩٤٢):

جلالة الملك فرديناند ملك أراجون، وجلالة الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة، إنكما ككاثوليك وأمراء يحبون الإيمان المسيحى ويأملون أن يروه ينتشر، ولكن أيضًا كأعداء لطائفة محمد (Mahomet) وكل عبدة الأوثان والهراطقة، رأيتم أنه من الأفضل أن ترسلونى أنا كريستوفر كولومبس إلى مناطق الهند وذلك لمعرفة بأى طريقة يمكن أن يتم تنصيرهم حتى يدخلوا ديننا المقدس (مقتطف من النص الأصلى الوارد فى كتاب «لاس كاساس» ١٩٨٩- ١٩٩٤ : ١٤، ٤١).

وقد بدأ «كولومبس» يومياته بعبارة «باسم المسيح». وبهذا الشكل أدى الحافز الدينى لتنصير الهنود الحمر إلى تبرير الغزو الاستعمارى[1]. وفى حديثه عن «كولومبس»، كتب «بارتولومى دى لاس كاساس» فى حوالى ١٥٢٧م، أن حافزه كان استيطان المستعمرين الإسبان؛ لإنشاء كنيسة مسيحية جديدة وقوية وجمهورية سعيدة واسعة ونموذجية (من النص الأصلى فى لاس كاساس ١٩٨٩- ٩٤ : ٣، ٣٥٩) ورأى «كولومبس» فى اكتشافه للقارة تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس، خاصة فى الآية (٦٥ : ١٧) من سفر إشعيا: «لأننى ها أنا أخلق سماوات جديدة وأرضًا جديدة» والتى يكررها كثيراً؛ وأيضًا: «لا يصدر عنها كلام، لكن صوتها يسمع واضحًا. انطلق صوتهم إلى الأرض كلها وكلامهم إلى أقاصى العالم» (المزمور ١٩ : ٣ - ٤) التى نجدها تتكرر خمس مرات فى كتاباته؛ بل وأيضًا: «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة» ـ (سفر الرؤيا ٢١ : ١).

أكثر من هذا، تظهر ـ بصفة عامة ـ لغة «كولومبس» الرمزية، وإحساسه بالتاريخ وبعلم الكون، تأثره الواضح بالكتاب المقدس، وبالفترة بين عهديه القديم والجديد،

(١) هناك انحراف هائل عن نموذج الفتح الإسرائيلى فى الكتاب المقدس، حيث إنهم لم يحاولوا أبدًا أن يجعلوا الكنعانيين يهودًا.

ونبوءاته، كما يعكس ذلك إغماؤه النعاسى من فرط النشوة فى چامايكا، فى ٧ يوليه ١٥٠٣ (كادير ١٩٩٢ : ١٥٦- ٥٩).

ومثلما هو واضح فى كتابه (كتاب النبوءات ـ Libro de las profecias)، يرى «كولومبس» أن مهمته تأتى فى ذروة النهاية، وبداية ألفية سيتم فيها استعادة جبل صهيون (و كان يريد أن يجند لهذه العملية ١٠٠٠٠ فارس و١٠٠٠٠٠ جندى ـ انظر كادير ١٩٩٢ : ٢٠٢-٢٠٣) حيث سيتم توحيد كل الأرض، وستصبح البشرية جمعاء مسيحية على ضوء الإيمان الحقيقى. وفى النهاية يتم إنشاء كنيسة عالمية، وسيكون هناك راعٍ واحد لقطيع واحد. وبالتالى سيتتصر إمبراطور العالم «فرديناند» ملك أراجون على عدو المسيح فى جبل صهيون؛ وسيقوم بابا ملائكى لإحدى الكنائس المجددة بقيادة المؤمنين المخلصين إلى ألفية جديدة سعيدة، تسبق يوم الحساب الأخير. ومن يا ترى أفضل من ـ كريستوفر كولومبس ـ «حامل اسم المسيح» ليبدأ العملية؟ (انظر كادير ١٩٩٢ : ٣٠-٣٢).

وهكذا ساعدت ممارسات التنصير الكنسية على دعم جشع سلطة الدولة وعهدت لها بالسيطرة على ثقافة السكان الأصليين. ورأى المحتل نفسه ممثلاً الله، والكفار البربر ممثلين للشيطان. وأدى التنصير إلى إخضاع الشعوب المحتلة أيديولوچيًا، كما أدى البارود والجياد إلى إخضاعهم عسكريًا. وكان الهدف الحقيقى للغزو هو السيطرة الاقتصادية على المنطقة. وجاء التبرير الرئيسى للحرب وفقًا لمرسوم «جراشيانو» من أعمال العهد القديم (يشوع، القضاة، شاول وداود وغيرها. .) الذى يعبر عن الأمر الإلهى بشن حرب مقدسة تضمن لهم امتلاك أرض الوعد. وإذا كان هناك شكوك وترددات فيما يخص الاعتداء والغزو، فإن تأكيدات القديس أوغسطين تكفلت بطمأنتهم، حيث يقول إن الحرب التى تقوم بأمر من الله لا يمكن أن تكون إلا عادلة، لأن الله ليس فيه شر.

أما كتاب «چوان مار»: «أمر محكمة» الذى تم نشره فى پاريس عام ١٥١٠، فيتناول لاهوتيًا لأول مرة احتلال أراضى الكفار. وعلى الرغم من أنه يتناول الموضوع بشكل عام، إلا أنه يضرب غزو الإسپان لأراضى الهند الأمريكية كمثل، وهو يعتبر احتلال أراضٍ

مأهولة بالسكان الأصليين وإخضاعهم ما هو إلا تأدية رسالة. ويمكن للمسيحيين أن يحملوا السلاح إذا كان الأمر يتعلق بنشر المسيحية وتعليم الإنجيل. و وفقًا لنظرية أرسطو، فإن البربر هم عبيد التطبيع؛ مما يُبرر إخضاع الهنود الحمر لتعاليم المسيحية. وكانت هذه الأفكار راسخة بشكل واضح فى الأذهان لدرجة أنه منذ ١٥١٣ كان يلزم على الإسپان أن يقرءوا للهنود الحمر طلباتهم وذلك قبل القتال ـ وكانوا لا يترجمون لهم ذلك فى معظم الأحيان(انظر تودوروف ١٩٨٤ : ١٤٨) ـ ليحثوهم على:

> **. . . الاعتراف بالكنيسة كقائدة و حاكمة للعالم، والاعتراف بالسيد الأعلى للكنيسة «البابا»، بالإضافة إلى الاعتراف بملوكنا الملك والملكة في رعايته، كسادة وملوك على الجزر والقارة وفقًا لما سبق. . . وإذا قبلتم كل هذا ستكونون فى أحسن حال. . . وإذا رفضتم أؤكد لكم أننى سأهاجمكم بقوة بمساعدة الرب وسأعلن عليكم الحرب فى كل الأماكن وبكل الوسائل المتاحة. . . . سأقبض عليكم أنتم ونسائكم وأطفالكم وسأحولكم لعبيد. . . وأؤكد مرة أخرى أن موتكم أو المصائب التى ستلحق بكم ستكون بسبب مسئوليتكم وليس مسئولية جلالة الملك، أو مسئوليتى أو مسئولية النبلاء الذين يصاحبوننى (كادير ١٩٩٢ : ٨٦-٨٧).**

أما لاهوت «چوان چينى سيپولڤيدا» فهو نموذج للاهوت الذى يبرر الحرب ضد الهنود بأنها شرط مُسبق لتنصيرهم. . وأنهى «سيپولڤيدا» الذى ولد فى إسپانيا ١٤٩٠ تحرير كتابه عام ١٥٤٥، إلا أنه منع من نشره. إن تفكيره اللاهوتى مهم فى العديد من القضايا التى تعرض إليها، وبالأخص فيما يتعلق بالحجج التى استعملها لإخضاع أوامر الإنجيل للواقع السياسى الأيديولوچى للفتح. وفى بادئ الأمر يذكر ـ بصفة عامة ـ الظروف التى تبرر حربًا عادلة قبل أن يتحدث عن إطار فتح أمريكا. وأشار إلى ثلاثة أسباب تبرر الحرب العادلة: الدفاع عن النفس الذى يسمح باستعمال القوة للرد على القوة، وثانيًا حماية الحقوق باسترجاع الممتلكات التى تم مصادرتها بشكل غير عادل، وأخيراً معاقبة مرتكبى أعمال الشر، ويضيف سببًا رابعًا ألا وهو الحق فى الإخضاع بالقوة، وذلك بالنسبة للأشخاص الذين ـ بسبب ظروفهم الخاصة ـ يجب أن يخضعوا لسلطة آخرين. ووفقًا له، فإن كبار الفلاسفة يبررون مثل هذه الحرب.

وبتطبيقه هذه المبادئ فى إطار الحرب العادلة التى اندلعت فى أمريكا، فإن السبب الرابع لتبرير الحرب يصبح فى المقدمة. و بما أنه من الطبيعى والبديهى أن يحكم الرجل الحكيم والأمين والإنسانى، أولئك الذين لا يمتلكون هذه الصفات، فيصبح للإسپان كل الحق فى ممارسة السلطة على بربر العالم الجديد، لأنهم أقل مستوى منهم، كالأطفال مقارنة بالكبار، والنساء مقارنة بالرجال، وذلك وفقًا للتميز الذى حدده أرسطو بين الذين ولدوا لكى يحكموا، والذين ولدوا ليكونوا عبيدًا(*). (السياسة ١٢٥٤ ب، ترجمة سيپولڤيدا من اللاتينية). ويرى «سيپولڤيدا» أن الأجناس البربرية متوحشة وغير إنسانية بينما ينتمى الإسپان إلى جنس يتسم بالرحمة والإنسانية والتسامح. ووفقًا له، فإن الهنود الحمر هم بربر وأيضًا أقل درجة من الإنسان؛ ولذلك يجب إجبارهم على القبول بالسيطرة، وهى سيطرة ستجلب لهم امتيازات كبيرة وكثيرة. فالإسپان المتحضرون سيجلبون التطور للبربر الذين بالكاد يمكن أن نطلق عليهم اسم بشر، وذلك بنقلهم من حالة الخمول والبطء و التدهور الأخلاقى إلى حالة القيم الرفيعة والشرف. وبعد أن يتركوا عبادة الأوثان حيث كانوا عبيدًا للشيطان، سيصبحون مسيحيين يعبدون الله الحقيقى. وقد أصر «أوڤيدو» المؤرخ الرسمى للإمبراطور تشارلز على القول: «من يجرؤ أن ينفى أن استعمال المدافع ضد عبدة الأوثان هو بمثابة إحراق البخور لإلهنا؟» (تودوروف ١٩٨٤ : ١٥١).

تنجم الحجج التى يستعملها «سيپولڤيدا» لتبرير الاحتلال عن مواقف عنصرية تدعو إلى تمييز جنس على جنس. وبالفعل، هى أفكار ناتجة عما يسميه (النظام الطبيعى) أكثر من كونها قيمًا عليا مقترحة من لاهوت أخلاقى مستنير.

كان يتعين على الكنيسة أن تقدم الإنجيل كمحرك لتحرير الشعوب الأصلية، ولكن بدلاً من ذلك، برر بعض رجال اللاهوت السيطرة والمذابح الاستعمارية باسم تحويل هذه الشعوب إلى المبادئ العليا للإنجيل. وأصبح التنصير الدعامة الأساسية للاستعمار. ورغم الرفض الذى قد نبديه تجاه هذه المواقف وهذه الحجج، فإننا نستنتج أن بوسع «سيپولڤيدا» أن يجد تبريرات أخرى للعرقية فى تقاليد الكتاب المقدس ليعطى

(*) يُسمى ذلك نظرية «پيتر بان»، أى الشعوب التى يتوقف نمو البشر فيها، فلا يبلغون مبلغ الرجال العقلاء الحكماء، أى الأوروپيين، فيقع على الأوروپيين عبء حكم تلك الشعوب الپيترپانية، لمصلحتها - المترجمة.

شرعية لتلك الأعمال. فهو يرجع إلى نصوص معروفة فى سفرى التثنية واللاويين، ويشيد بطرد الإسرائيليين للكنعانيين بشكل وحشى باسم الله. ويؤكد استحالة التبشير بالإنجيل إذا لم يخضع الشعب سياسيًا للمسيحيين؛ وأنه فى كل الأحوال لم يكن الهنود الحمر إلا وثنيين برابرةً صالحين فقط لأن يكونوا عبيداً. وما أسفرت عنه المسيحية فى ذلك الوقت، كان فى الحقيقة شكلاً استعماريًا للمسيحية الغربية، منتشيًا بانتصارها الحديث على(المور ـ Moors) [المسلمين فى الأندلس، وتشير الكلمة إلى المغاربة]. وأصبحت المسيحية تتمتع بأعلى أنواع الاعتراف والتقدير من العلمانية، وفى المقابل أعطت السلطة الدينية الشرعية للسلطة الدنيوية.

ولكن فى الواقع، لم يكن دور الدين الوحيد يتمثل فى الاستغلال التام و العنيف للهنود الحمر. فقد تم أيضًا تطبيق المناهج المعروفة لتعليم الإيمان المسيحى بدعم من أعمال التربية والخير، كما يصف ذلك «بيدرو دى جانت» وهو أخ فرنسيسكانى، وذلك فى رسالته للإمبراطور ١٥٣٢ (انظر لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢١٣ - ١٤). فى رسالة لأسرته التى مكثت فى إسبانيا عام ١٥٧٤، يجمع الأخ «خوان دى مورا» ـ وهو قس من أتباع «أوغسطين» وأستاذ الكتابات المقدسة ـ بين التجارة والدين، إذ يقترح على أولاد إخوته الذين يريدون الالتحاق به أن يستثمروا فى طباعة الكتاب المقدس فى «سالامانك». حيث أكد أن مثل هذا الاستثمار سيكون له آثاره الإيجابية بشكل مضاعف فى العالم الجديد (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢١٣ - ١٤).

وبقدوم رجال الدين إلى العالم الجديد تضاعف التنصير، حيث توسل «كورتيس» عدة مرات إلى «تشارلز» الأول بأن يرسل له رجال دين، وفى مايو ١٥٢٤، وصل اثنا عشر راهبًا فرنسيسكانيًا ضمن الحملة التى تدعى «الغزو الروحى». وفوراً التحق بهم الدومينيكان الذين كانوا بالفعل نشطين فى مستعمرات الكاريبى، وكذلك أتباع القديس «أوغسطين». وكان إله المسيحيين ـ الذين يهدفون إلى تنصير الشعوب ـ إلهًا لا يقبل بأى منافس، وبالتالى شنوا عمليات التدمير والقضاء على الديانات المحلية دوريًا وبانتظام وبفعالية واقتدار. وقُدر عدد رجال الدين فى المكسيك بحلول عام ١٥٥٩ بحوالى ٨٠٠ أخ مسيحى (Friars). وكانت خطتهم تتمثل فى تنصير الزعماء المحليين المعروفين؛ حيث كانوا يأملون فى أن يكون هؤلاء قدوة للشعب ليعم الإيمان

المسيحى. واستعمل رجال الدين اللغات المحلية للتواصل مع الشعوب الأصلية مثل لغة الأزتك و نهواتل فى إسپانيا الجديدة، والكيكشى فى أمريكا الوسطى، و الكوتشوا و أيمارا فى پيرو. وسعوا إلى فصل الهنود الحمر عن الأوروپيين حتى لا يفسدوهم. وأنشأ الإخوان المسيحيون قرى هندية، الأمر الذى سمح لهم بمراقبة النشاطات السياسية والاقتصادية والدينية للمتنصرين الجدد. وقد استقبل العديد من الهنود الحمر المسيحية بشغف وفرحة. وبدت الكنيسة فوراً كمؤسسة قوية وصاعدة، وكانت تتدخل فى النظام الاستعمارى وأصبحت تدعم الثقافة والحضارة الأوروپية خلال الفترة الاستعمارية بأكملها.

أصوات معارضة

وكان هناك بالطبع داخل الكنيسة آراء معارضة (انظر دوسال ١٩٧٩). ومن هذه الأصوات الأب «أونتون دى مونتيسينوس» فى هيسپانيولا الذى قال فى خطاب مهم ألقاه خلال استعداد الكنيسة لعيد يوم القيامة فى عام ١٥١١:

> **يؤكد هذا الصوت أنكم جميعًا فى حالة خطيئة أخلاقية، وستعيشون بها وتموتون فيها بسبب الاستبداد والوحشية التى تفرضونها على شعب برىء. قولوا لى بأى حق وباسم أية عدالة تسترقُّون الهنود الحمر؟ وبهذا الشكل الوحشى والقاسى؟ وباسم أية سلطة قمتم بشن حروب شنيعة كهذه ضد شعوب كانت تعيش على أراضيها فى سلام، وأبدتُّم عدداً كبيراً منها فى مذابح لا مثيل لها؟ وكيف يمكن لكم أن تتركوهم فى هذه الحالة من القمع والنسيان بدون غذاء وبدون عناية، وهم يعملون أعمال سخرة يمرضون بسببها و يموتون فى أسوأ الأحوال؟ وكيف تقتلونهم لتستولوا على الذهب؟ (بارتولومى دى لاس كاساس، تاريخ الهنود- الجزء الثالث الفصل الرابع).**

ويدين «مونتيسينوس» بشدة الحاضرين الذين لا يكترثون برفاهية الهنود الروحية حيث يتساءل: أليس الهنود الحمر بشراً؟ أليس لديهم روح؟ وقال «لاس كاساس» فى كتابه: فعل المستعمرون كل ما يستطيعون مع «مونتيسينوس» ليسحب ما قاله، وكانوا يأملون فى أن يقوم بذلك فى الأحد التالى. ولكنه واصل فى المرة التالية حديثه و ذكر

أقوال أليهو فى (أيوب٣٦ : ٢-٤) حيث أكد أنه يتم معاملة الهنود بشكل غير عادل وباستبداد. وأكد أن الله لا يبقى الأشرار على قيد الحياة، وإنما يعطى المظلومين حقوقهم، ويُعَرِّف الملوك بأخطائهم عندما يعتدون (أيوب ٣٦ : ١٠-١٢). ويقدم «بارتولومى دى لاس كاساس» تفكيراً لاهوتيّا عميقًا فيما يتعلق باستغلال قبائل الأميرندى (تم نشره فى ١٩٨٩- ١٩٩٤). يثبت التغيير الذى أصاب تقييمه للأمور كيف أن ثقل التجربة الإنسانية قد يغير قيم الفرد. تغيرت رؤيته الأوروبية الأولى للاحتلال تغيراً جذريّا. لقد شارك القس «لاس كاساس» وأعمامه الثلاثة فى الرحلة الثانية التى قام بها «كولومبس». وقد وصل إلى هيسپانيولا عام ١٥٠٢ وتم تعيينه كقس عام ١٥١٢، وكان أول قس فى العالم الجديد. وشارك عام ١٥١٣ فى غزو كوبا كمدرس لتعليم المسيحية مع «پانفيلو نفاراز». ومنذ ربيع ١٥١٤، اقتنع بعدم عدالة الفتح الإسپانى لهذه القارة (رغم أنه كان يملك عبيدًا)، وتغير تمامًا، ويرجع ذلك بنسبة كبيرة لقراءته لكتاب سيراش ٣٤: ٢١ - ٢٧ -79 ,Historia de las Indias, bkIII) (80 .

وقد رفض نظام الإنكوميندا، واهتم بالدفاع عن حقوق الهنود. وفى ديسمبر ١٥١٥ ندد أمام المحكمة الإسپانية بسوء معاملة الهنود (Historia de las Indias, bkIII, 84 - 85). وفى ديسمبر ١٥٢٢، دخل عند الدومينيكان فى هيسپانيولا؛ وفى ١٥٢٧ أقام الدير الخاص به فى«پيورتو دى پلاتا» وبدأ فى تأليف كتابه(Historia de las Indias) فى عام ١٥٤٤، ثم تم تعيينه أسقفًا فى كنيسة شياپاس فى المكسيك، إلا أنه رجع إلى إسپانيا عام ١٥٤٧ واستقر هناك نهائيّا. وما بين شهرى يوليه و سبتمبر عام١٥٥٠، دار النقاش بينه وبين «سيپولڤيدا» أمام لجنة ملكية لتبرير الغزو الإسپانى. وقد نشر «سيپولڤيدا» كتابًا عام ١٥٤٥ يبرر فيه الحرب فى أمريكا اللاتينية. ومات «لاس كاساس» فى دير دومينيكانى فى مدريد فى يوليه ١٥٦٦.

ووفقًا لـ «لاس كاساس» فإن الحافز الأساسى للغزاة كان :

> **شغفهم الكبير وطموحهم الفريد من نوعه فى العالم. وكذلك لأن هذه الأراضى غنية للغاية وخصبة، وسكانها خنوعون بشكل بريء وصبورون. . . لدرجة أن الإسپان كانوا يعتبرونهم حيوانات؛ بل يجب أن أقول أقل من الحيوانات، اعتبروهم نوعًا من الفضلات (١٩٧٤ : ٤١- ٤٢ فى دوسال ١٩٩٠: ٤١).**

فى بادئ الأمر ، وافق «لاس كاساس» على فكرة استرقاق العبيد السود وجلبهم إلى العالم الجديد لأنه كان يأمل فى أن يخفف وجود السود مأساة الهنود ، إلا أنه رفض هذا الرأى فيما بعد (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٧) . وأكد أنه كان من الأفضل بالنسبة للهنود أن يبقوا على عبادة الأوثان وهم أحياء من أن يكونوا مسيحيين أمواتًا ، و أنه كان من الأحسن تنصيرهم بقدرة الإنجيل بدلاً من قوة الأسلحة(بريمان ١٩٨٧ : ١٠) .

أما «فرانسيسكو دى ڤيتوريا» وهو لاهوتى وقانونى وداع بارز للإنسانية فى إسپانيا فى القرن السادس عشر ، فقد رفض التبريرات التقليدية لتدمير الإسپان للهنود الحمر . ويُثنى عليه بصفته الرجل الأول على المستوى العالمى الذى شكك فى الإمپريالية الدينية للقرون الوسطى . ولكن بعض الحجج التى استعملها للدفاع عن «الحروب العادلة» شكلت تبريرًا أيديولوچيًا لإخضاع الهنود . ومن هذا المنطلق ، إذا قاوم الهنود الحمر حقوق الإسپان فى التجارة وما شابه ذلك ، فيمكن أن نبرر الحرب(ڤيتوريا ١٥٣٨-١٥٣٩ : ٧٠٢) . ومن ناحية أساسية ، فنظرًا للحالة المتخلفة التى يعيشها الهنود ، فهم شبه مجانين ، وغير قادرين على أن يحكموا أنفسهم ، مما يبرر تدخل دولة أخرى أسمى منهم (تودوروف ١٩٨٤ : ١٤٩-١٥٠) .

وبصفة عامة ، يرى علماء اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى أن غياب الإيمان لدى الهنود يبرر للإسپان احتلالهم ، والأعمال الوحشية والجرائم التى يقومون بها . يتأسس تبرير هذا العنف لاهوتيًا ، على غزو الإسرائيليين لكنعان . ويتبنى أغلب علماء اللاهوت المسيحيين النظريات الإمپريالية الدينية ونظريات الحرب المقدسة ، وهم بذلك يتجاهلون النزعات الأعلى فى كثير من تقاليد التراث ذى الطابع النبوئى للعبريين ، ويتجاهلون الدعوة إلى عدم اللجوء إلى العنف فى العهد الجديد . إنهم «يرجعون» إلى تقاليد العهد القديم التى تجعل الحرب أداة عدالة إلهية ، ويضرون بشكل كبير روح الإنجيل المنفصل عن مفهوم الأرض الذى يبرز بشكل كبير فى التوراة .

ونشأت معارضة الغزو الإسپانى من تجمعات عامة الناس ورجال الدين ، الذين استعملوا لغة النبوءات فى حججهم ، وكانوا يسخرون قائلين «إنهم يعيشون فى بابل وليس فى مملكة إسپانيا» وكأنهم ينشرون المسيحية فى نينوى ، أو يعلنون حكم الله لشعوبهم . وأثناء الاحتفال بعيد الخمسين [عيد الحصاد] سنة ١٥١٤ فى كوبا ، شهد

«لاس كاساس» أن الهبة المقدمة إلى الله بدون تطبيق العدالة هى هبة ملطخة بدماء الفقراء (سير ٣٤: ١٨-٢٢). أما «فيليپ جوامان پوما دى أيبالا» (١٥٣٤-١٦٦١) نبى كويشا الذى أصبح مسيحيًا فقد قال: «حيثما يكون الفقراء، يكون المسيح بنفسه حاضرًا». ومن البديهى أن أنبياء العدالة لقوا مصير كل الأنبياء. فقد احتقرت الكنيسة والدولة «لاس كاساس» وأجبره المستعمرون فى سانت دومينيجو على أن يعتزل فى دير. وفى عام ١٥٤٨ أمر «تشارلز الخامس» بسحب حقه فى التعبير. أما «سيپولڤيدا» فقد نعته بأنه متهور ومُخز ومهرطق. وعند وفاته أمر «فيليپ الثانى» بمصادرة كتبه (انظر ساليناس ١٩٩٠: ١٠٢-١٠٣)

يبدو النزاع الناشئ بين الأقطاب المختلفة للتنصير جليًا فى النقد القاسى ضد «لاس كاساس» الذى وجهه الأب «توريبيو دى موتولونيا» والذى أرسل يوم ٢ يناير ١٥٥٥ للإمبراطور إدانة ونقدًا لاذعًا بشكل مفصل ضد استنكار «لاس كاساس» للغزو. «اختلاط الفكر عنده كبير، وتواضعه قليل، ويظن أن الكل مخطئ وهو على صواب». واندهش الأب «توريبيو» لصبر الإمبراطور الطويل على «لاس كاساس» حيث تحمل كل هذه المدة «رجلاً محرجًا ومزعجًا ومثيرًا للمشاكل والقلاقل - وهو يلبس لباس القس ومضطرب وقليل الثقافة، ويلجأ للإهانة ويثير المتاعب.. الخ». وأضاف «توريبيو» «إن لاس كاساس» كان يحركه حقده الكبير على الإسپان وحبه للهنود، وهوما لم يبلوره على أرض الواقع. لم يحاول أبدًا أن يرى الجانب الإيجابى إنما كان يرى فقط الجانب السيئ والسلبى. ولم يندمج هنا معنا أبدًا فى إسپانيا الجديدة. جلالة الملك يجب أن تصدروا أمرًا ليعتزل فى أحد الأديرة حتى لا يسبب شرًا أكبر» (لوكهارت وأوت ١٩٧٦: ٢٢٤ - ٢٩). وطلب الأخ «توريبيو» المساعدة والدعم من الإمبراطور لتوسيع المملكة الخامسة، وهى مملكة المسيح لتنصير الكفار. وكان الإمبراطور هو الزعيم والقائد. أما «لاس كاساس» فقد يعالجه أن يسمع يوميًا اعترافات ١٥ أو ٢٠ من الهنود الحمر الذين يعانون ولمدة تتراوح ما بين ١٥ و ٢٠ عامًا (لوكهارت وأوت ١٩٧٦: ٢٣٢).

حتى يصير الأمر للأسوأ، وبينما كان الأخ «توريبيو» يعد تقريره للإمبراطور، حصل على أحد النصوص التى كتبها «لاس كاساس» مما أدى إلى زيادة غضبه وحميته

الدينية. وعلى عكس تأكيدات «لاس كاساس»، أكد على أن نقص عدد الشعوب الهندية لم يكن بسبب سوء المعاملة الإسپانية لهم، ولكن بسبب الأمراض والآفات، أو وفقًا للمعتقدات الكتابية، لوثنية الهنود:

لا أعرف ما إذا كانت ذنوب الوثنية المرتكبة على هذه الأرض هى السبب، ولكن أرى أن هذه الأجيال السبعة من عبدة الأوثان [الهنود الحمر] الذين كانوا يمتلكون أرض الوعد [أمريكا] تم إبادتهم من قبل يشوع [كولومبس] وبعد ذلك امتلكها بنو إسرائيل [الأوروپيون]. (لوكهارت وأوت ١٩٧٩ : ٢٣٩).

ووفقًا للأخ «توريبيو»، كان الهنود ـ قبل تحولهم للمسيحية ـ يقومون بحروب عديدة ويهاجمون العديد من الأبرياء بهدف التضحية بهم وتقديم قلوبهم ودمهم كقرابين للشياطين (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢٤١). وما أدت إليه المسيحية من تحسين لأوضاع هذه الشعوب كان واضحًا.

وقد لقى أتباع «لاس كاساس» الصعوبات ذاتها. وأعلن الأسقف «خوان دل ڤالى دى پوپايان» (١٥٤٨-١٥٦٠) أنه سيستمر بإدانة أعمال الغزاة حتى وإن أرادوا رجمه بالحجارة. وحاول أن يعرض مشكلة الهنود وحالتهم فى مجلس الكنيسة ولكنه مات فى الطريق. وتم تعذيب العديد من الأساقفة، فقد تم ضرب الأسقف «أنتونيو دى ڤاليديڤيسو» أسقف نيكاراجوا حتى الموت (١٥٤٤- ١٥٥٠). وشهد رجال دين مسيحيون على أكبر عمليات قتل جماعى فى التاريخ الإنسانى، ونهاية حضارات السكان الأصليين. ولم يكن على المحك إلا بقاء السكان الأصليين على قيد الحياة. وكتب الأخ «پيدرو القرطبى» وهو مندوب الدومينيكان فى هيسپانيولا إلى «تشارلز الخامس» يوم ٢٨ مايو ١٥١٧ :

لم أقرأ ولم أر أية أمة ـ حتى بين الكفار ـ قامت بإلحاق أضرار بالغة ووحشية بأعدائها مثلما فعل المسيحيون ضد رجال أبرياء كانوا أصدقاءهم وحلفاءهم على أرضهم. . . حتى فرعون والمصريون لم يتصرفوا بمثل هذه الوحشية مع شعب إسرائيل (ساليناس ١٩٩٠ : ١٠٥-١٠٦).

وكتب الأخ لويز «لويز دى سوليس» أسقف كويتو عام ١٥٩٧ :

«وصل صراخ السكان الأصليين بسبب الشدائد الخطيرة والكثيرة التى لاقوها على أيدى الإسپان إلى الله» (ساليناس ١٩٩٠ : ١٠١-١٠٢) .

وأثار وضع الهنود الحمر المشاعر ذاتها لدى أسقف سانتياجو شيلى ، الفرانسيسكانى «دييجو دى هومانزورو» عام ١٦٦٦ حيث كتب للبابا :

إن بكاء الهنود عظيم ومتواصل لدرجة أنه يصل إلى عنان السماء . وإذا لم ننقذ هؤلاء البؤساء ، أو إذا لم تستطع دموعنا أن تجفف دموعهم ، سيتم المطالبة بذلك فى محكمة أكثر القضاة عدلاً . . . . إن الذين يقمعون الفقير ويحتقرونه لزيادة ثرواتهم ، سيدينهم الرب (سالياس ١٩٩٠ : ١٠٢) .

وأثناء تحدثه أمام الملكة «ماريانا» ملكة النمسا عام ١٦٩٩ ، ندد الأب «دييجو دى هومانزورو» قائلاً :

خلال الأربعمائة عام وهى أعوام الأسر . . . ارتفع عدد العبرانيين . إلا أن الهنود لقوا مصرعهم على أرضهم منذ قدوم الإسپان ومات الملايين ، وذلك بسبب التعذيب والاستبداد الذى عانوا منه تحت وطأة العمل الجبرى ، وكان كل هذا أكثر قساوة مما كان مفروضًا على الإسرائيليين من قبل فراعنة مصر (سالياس ١٩٩٠ : ١٠٧) .

وكانت كل الأصوات التى عارضت التبرير اللاهوتى للاستعمار الأوروبى قد قارنت وضع الهنود الحمر بوضع الإسرائيليين فى مصر وبابل ، بل وأيضًا بوضع المسيحيين الأوائل الذين كانوا تحت وطأة الإمبراطورية الرومانية . فليس هناك شىء فى الكتاب المقدس يمكن مقارنته بتدمير ثقافة الهنود وحياتهم ، برغم أن هؤلاء المعارضين كانوا يقرءون الكتاب المقدس بأعين الإسرائيليين وليس بأعين الكنعانيين . هذا كما أنهم كانوا يرجعون إلى بعض فقرات الكتاب التى تبرر حججهم . وكان المعارضون يقارنون أنفسهم بيوحنا المعمدان ويصرخون فى البرية ، وكانوا مستعدين للتضحية (مرقص ٦ : ١٧ - ٢٠) . وهم سيُضطهدون كما اضطهد يسوع (يوحنا ١٥ : ٢٠) . وبإحساسهم بمعاناة الضحايا كانوا يعتبرون أنفسهم الضحايا (مرقص ١٣ : ١٢-١٣) .

ويرى هؤلاء المنشقون، أن الذين كانوا يزعمون بأنهم ينشرون حضارة الإنجيل لدى الهنود ما هم إلا شياطين. ويرى «فرانسيسكو نوناز دى پيندا باسكونان» (١٦٠٨- ١٦٨٠) أن الأوروپيين كانوا يريدون أن يظهروا بمظهر كهنة المسيح بالكلمة التى ينشرونها، ولكن فى الواقع أثبتوا بأفعالهم أنهم كهنة الشياطين (ساليناس ١٩٩٠ : ١٠٨). ويستحقون هذا الحكم الذى أطلقه عيسى كما دونه متى :

«الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودًا، فإذا تهود جعلتموه أهلاً لجهنم ضعف ما أنتم عليه. الويل لكم أيها القادة العميان! تقولون: من أقسم بالهيكل، فقسمه عير ملزم، أما من أقسم بذهب الهيكل، فقسمه ملزم! أيها الجهال والعميان! أى الاثنين أعظم: الذهب أم الهيكل الذى يجعل الذهب مقدسًا؟ وتقولون: من أقسم بالمذبح، فقسمه غير ملزم، أما من أقسم بالقربان الذى على المذبح، فقسمه ملزم! أيها العميان! أي الاثنين أعظم: القربان أم المذبح الذى يجعل القربان مقدسًا؟ فإن من أقسم بالمذبح، فقد أقسم به وبكل ما عليه، ومن أقسم بالهيكل، فقد أقسم به وبالساكن فيه، ومن أقسم بالسماء، فقد أقسم بعرش الله وبالجالس عليه! الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تودون حتى عشور النعنع والشبث والكمون، وقد أهملتم أهم ما فى الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه ولا تُغفلوا تلك! أيها القادة العميان! إنكم تُصَفُّون الماء من البعوضة، ولكنكم تبلعون الجمل!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تنظفون الكأس والصَّحْفَة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع! أيها الفريسى الأعمى، نظف أولاً داخل الكأس ليصير خارجها أيضًا نظيفًا!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم كالقبور المطلية بالكلس: تبدو جميلة من الخارج، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة! كذلك أنتم أيضًا، تبدون للناس أبرارًا، ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار، وتقولون: لو عشنا فى زمن آبائنا لما شاركناهم فى سفك دم الأنبياء.

فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلى الأنبياء! فأكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل! أيها الحيات، أولاد الأفاعى! كيف تفلتون من عقاب جهنم؟ لذلك: ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين، فبعضهم تقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون فى مجامعكم، وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكى سفك على الأرض: من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم: إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.

يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء والكافرة بالمرسلين إليها! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم يريدوا! هذا بيتكم يترك لكم خرابًا!» (متى ٢٣ : ١٥ - ٣٨).

الانعكاسات اللاهوتية المعاصرة والكتاب المقدس

شهدنا خلال سبعينيات القرن الماضى نموًا ملحوظًا بين الهنود للحركات العرقية التى تنادى بحقوقهم، تطالب بحق التعبير، وحق التعريف بإرثهم الثقافى. ولم تكن هذه الظاهرة تعنى أمريكا اللاتينية فقط، بل انتشرت تقريبًا لدى جميع الشعوب التى أعادت النظر فى وضعها كشعوب قد تسيد عليها الآخرون. ومنذ بضع عشرات من السنين، تحولت كنائس أمريكا اللاتينية من كنائس موالية بدون شروط للنظم القائمة إلى كنائس تنتقد الأنظمة نقدًا لاذعًا. وأدى هذا التطور فى الموقف إلى دخولهم فى نزاع مع العديد من الأنظمة فى المنطقة، لا سيما مع الأنظمة العسكرية. وبالفعل، تصرفت هذه الكنائس بشكل أفضل وأكثر إيجابية من كل المؤسسات الأخرى لتبين عدم المساواة فى توزيع الثروات فى مجتمعات أمريكا اللاتينية (ليڤين١٩٧٩). وقد تعهد القساوسة ورجال الدين والعلمانيون بالدفاع معنويًا وبشكل قوى عن الشعوب الهندية؛ تصدرت كنائس أمريكا اللاتينية قائمة الحركة العالمية لعملية لاهوت التحرير (انظر هنلى ١٩٩٥). وإلى حد ما يمكن ربط هذا الموقف الجديد بالشعور بالذنب الذى يستحوذ على أى فرد ذى قيم أخلاقية عندما يحلل الوضع الاجتماعى للمظلومين. ويعتبر «لاس كاساس» مثلاً صارخًا لهذا الفكر الناقد، وهو أيضًا بطل بالنسبة لأصحاب لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، وذلك وفقًا لشهادة أهم معجبيه وتلاميذه القس

الهندى من پيرو «جوستاڤو جتييراز» الذى دائمًا ما يشيد به (١٩٩٣). كما ضم علماء الأجناس البشرية صوتهم لجماعات حماية المظلومين الذين لا صوت لهم (انظر أرزيپ ١٩٨٨ : ١٥٣).

وبالاعتراف بحقيقة الماضى الإمبريالى للمسيحية الأوروبية، يتعين على الذين بقوا على قيد الحياة من الهنود الحمر أن يتفادوا الوقوع فى هستيريا المراثى الأبدية، كما يتعين على ذرية الغزاة الأوروبيين أن لا يطوروا أيديولوچية عصبية بشأن اتهام أنفسهم. ولكن يجب سماع صراخ الفقراء الذين ماتوا من قبل، والذين يتمسكون بالحياة، بشكل واضح وقوى، ويجب إدماجهم فى الخطاب اللاهوتى (متز ١٩٩٠ : ١١٨).

وكتب «إجناشيو إلاكوريا» ـ أحد الچزويت الذين تم اغتيالهم فى السلڤادور ـ عن «الشعب المصلوب»: أمريكا اللاتينية (إلا كوريا : ١٩٨٩) والذى يجب إنزاله من على الصليب مثلما قال «چون سوبرينو» (١٩٩٠ : ١٢٥). ويشكل يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ فى فكر لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، بداية يوم جمعة مقدس طويل ودموى فى تاريخ أمريكا اللاتينية، وحتى اليوم، مع علامة صغيرة عن عيد الفصح (بوف وإليزوندو ١٩٩٠ : ٧). يمكن تلخيص الخطيئة الأصلية للاستغلال الاستعمارى كالتالى: «احتل الموت هذه القارة عام ١٤٩٢، موت البشر وموت البيئة وموت الروح وموت دين الهنود الحمر وثقافتهم» (ريشارد ١٩٩٠ (أ): ٥٩).

ولا يمكن مقارنة هذه الكارثة الإنسانية بأى أمر آخر فى تاريخ الإنسانية، و يجب أن نشير إلى الإبادة الجماعية التى تم ممارستها علىَ الشعوب الهندية فى جنوب «ريو جراند» (أمريكا اللاتينية و الكاريبى). وحتى إن لم يكن هناك اتفاق حول عدد سكان المنطقة [عند بداية الاستعمار] فإن هناك إجماعًا على أن الاستعمار الإسپانى أدى إلى نقص حاد وعام لشعوب المنطقة. وتثبت دراسات حالية أن عدد السكان كان يقدر بحوالى ١٠٠ مليون عام ١٤٩٢، لم يتبق منهم إلا ما يتراوح مابين ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة[١] وذلك عام ١٥٧٠ أى فى أقل من قرن. وفى الوقت ذاته ارتفع عدد مهاجرى شبه الجزيرة الإسپانية والبرتغالية بشكل سريع وثابت.

---

(١) تراوحت تقديرات عدد السكان ما بين ٨ : ١٠٠ مليون. انظر دراسة بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٩٨-١٢٤ حيث اختارا تقدير إجمالى عدد السكان للأمريكات ما بين ٣٥ إلى ٤٠ مليونًا (ص ٩٩).

وهناك دراسة حول السكان اهتمت بدراسة المكسيك الوسطى. ويقول «وودرو دبليو بورا» إنه كان هناك تراجع فى عدد السكان من ٢,٢٥ مليون نسمة عام ١٥١٨ إلى ٠,٧٥ مليون نسمة عام ١٦٢٢ (١٩٨٣ : ٢٦). وفى الواقع تتغير نسبة تراجع عدد الشعوب فى المناطق المختلفة للقارة، لكن وفقًا لجميع الدراسات كانت النسبة رهيبة فى كل القارة. وقد أصاب انتقال الطاعون والجدرى من أوروپا حوالى ثلث شعوب أمريكا الوسطى. وقد انهار شعب پيرو من ٩ ملايين عام ١٥٢٠ إلى ١,٣ مليون نسمة فقط عام ١٥٧٠ . وتم تسجيل نقص يتراوح من ٥٠ - ٨٠٪ فى كولومبيا وڤينزويلا والإكوادور (بوركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٠٠).

وأدت الحروب الوحشية إلى تدمير مجتمعات هندية وإبادتها بأكملها، بالإضافة إلى الأمراض وسوء المعاملة والسخرة، وكذلك الإبادة للأسر بالجملة. أما النساء، فقد وقعن ضحايا الاغتصاب وتم معاملتهن على أنهن وسائل لإشباع احتياجات حيوانية، وهذا الأمر مستمرٌ إلى اليوم(إسكيڤل ١٩٩٠). إن أسباب الإبادة الشاملة متعددة:

> **صاحب الاقتلاع من الجذور والتدمير الصراع العسكرى، كما أن سوء معاملة الهنود بإجبارهم على العمل وتعرضهم للمجاعات وسوء التغذية كنتائج تغيير طريقة الحياة، والكوارث الطبيعية التى دمرت المحاصيل الزراعية، بل وأيضًا الصدمة النفسية التى أثرت على إرادة البقاء على قيد الحياة وعلى التكاثر لدى الهنود؛ كل هذا أدى إلى تراجع عدد السكان. هذا بالإضافة إلى ظروف الحياة التى ساعدت على انتشار الأوبئة التى أتى بها الأوروپيون والأفارقة. وأكثر من أى سبب آخر، أدت هذه الأوبئة الجديدة التى لم يكن لدى الهنود مناعة ضدها إلى ارتفاع نسبة الوفيات بشكل مذهل (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٠١).**

ومن أهم الأمراض التى أودت بحياة الهنود نذكر الجدرى و الحصبة. وفى القرن الثامن عشر تحسن الوضع بفضل اكتساب الهنود لمناعة أفضل ضد الأمراض التى أتى بها الأوروپيون عند غزوهم للقارة واستقرارهم بها.

هذا كما تم استرقاق ١٠ ملايين أفريقى وجلبهم إلى أمريكا اللاتينية والكاريبى، منهم ٣ ملايين إلى أمريكا الإسپانية خلال الفترة الاستعمارية، و ٤ ملايين إلى

البرازيل [لحساب البرتغاليين] حتى عام ١٨٥٠ و٣ ملايين إلى الكاريبى المستعمرة من قبل الإنجليز والفرنسيين. والبعض يقدر أن عدد المُستَرقين كان يقترب من ٢٠ مليون عبد (ريتشارد ٩٩٠ (أ): ٥٩-٦٠). ويمكن تلخيص النمو الديموجرافى فى أمريكا اللاتينية فى الفقرة التالية:

خسرت الشعوب الهندية فى العالم الإسپانى ٩٠٪ من تعدادها، وحدث تحسن طفيف فى نهاية القرن السادس عشر. لم يصل عدد السكان إلى العدد الذى كان موجوداً قبل قدوم الإسپان إلى العالم الجديد إلا فى عام ١٩٠٨ . بينما ارتفع عدد الشعوب البيضاء بشكل سريع بفضل التكاثر وعلى الأقل حتى القرن السابع عشر بفضل الهجرة. وفى جزر الكاريبى والأراضى المنخفضة المجاورة، تم بشكل واسع استبدال العبيد السود بالعبيد المحليين بسبب الأمراض. (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤: ١٠٧-١٠٨).

تشكل الفقرة التالية التى تم استخراجها من «ليناجاس» شهادة نموذجية لقبيلة المايا التى ترثى الدمار الذى أصابها من وجهة نظر الضحايا:

> **بسبب هذا الزمن المجنون، بسبب هؤلاء القساوسة المجانين، نحن نعيش فى تعاسة، ويسببهم جاءت المسيحية لأن المسيحيين العظام أتوا بالإله الحق؛ إلا أن هذا كان بداية أحزاننا.**
>
> **- بداية إخضاعنا لنظام الضريبة**
>
> **- بداية القتال باستعمال الأسلحة النارية**
>
> **- بداية انتهاك القانون**
>
> **- بداية انتزاع كل شىء**
>
> **- بداية العبودية بسبب الديون**
>
> **- بداية الغرق فى الديون**
>
> **- بداية النزاعات التى لانهاية لها**

ـ بداية العذاب .

ـ وهكذا كانت بداية عمل الإسپان والقساوسة ، حيث كانت بداية تلاعب الزعماء والمدرسين والرجال الرسميين . . . .

ـ ولم يثر الشعب المسكين على ما أحس أنه العبودية .

ـ عدو المسيح على الأرض ، نمر الناس .

ـ وحوش الناس تمص دم الهنود .

ـ وسيأتى اليوم الذى ستصعد فيه الدموع إلى الله وستهبط عدالة الله وتضرب العالم (ريتشارد ٦٠ : ١٩٩٠) .

ولم يكن من الممكن تنفيذ هذه الإبادة الجماعية بدون لاهوت مناسب . وكل إبادة جماعية يبدو وراءها عنف لاهوتى (مايرز : ١٩٨٦) . لم يعتبر المستعمرون أن للسكان الأصليين وجوداً ، وذلك شبيه بحالات الاستغلال الاستعمارى الأخرى . ولكن بالنسبة للسكان الأصليين ، كان اكتشاف القارة والغزو شكلاً من أشكال الاحتلال ، الذى أدى إلى نفيهم واستبعادهم بشتى الوسائل ، الأمر الذى لا يزال مستمراً إلى اليوم .

الوضع الراهن

وبينما كان يتم التحضير للاحتفال بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا(١٤٩٢- ١٩٩٢) تجمع زعماء الخمس عشرة أمة من الهنود لعقد مجلس كاثوليكى عالمى فى كويتو بالإكوادور وأعلنوا :

لم يكن هناك اكتشاف أو تنصير مثلما تم الإعلان عن ذلك ، وإنما كان هناك غزو وكانت نتائجه :

(أ) الإبادة الجماعية التى تسببت فيها الحروب الاستعمارية ، والعدوى بالأمراض التى أتى بها الأوروپيون ، والموت بسبب الاستغلال الوحشى ، والتفرقة بين الآباء والأطفال ، مما أدى إلى انقراض ٧٥ مليوناً من إخواننا وأخواتنا .

(ب) اغتصاب أراضينا بالقوة.

(ج) تفكيك منظماتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية.

(د) إجبارنا على تبنى مبادئ أيديولوچية ودينية تتنافى مع معتقداتنا الدينية. (بيوزو ١٩٩٠ : ٧٩).

ويرى « بيوزو» أن السكان الأصليين كانوا ضحية عدة أشكال من الاحتقار والإهانة حيث يتحدث عن الإهانة السياسية و إهانة النساء واللغات المحلية والدين والإهانة المستمرة حتى اليوم، والتى تعانى منها حاليًا شعوب مثل شعب اليانومامى والذى يقول عنه:

هو شعب أصبح غريبًا فى بلده الأم، حيث تم الاستيلاء على أرضه وعلى تاريخه وعلى ذاكرته، واجه الموت بسبب الأمراض، والباقون على قيد الحياة يعاملون معاملة الحيوانات (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٢).

يصل حاليًا عدد السكان الأصليين فى أمريكا اللاتينية و الكاريبى إلى ما يقرب من ٧٠ مليون نسمة. ويشكلون فى جواتيمالا وبوليڤيا أغلبية السكان، بينما يشكلون فى الإكوادور و البيرو والمكسيك أغلبية السكان الريفيين والمهاجرين الذين يعيشون على حدود المدن الكبرى. أما فى البرازيل و التشيلى و الأرچنتين و السلڤادور وكوستاريكا فهم يمثلون أقلية مقهورة بقسوة (بيوزو١٩٩٠ : ٧٨). ويتم اضطهاد السكان الأصليين بطرق مختلفة فى جميع الدول تقريبًا، حيث يتم وضعهم (حبسهم) فى مخيمات، ويعانون من التمييز فى التعليم وفى الرعاية الصحية وفى السكن، كما يتم استغلالهم كلما أمكن ذلك. وتشهد الكنيسة أيضًا هذا التهميش لهؤلاء الهنود فى الممارسات الدينية. هذا ويطالب «ريتشارد» من الكنيسة أن تعترف بمسئوليتها فى الإبادة الجماعية التى مورست على السكان الأصليين، ويدعوها أن تكافح من أجل مساعدتهم على العيش بكرامة (١٩٩٠ (أ): ٦٤ – ٦٥).

يقول «سوبرينو»: «الوضع الاقتصادى لأمريكا اللاتينية رهيب. وفى نهاية هذا القرن، سيعيش ١٧٠ مليون شخص فى أمريكا اللاتينية فى فقر أليم، و١٧٠ مليونًا آخرين فى فقر مدقع على حدود الموت من الفقر» (سوبرينو ١٩٩٠ : ١٢٠). فأغلبية

شعـوب أمريكا اللاتينيـة على حافـة كارثة اقتصـادية . ومن السـهل أن نـرجع الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة إلى الاحتلال الأوروبى الأول. إن الوضع الراهن متأثر للغاية بالزيادة السكانية الضخمة التى وصلت إلى ٣٩٠ مليون نسمة عام ١٩٨٠ مقابل ٦١ مليـون فـقط فى ١٩٠٠ ، والتى ابتـعلت زيادة الإنتـاج وأفـرخت شـرور البطالة ، والأربعين مليـون طفل الذين تم التـخلى عنهم. ولكـن يمكن أن نتـتبـع فى التـاريخ الاستعمـارى لهـذه المنطقة ، جذور عدم المساواة والاستغلال والظلم الفريدة ، والتى تسم اليوم أمريكا اللاتينية .

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل تأثير الحكومات العسكرية التسلطية فى العديد من هذه الدول التى اعتمدت إلى وقت قريب على دعم رجال الدين . ولـم يكن أقل سوءاً التوقع اليـوتوبى فى ستينيات القرن الماضى ، بأن كل ما تحتاجه الشعوب هو المزيج ذو النسب الصحيحة بين الماركسية الروحية ، والتحليلات المعتمدة [على قوى خارجية] ، والنظرة الرؤيوية [النابعة من الكتاب المقدس] والتى تعبر عن طموحات الألفية . ويستند علماء لاهوت التحرير على الفرضية القائلة بأن هناك إمكانية السمو بالتاريخ وذلك بخلق نوع جديد من الإنسان ، هو نتاج ضمير جديد يرقى إلى قوة أعلى . والضمير الأعلى قادر على تخطى نقائص الحياة المادية التى هى نتاج الضمير الزائف للأجيال السابقة (انظر بايك ١٩٩٣ : ٤٦٣) .

ويصر «سوبرينو» قائلاً : إن الوعى بالواقع الحالى يسمح للمرء بتقدير حجم الخطيئة الأولى فى غزو القرن الخامس عشر . يمكن وصف ما جرى فى التاريخ وما أصاب الشعوب بشكل كامل باستعارة : «الشعوب المصلوبة» . أناشيد الخادم فى سفر إشعياء ، مع النظر للشعب المصلوب ، ويبقى أن نرى هل سيكون لأسطورة معاناة الخادم [العبد] تأثير أكبر فى تنظيم العالم من تقديس ثقافة النظام الجديد للأعمال [businesses]؟ .

دور الكتاب المقدس

لقـد رأينا أن الأمـريندين [الهنود الأمـريكيين] كـانوا ضـحـايا تجـاوزات شـديدة للإمبريالية الاستعمارية التى مارسها المستوطنون الأوروبيون ، الذين كانوا يستمدون سلطتهم من مزيج من السلطة الدنيوية ومن تشريع دينى يرجع إلى مسيحية القرون

الوسطى. وحتمًا تفرض الحجج الدينية نفسها فى مجتمع يدعى الحكم باسم الإله (مجتمع ثيوقراطى). ويرى بعض علماء اللاهوت (على سبيل المثال سيپولڤيدا) أن غياب الإيمان لدى الهنود والجرائم التى كانوا يرتكبونها ضد الطبيعة، تبرر احتلال أراضيهم، وأن غزو إسرائيل لأرض كنعان يُبرر استعمال الأسلحة ضد الهنود (انظر سفر التثنية ٩ : ٥ و١٨ : ٩-١٤ وسفر اللاويين ١٨ : ٢٤-٢٥).

ولقد رأينا أنه فى مقابل دعم الكتاب المقدس وعلماء اللاهوت المسيحيين للاحتلال الأوروپى، كانت هناك أصوات وآراء معارضة لحججهم وتأويلاتهم. والأمر المهم عند دراستنا للتأملات اللاهوتية حول عمليات استغلال أمريكا اللاتينية، هو معرفة هل يقف الرب إلى جانب الهنود المساكين الذين تم استغلالهم، والذين يصفهم «جوامان پوما» وهو هندى من الپيرو بمساكين المسيح (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٥)، أم مع المستغلين والمحتلين المدمرين؟! ووفقًا لـ «پوما»، ليس هناك شك بأن جميع الإسپان سيذهبون إلى الجحيم بسبب سوء معاملتهم للهنود وتعذيبهم لهم (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٧). وعندما زار البابا «يوحنا بولس الثانى» الپيرو مؤخرًا، تسلم رسالة مفتوحة من الحركات الوطنية المختلفة جاء فيها :

> **البابا يوحنا الثانى : نحن الأنديين والهنود الأمريكيين، عقدنا العزم على أن نعيد إليكم كتابكم المقدس؛ لأنه طوال خمسة قرون لم يقدم لنا الحب والسلام والعدل، نرجو أن تأخذوا كتابكم المقدس وأن تعيدوه إلى مضطهدينا لأنهم بحاجة إلى تعاليمه الأخلاقية أكثر مما نحتاج إليها نحن، فمنذ أن جاء «كريستوفر كولومبس» فرض ثقافة أوروپا وديانتها ولغتها بالقوة، وكان الكتاب المقدس السلاح العقائدى لهذه الهجمة الاستعمارية، حيث جاء كجزء من التغيير الذى فرضه الاستعمار. وأصبح السيف الإسپانى الذى هاجم أجساد الهنود وقتلها فى أطراف النهار وآناء الليل كالصليب الذى هاجم روح الهنود. (ريتشارد ١٩٩٠ (أ): ٦٤-٦٥).**

ويعتقد «ريتشارد» أن المشكلة لا تكمن فى الكتاب المقدس، وإنما تكمن فى الطريقة التى تم بها تفسيره (١٩٩٠ (أ): ٦٦). ويتمثل دور الشعوب والسكان الأصليين فى إعادة تأويل الكتاب المقدس بشكل يحرر التأويل القديم وبشكل يتناسب مع النظرة

المحلية. إن مثل هذا التأويل الذى يعتمد على وعى البرازيلى «پاولو فرير» يجب أن يعترف بالأهمية الرئيسية للتجربة الأولى [تجربة الهنود]. إن تاريخ السكان الأصليين وتكوينهم وحياتهم وثقافتهم هو أول كتاب من كتب الله، أما الكتاب المقدس فهو الكتاب الثانى لله الذى أعطاه للمؤمنين حتى يستطيعوا قراءة الكتاب الأول. هذا كما يتعين على السكان الأصليين أن يقوموا بأنفسهم بتأويل الكتاب المقدس. وتم تطبيق مثل هذا البرنامج بالفعل فى المجتمعات المسيحية. وتم وصف هذه الطريقة فى دراسة عميقة وشاملة قامت بها إحدى المجلات تحت عنوان: «قراءة شعبية للكتاب المقدس فى أمريكا اللاتينية : تأويل التحرير». وتحمل المجلة اسم مجلة «تأويل الكتاب المقدس» (سان خوسيه : كوستاريكا، ١٩٩٨،رقم ١).

هذا كما تناول «لييف ڤاج» (١٩٩١) الحدود المشتركة بين الكتاب المقدس و الكفاح الاجتماعى فى أمريكا اللاتينية، على خلفية مضادة لاستخدامه كأداة للاضطهاد فى المنطقة. ويعمل (مركز دراسة الكتاب) فى البرازيل على ثلاثة التزامات حاسمة: الانطلاق من الواقع مثلما هو متصور، قراءة الكتاب فى جماعات، الالتزام بالنضال من أجل التحول الاجتماعى والسياسى، وذلك بقراءة الكتاب المقدس. وهكذا يصبح المتخصص فى الكتاب خادمًا مدعوًا للعمل وفقًا لخيار الجماعة. ويجب على هذا المتخصص أن يدرس الكتاب ويؤوله من وجهة نظر الفقير والمضطهد. وعلى ظاهر التناقض، استعمل المدافعون عن حقوق الأمريندين التقاليد النبوئية للكتاب وتعاليم عيسى كعوامل للتحرير، برغم استخدام التقاليد القتالية للعهد القديم كأداة اضطهاد وقمع من قبل الغزاة. ويسعى التأمل اللاهوتى الحالى إلى الرجوع إلى مواضيع الكتاب التى تشير إلى التحرير. ويدعو إلى إعادة قراءة الكتاب لكن من وجهة نظر الفقير المضطهد وتحريره، وبالتأكيد على تطبيق الممارسة أكثر من التركيز على قراءة نصية غير عابئة بالواقع. فى هذا التناول المبنى على العمل، من المهم جدًا تأويل الحياة بالتوافق مع الكتاب المقدس بدلاً من الوقوف عند تأويل نص الكتاب (بوف وبوف ١٩٨٧ : ٣٣-٣٤). إلا أن الكتاب غامض عندما يتعلق الأمر بالتحرير. وسنرى عند الإشارة إلى الخروج من مصر من جهة، والدخول فى أرض كنعان من جهة أخرى، أن المصطلح الكتابى يبرر أعمال الغزاة، أكثر مما يخدم تحرير المضطهدين.

ولكن لنغير المكان والزمان لنفحص كيف شكل الكتاب المقدس واللاهوت المسيحى دعامة لتطور القومية الأفريقانية في جنوب أفريقيا. وسنلاحظ تطوراً في استغلال النموذج الكتابى. وبينما استعمل الكتاب المقدس كأداة للتبرير، وعلى العكس أيضًا لإدانة الاستعمار الإسپانى والبرتغالى، حين كان المشروع الاستعمارى قيد التطور، فسوف نرى في حالة الاستعمار والقومية الأفريقانية كيف تم استغلال نموذج (الخروج - الاستيطان) ليس فقط لتبرير الاستعمار، ولكن كداعم أبدى لـ «التنمية المنفصلة». وليس أقل ظهوراً في التناقض عن حالة أمريكا اللاتينية، استعانت أيديولوچية رفض القمع بالكتاب المقدس بحثًا عن أدلة تدعمها.

* * *

الفصل الثالث

الاستعمار وجنوب أفريقيا

لعن كنعان ومباركة سام

واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمر فسكر وتعرَّى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عُرْى أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجًا. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقرى إلى داخل الخيمة، وسترا عرى أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عُرْيه.

وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: «ليكن كنعان ملعونًا، وليكن عبد العبيد لإخوته». ثم قال: «تبارك الله إله سام. وليكن كنعان عبدًا له. ليوسع الله ليافث فيسكن فى خِيام سام. وليكن كنعان عبدًا له».

[التكوين ٩: ٢٠ – ٢٧]

سنرى أن الكتاب المقدس و علم اللاهوت المسيحى قد أثرا بشكل واضح على تطور الاستعمار الأفريقانى[1] والقومية الأفريقانية، وقدما تبريرات من الماضى لذلك. فقد دافع أغلبية رجال اللاهوت الإصلاحيين من الهولنديين فى جنوب أفريقيا مابين ١٩٣٠ - ١٩٦٠، وهى فترة تطبيق سياسة الأپارتهايد (التمييز العنصرى) - بشدة عن هذه النظرية، حيث استندوا بشكل خاص على سفر التثنية (دايست ١٩٩٤). وبالطبع لم يكن تفسير الكتاب المقدس العامل الوحيد، بل ولم يكن العامل الأهم الذى استُعمل لتبرير الأپارتهايد؛ فقد تأثر التحول الاجتماعى بمجموعة من العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية. وبعرض التطورات الأساسية للتاريخ الأفريقانى، سنرى كيف تم تركيب بعض مظاهر السيناريو التاريخى فى وقت من الأوقات كعوامل تشكيل أسطورة الأصول التى تم حبكها؛ التى تؤسس تبرير بعض الأعمال باللجوء إلى تفسير كتابى ولاهوتى يتماشى بشكل أفضل مع الأيديولوچية السياسية الأفريقانية. وفى نهاية هذا الفصل، سأناقش صلاحية استعمال أسطورة الأصول وفقًا لوجهة نظر مكتسبات البحث التاريخى والعلمى، كما سأدرس التأكيدات اللاهوتية وأعيد النظر فيها، على ضوء الاعتبارات الأخلاقية.

تاريخ البوير[2]

تتداخل التحديات اللاهوتية و الكتابية دائمًا فى سيناريو معقد مع العناصر السياسية والاجتماعية، و بالتالى من الأوضح دراسة الصورة الكاملة منذ البداية. ونلاحظ أن العوامل اللاهوتية والكتابية لم تكتسب أهمية إلا فى العصر الحديث مع صناعة القومية

(١) الأفريقان هم المستوطنون الهولنديون ومعهم بعض الألمان والفرنسيين فى جنوب أفريقيا - المترجمة.

(٢) البوير هم من أصول هولندية أو ألمانية أو فرنسية عاشوا فى جنوب أفريقيا، وأغلبهم من أصل هولندى. وكلمة بور فى أصلها الهولندى معناها فلاح. إذن هم الأوروبيون المستوطنون الذين يسمون أيضًا الأفريقان، وهو مصطلح مختلف بالطبع عن الأفارقة - المترجمة.

الأفريقانية. وليس من الصعب تقديم الحجج لنوضح موقف الكتاب المقدس والأفكار اللاهوتية فى الخطاب العام. ولكن على الرغم من محاولة بعض علماء اللاهوت إعطاء الانطباع بأن العنصر الدينى كان محور كل مرحلة، لا نجد أى دليل قاطع ومقنع لهذه النظريات فى عدد كبير من مراجع الأپارتهايد (انظر مثلاً فى المراجع القليلة عن العوامل اللاهوتية لدى كالى ١٩٨٧). فالمنهج النظرى الذى يوضح أفكاراً كتابية ولاهوتية دون أن يرجع للسياق الاجتماعى الموسع، يعد بلا شك منهجًا سطحيًا. وسأعرض الآن ملخص الأحداث الهامة للقومية الأفريقانية مبتعداً بذلك عن العناصر المصطنعة على أساس الأسطورة الأفريقانية[١].

فى عام ١٦٥٢، قام مسئولو شركة الهند الشرقية الهولندية، وهى مؤسسة تجارية لاستعمار جنوب أفريقيا، بإنشاء مستعمرة صغيرة فى رأس الرجاء الصالح؛ وكان الغرض من إنشاء هذه المستوطنة فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت، هو تأسيس قاعدة لتقديم الخدمات للسفن التابعة للشركة والمتوجهة إلى الشرق الأقصى. وفى سنة ١٦٨٨م، التحق ٢٠٠ من الهوجونو (الپروتستانت) الذين فرّوا من الاضطهاد الدينى فى فرنسا بهؤلاء المستوطنين الأوائل. وفى بادئ الأمر، كانت علاقتهم حميمة مع السكان الأصليين «الخوى خوى ـ khoi khoi»، والذين أطلق عليهم النزلاء الجدد اسم «هوتينتوتس» و«سان»، ولكنها سرعان ما توترت بعدما بدأ المهاجرون فى التسيد. وبعد بعض المعارك عام ١٦٥٩و ١٦٦٠، انتصر البيض بسهولة على «الخوى خوى» الذين كانوا رعاة ماشية، إلا أن بعض قبائل «سان» واصلت دفاعها عن نفسها الذى استمر حتى القرن التاسع عشر. وفى عام ١٧٩٥ قامت فرقة بريطانية حربية باحتلال الكاپ، ثم تم إعادته للهولنديين عام ١٨٠٣، لكن استعادته القوات البريطانية مرة أخرى عام ١٨٠٦.

وفى عام ١٨٠٠ نزع البيض جميع الأراضى من «الخوى خوى» الذين أصبحوا معتمدين بشكل شبه كامل عليهم. وأنشأ البيض مجالاً لهم فى القرن التاسع عشر، لا يُسمح للسود بدخوله إلا بإذن الرجل الأبيض. وبرغم أن الهولنديين كانوا يتكلمون

---

(١) كل العرفان لزميلى الدكتور «ألان ليستر» الذى سمح لى بالخوض بشكل موسع فى دراسته الرئيسية (١٩٩٦).

نفس اللغـة ، ويدينون بنفس الديانة ، ولهـم نفس المصـالح ، مع الوعى الذاتى بمسـألة اللون ، إلا أنهم لم يكن لديهم وعى قومى ؛ حيث كانوا يشكلون مجموعة مستوطنين يعيشـون فى بيئة مستعمرة معادية نسبيًا ، أكثر من أمة فى طريق التكوين (ليستر ١٩٩٦ : الفصل الأول) . ومنذ القرن التاسع عشر ، امتلك البيض الأراضى على حساب السكان الأصليين الذين تم انتزاع أراضيهم وترحيلهم عنها .

وقد وضع اللورد « سومرسيت» محافظ الكاپ من ١٨١٤إلى ١٨٢٦ ، سياسة جعل كل شيء إنجليزيًا . وكان الأوروپيون يتبنون نفس المواقف المتعصبة والمتشددة التى كان يتبناها الأوروپيون المستعمرون فى العالم الجديد[الأمريكات] . وألغت بريطانيا تجارة الرقيق بحلول عام ١٨٣٤م ، ويقول المؤرخون المتأخرون إن السبب الرئيسى لحرب البوير كان عدم تعويض بريطانيا لأصحاب العبيد ، وليس إبطال الرق نفسه .

وهاجر حوالى ١٥٠٠٠ من البوير من المستوطنة عام ١٨٣٦ باتجاه الشمال والشرق حتى يبدءوا مشروعهم بعيدًا عن سيطرة الإنجليز[١] . وتحدث علماء التاريخ فيما بعد وأكدوا أن سبب النزوح الكبير كان سوء معاملة البريطانيين للأفريقان : «لم تقم السياسة الجديدة على حب الزنوج ، و إنما حقد الإنجليز واحتقارهم للبوير» (ريتز : ١٩٠٠ : ٩٢ فى موودى ١٩٧٥ : ٣) . وبعد عدة نزاعات ، انتهى الأمر بالبوير بالاستقرار سلميًا فى ناتال ؛ حيث أسسوا جمهورية . وعندما ضم الإنجليز ناتال ، هاجر عدد من البوير من الجمهورية واستقروا فى الجمهوريات المشكلة من قبل فى ولاية الأورانچ الحرة وجمهورية الترانسڤال .

نشأة القومية الأفريقانية

وفى سبعينيات القرن التاسع عشر ، كانت شبه القارة مقسمة إلى عدد كبير من الكيانات السياسية البارزة ؛ وعندما ضم الإنجليز جمهورية الترانسڤال عام ١٨٧٧ ، قام

(١) لعبت المصطلحات دورًا فعالاً فى تقييم حركة الهجرة هذه . فقبل سبعينيات القرن التاسع عشر ، ترك البوير مستوطنة الكاپ فى الثلاثينيات والأربعينيات وكان يطلق عليهم اسم المهاجرين أو اللاجئين أو النازحين . وعندما كانوا يستقرون فى مكان محدد ، كان يطلق عليهم اسم الرواد . وفى نهاية الستينيات ، بدأ يطلق اسم الرواد على البوير الذين رحلوا من الكاپ ما بين ١٨٣٦ و١٨٥٤ ، وأخيرًا تبنى هذه التسمية جميع الأفريقان فى نهاية القرن . وفى هذه الفترة أصبحت الهجرة عنصرًا أساسيًا فى تاريخ جنوب أفريقيا ، ومنذ ذلك الحين أصبحت حركتهم قصة شعبية بطولية فى تاريخ جنوب أفريقيا ، وأطلق عليها الأفريقان وبعض المتكلمين بالإنجليزية فى جنوب أفريقيا «النزوح الكبير» (إل . تومپسون ١٩٨٥ : ١٧٣) .

البوير بثورة. وكانت هذه الثورة بداية أولى الحربين بين الإنجليز و البوير (١٨٨١-١٨٨٢). وقد تجمع الناس فى «پارديكرال» يوم ١٦ ديسمبر ١٨٨٠ ليجددوا عهدهم مع السيد المسيح (دى پليسيس فى موودى ١٩٧٥ : ٧ - ٨). كان الاهتمام المتزايد الذى توليه إنجلترا لهذه المناطق يرجع بدرجة كبيرة إلى اكتشاف مناجم هامة من الماس والذهب (١٨٨٦ - ١٨٨٧)؛ حيث كانت تشكل مصالح كبيرة للبيض لاسيما للإنجليز (إل. تومپسون ١٩٩٥ : ٢١).

ومنذ ١٨٧٠ وحتى نهاية القرن، أكملت الفرق البريطانية و المليشيات الاستعمارية وفرق البوير المسلحة، من خلال العمل المشترك، غزو الأفارقة السود. وكما أن لدى الإنجليز - مثلهم مثل البوير - إحساسًا بالأعلوية على السود، مبنيًا على انتمائهم إلى جنس متحضر وإلى ديانة شريفة، فإن مثل هذا التبرير كاف - وفقًا لهم - لامتلاك الأراضى واستغلال اليد العاملة وإخضاع السود. وقد عرفت مجموعتا البيض، الإنجليز والبوير، كيف توقفان معاركهما وخلافاتهما لتطويع الأفارقة السود.

إلا أن الجمهوريين البوير رفضوا مشروع إنجلترا للسيطرة على جنوب أفريقيا وإنشاء اتحاد خاضع للتاج البريطانى، مما أسفر عن اشتعال الحرب الثانية بين البوير والإنجليز، من ١٨٩٩ إلى ١٩٢٠. وبحلول عام ١٩٠٠، أصبحت ولاية الأورانچ الحرة والترانسڤال أراضى بريطانية. وأمام موت الآلاف منهم، من بينهم ٢٦٧٣٠ امرأة وطفل فى معسكرات الاعتقال البريطانية، مع انعدام الأمل فى وضعهم، استسلم البوير. وتنص معاهدة «ڤيرنيجينج» عام ١٩٢٠ على استسلام البوير وإدماجهم فى الإمبراطورية البريطانية. ورغم الهزيمة، نجح الشعور المتصاعد لتحقيق وحدة البوير ضد عدو قوى مثل إنجلترا فى تعزيز القومية الأفريقانية.

وأدى العمل فى المناجم إلى تغير ظروف عمل اليد العاملة السوداء؛ وفى عام ١٨٩٩، بلغ عدد العاملين السود فى مناجم الذهب ١٠٠٠٠٠ عامل. وكان السود يعيشون فى أحياء متفرقة. وتدريجيًا رفض البيض الذين يقطنون بالمدن وجود السود الذين كانوا يشكلون تهديدًا على مكتسبات الحضارة البيضاء وتهديدًا لنظام التمييز العنصرى القائم. وفى عام ١٩١٠، صدر قانون الاتحاد الذى نص على تكوين اتحاد جنوب أفريقيا، ومقاطعاته هى الكاپ و ناتال و الترانسڤال وولاية الأورانچ الحرة -

وهو اتحاد يسيطر عليه البيض، ويحكمه البريطانيون ـ وتم تطبيق التمييز العنصرى رسميًا بدعم من الإدارة البريطانية والزعماء الأفريقان. وبموجب قانون الأرض عام ١٩١٣، تم منع السود من البقاء على الأراضى التى يمتلكها البيض إلا إذا كانوا مقيمين كعمال مأجورين.

وفى عام ١٩١٤، أنشأ الچنرال «هيرتزوج» أول حزب وطنى أفريقى والذى أسس لنموذج اتحاد جنوب أفريقيا ذى التيارين [الأبيض والأسود]. وتم تشكيل رابطة الإخوة الأفريكانر فى ١٩١٨ كطلائع للقتال فى سبيل جعل جنوب أفريقيا أفريقانية؛ ووفقًا لدراسة «بلومبرج» (١٩٩٠)، كان أعضاء الجماعة من البروتستانت الذين تعاهدوا على فكرة أبدية أمة أفريقانية منفصلة، والتى دعا إليها الله، لتنشأ ثابتة على التراث التاريخى للمسيحية، ، والقانون المقدس لله (موودى ١٩٧٥ : ١٠٣ - ١٠٤).

وفى عام ١٩٣٤، شكل «دانيال ف. مالان» الحزب الوطنى «المطهر» والذى يرى أن مصير جنوب أفريقيا هو أن تصبح جمهورية مستقلة عن التاج الملكى. وكان يدعو إلى القومية المسيحية على عكس التطور العام فى أوروپا: «أنزل عصر التنوير الله عن عرشه، أما إيمان الأفريقان فقد تَوَّجَهُ ملكًا وراعيًا على جمهوريتنا» (بلومبرج ١٩٩٠: ٢٨). وكان هذا هو مبدأ الحزب الوطنى وأصله؛ فقد كان يدافع بكل صرامة عن مبادئ القومية المسيحية، ألا وهى تعليم مبنى على التفرقة وفقًا للغة الأم والتمييز الشديد بين البيض والسود وإقامة دولة جمهورية. وكان «مالان» ـ الذى كان قسًا سابقًا ـ أول رئيس وزراء (١٩٤٨ - ١٩٥٤).

وكانت أسس سياسة الأپارتهايد (الفصل العنصرى) قائمة بالفعل فى الفترة ما بين ١٩١٠ - ١٩٤٨. وفى بداية القرن العشرين، كان تفوق البيض على السود مبنيًا على عنصرية علمية داروينية فجة. كما كان الفصل (العزل العنصرى) يعتبر عاملاً فعالاً ضد أى تعبئة مضادة محتملة من قبل العمال الأفارقة. وكان تحديد إقامتهم فى محميات وسيلة للسيطرة الاجتماعية. وتمت الموافقة على قانون «الأهالى ـ Natives» عام ١٩٢٣ ثم لحقته عدة قوانين أخري، والتى كانت تسمح للسود بأن يعملوا فى المدن لكن بأعداد قليلة؛ حتى لا يتم إزعاج السادة البيض.

ووفقًا لمصادر مختلفة، فقد يرجع تطور القومية الأفريقانية فى الثلاثينيات، إلى الوضع المأساوى لعمال المدن البيض، الذين كانوا يعانون من التمييز بسبب سيطرة الرأسمالية الإنجليزية (وهذه وجهة نظر ماركسية)، وهناك من يُرجع تطور هذه القومية إلى تطور الهوية والثقافة الأفريقانية، والتى كانت تعكس اختلافًا فى اللغة والدين والتاريخ بين الإنجليز والأفريقان (وهذه وجهة نظر ليبرالية). كذلك لعبت عوامل كتابية ولاهوتية - بشكل خاص - دورًا فى هذه العملية. وفى الواقع، من الواضح أن أى تغيير ثقافى مهم فى أى مجتمع يرجع إلى تضافر عدة عوامل، أيديولوچية ومادية، وحتى إلى عامل المكان مثلما يصر «ليستر». وقد أسهم فى ذلك كل من التجارة والتصنيع والهجرة إلى المدن الكبرى (ليستر ١٩٩٦ : الفصل الثالث).

كان التشريع المتطرف بشأن الأپارتهايد الذى تم إقراره بقدوم الحزب الوطنى إلى الحكومة عام ١٩٤٨ يطبق سياسة عملية پراجماتية وملتوية لدعم أيديولوچية الحركة القومية الأفريقانية. وكان فكر الحزب يقوم على الحفاظ على مجتمع انفصالى يتناسب مع المبادئ السياسية والدينية للأفريقان، حيث تتملكهم الفكرة الملحة للنقاء العرقى وتحسين النسل، والحفاظ على الهيمنة السياسية و الامتيازات الاقتصادية للبيض فى مواجهة تهديد التحضر والتطور الاجتماعى للسود. وكان الحزب الوطنى يريد أيضًا أن يتمتع الأفريقان بالمساواة، بل وأيضًا بالهيمنة على من يتكلمون الإنجليزية (ليستر ١٩٩٦ : ١٠٧).

كما يستند التبرير الأيديولوچى للأپارتهايد أيضًا على الدراسات التى قام بها عالم الأجناس البشرية «دبليو . دبليو . إم . إيسلين» الذى أكد أن التفرقة بين الأجناس البشرية هى الحل الوحيد، لكن يجب تطبيقها بشكل صريح و صادق وبنَّاء. وبالأخذ فى الاعتبار أن الأفكار العنصرية الفجة للداروينية الاجتماعية لن تقبل فى الخمسينيات من القرن العشرين، لجأ «إيسلين» وتلاميذه إلى مصطلح تفوق ثقافة عالية على أخرى بدلاً من تفوق جنس على آخر ،ليطالب بتطور يفصل بين الأجناس البشرية. وكان دور الأپارتهايد هو ضمان حماية الهوية الثقافية لكل مجموعة، فكل كيان عرقى يتعين عليه أن يحافظ على مقوماته بما فى ذلك: لغته وديانته وتقاليده. وعرفت الكنيسة الإصلاحية الكبرى فى هولندا كيف تؤدى دورها جيدًا لتحويل مسألة الفصل العنصرى

إلى حملة أخلاقية صليبية ، فأقرَّ المؤتمر السنوى للكنيسة عام ١٩٥٠ سياسة فصل تامة بين البيض والسود . هذا رغم أن الأپارتهايد الذى كان يعبر عن أيديولوچية عنصرية صارخة أصبح أكثر فأكثر لا يتناسب مع تطورات العصر . ونظراً للمساندة الكبيرة للأفريقان لهذا الفصل العنصرى ، لقى الأفريقان معارضة ونقداً لاذعًا من الحركة الدولية ضد الاضطهاد العنصرى والمعارضة الأفريقية والتى كان من أبرز ممثليها المؤتمر الوطنى الأفريقى (ANC) الذى تم إنشاؤه عام ١٩١٢. وأدى تفاقم الأوضاع داخل هذا الحزب إلى انقسامه؛ وتأسس حزب أكثر تطرفًا هو حزب الوحدة الأفريقية (PAC) .

أدى قانون تعليم البانتو عام ١٩٥٣ إلى إغلاق أغلب مدارس الكنائس ، ووضع مكتب شئون السكان الأصليين مقررات دراسية تؤيد الأپارتهايد . ولكن كانت هناك فجوة كبيرة بين تاريخ الرجل الأبيض والحقيقة كما خبرها الآخرون؛ الأمر الذى أدى بالمدرسين الملونين إلى استعمال نصين أثناء تدريسهم فى خمسينيات القرن العشرين ، فالأول نص يتناوله الامتحان ، والثانى «الحقيقة» (إل . تومپسون ١٩٨٥ : ٦٧ ـ ٦٨) . أما منهج التاريخ ، فكان يركز على الوحى بالاختيار الإلهى لانفصال الأمم ، مما يعكس القيمة الجوهرية للقومية المسيحية .

وتم تطبيق المرحلة الثانية من الأپارتهايد تحت إدارة رئيس الوزراء «ڤيرورد» من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٦ بعد أن اتحد بشكل قوى مع رابطة الإخوة . وشهدت الستينيات البدء فى برنامج طموح ، عديم الرحمة ، لهندسة التغيير الاجتماعى الذى حرم أغلبية الأفارقة من حق المواطنة فى جنوب أفريقيا ، ثم أخرج ٣,٥ ملايين أسود بالقوة من المناطق المزعوم أنها للبيض ، لنفيهم فى مخيمات عرقية تحت اسم أرض الوطن (پوزيل ١٩٩١ : ١) . والأمر الذى يدعو للسخرية أنه فى الوقت الذى تم فيه إعطاء طابع مؤسسى للهيمنة العنصرية فى جنوب أفريقيا ، كان العديد من دول القارة يشهد استقلاله وحريته ، وكان يتم وصف انتشار هذه المجمعات العنصرية على أنها شكل من أشكال إزالة الاستعمار والاعتراف بالهوية والجنسية الأفريقية المستقلة (ليستر١٩٩٦ : ١٩ - ١٢٦) . و كانت الأراضى التى يحاصر فيها السود [أراضى الوطن المزعومة] فقيرة للغاية ، ودائمًا تخضع لسيطرة حكومة جنوب أفريقيا بدرجة لا تسمح بالاعتراف بها

من قبل أى حكومات معتبرة، باستثناء جنوب أفريقيا طبعًا (انظر ليستر ١٩٩٦ : ١٢٩). وكان الهدف الحقيقى للأفريقان هو جمع السود فى جيتوهات خارج المناطق الحضرية، والسماح لهم بدخول المناطق الحضرية وفقًا للضروريات التى يحددها البيض.

وأدت سياسة «ڤيرورد» إلى موقف معقد للغاية، انتهى بمذبحة راح ضحيتها ٦٩ أفريقيًا فى «شاربڤيل» وهم مناضلون فى الحملة ضد منعهم من المرور. وأسفرت هذه المذبحة وعمليات استبعاد المعارضين عن أزمة على المستوى الدولى، الأمر الذى أدى إلى انسحاب جنوب أفريقيا من الكومنولث، وإعلان قيام الجمهورية عام ١٩٦١. وبعد أن أدانت الأمم المتحدة الأپارتهايد عام ١٩٦٣، تم فرض حظر الأسلحة الذى أسهم فى انعزال اقتصاد جنوب أفريقيا.

عبَّر رجال دين لهم شأنهم فى الكنائس الأفريقانية عن اعتراضهم على العواقب الاجتماعية للفصل العنصرى، مثلما تجلى فى «كوتيسلو» فى ديسمبر ١٩٦٠. ومع هذا سعت رابطة الإخوة إلى تنصير الجمهورية وذلك بالتعريف بالجانب الإيجابى للتطور المبنى على الفصل العنصرى. وكان أعضاء الحكومة وعمداء المجتمعات ونصف مديرى المدارس والمفتشون، بالإضافة إلى ٤٠٪ من وزراء الكنيسة الإصلاحية الهولندية، كلهم أعضاء فى الرابطة؛ وكانوا كلهم يدافعون عن مبادئ القومية المسيحية.

ولكن فى أواخر السبعينيات، أصيب نظام الفصل العنصرى بضربات قاضية. وكان «پى. دبليو. بوتا» الذى أصبح رئيسًا للوزراء فى عام ١٩٧٨ يأمل فى النجاح فى إنقاذ النظام وذلك بتعديله. إلا أن المعارضة السوداء كانت تهدد بالقيام بثورة عامة وأخرجت الجيتوهات عن السيطرة. وقد مرت مساندة اللاهوت للأپارتهايد بتغيير كبير عند الإعلان يوم ١٣ سپتمبر ١٩٨٥عن «وثيقة كايروس ـ Kairos document» بفضل مساهمة ٥٠ عالم لاهوت من سويتو وما حولها. ومثلما هو الأمر بالنسبة للفكر اللاهوتى بشأن تحرير أمريكا اللاتينية، فنقطة انطلاق هذا التفكير اللاهوتى كانت تجربة السود المساكين.

وبعد الأزمة القلبية التى أصابت «بوتا» فى ١٩٨٩، تسلم «دى كليرك» مقاليد حكم الوزارة على أساس برنامج إصلاحى سمح برجوع المؤتمر الوطنى الأفريقى (ANC)

وحزب الوحدة الأفريقية (PAC) والحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا، بالإضافة إلى تحرير السجناء، و منهم «والتر سيسولو» و«نيلسون مانديلا» فى فبراير ١٩٩٠.

وفى فبراير ١٩٩١، تم إلغاء سلسلة من القوانين، مما وضع نهاية للطابع الرسمى للأپارتهايد. ثم تبع ذلك التفاوض مع أحزاب السود، و أخيراً الانتخابات التاريخية عام ١٩٩٤ التى غيرت واجهة جنوب أفريقيا السياسية. وأصبح «نيلسون مانديلا» رئيساً للجمهورية، و أصبح «كليرك» أحد نواب الرئيس، أما الزعيم «مانجوسوثو بوثلزى» فأصبح رئيساً للوزراء لمنطقة كوازولو / ناتال، ووزيراً للداخلية.

وجعل نظام الفصل العنصرى من جنوب أفريقيا الدولة التى عانت أكثر من غيرها فى العالم من عدم المساواة، حيث يعيش ثلثا السود تحت خط الفقر، و٩ ملايين من السكان فى حالة احتياج تامة. هذا كما يعيش ٦٠٪ من السكان فى حالة حرمان تام، و٥٥٪ منهم أميون و ٤٠٪ بدون عمل (ليستر ١٩٩٦ : ٢٤٠). ويخفف د. «مالان» ـ على عكس الحقيقة ـ من خسارة الشعب الأفريقى من جراء الحلم الأفريقانى قائلاً: «يثبت تاريخ الأفريقان الإرادة والصمود اللذين يعطيان شعوراً بأن مملكة الأفريقان ليست من عمل الإنسان و إنما من خلق الله» (تم ذكره فى موودى ١٩٧٥ : ١) [أى بتذكر الأفارقة للكابوس الذى عاشوا فيه].

صناعة أسطورة القومية الأفريقانية المبكرة

بدأت الهوية والقومية الأفريقانية تطوراتها الأولى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفى العادة تسترجع المجتمعات الوطنية أو الدول تاريخها، أو حتى تصنعه، لترتب أحوالها وطموحاتها. وعندما يكون هذا التاريخ الحقيقى غير معروف بشكل كاف، أو عندما يكون به حقائق لا تناسب بناء الهوية القومية، يتم وبكل سهولة خلق الوقائع والأحداث المتعلقة بالماضى وفقاً للأيديولوچية، كما يتم خلق أساطير متعلقة بالأصول. هذا ما فعله الأفريقان الذين نسبوا لأنفسهم ماضياً، وفى محاولتهم لبناء تاريخهم، حفروا فى عدة عقود من الماضى جذور هويتهم وقوميتهم التى لم تكن ترجع فى الواقع إلا إلى نهاية القرن التاسع عشر.

و كان على الهوية القومية الأفريقانية الناشئة أن تفرض نفسها لمواجهة التهديد المزدوج للإمپريالية البريطانية وهيمنتها على الاقتصاد، ولمواجهة الوضع الذى لا تحسد عليه الأقلية فى وسط شعب أغلبه من الأفارقة السود. ولمواجهة هذا التهديد المزدوج، قام المفكرون الأفريقان ورجال السياسة و الكتاب و أعضاء الكنيسة بخلق أسطورة محفزة؛ حيث أكدوا أنه عند وصول الهولنديين إلى الكاپ عام ١٦٥٢، وجدوا فقط بعض قبائل السود الرحل، والذين وصلوا إلى الكاپ منذ فترة قصيرة. وأعطى هذا الوضع للهولنديين حقّا أكبر فى الأراضى من هؤلاء السود. وأضافوا قائلين إن السود رفضوا هدية الحضارة المسيحية الغربية.

وابتدع قس الكنيسة الإصلاحية الهولندية «دى توا» (١٨٤٧ ـ ١٩١١) أساس الأسطورة العرقية لهذه المجموعة فى كتابه (تاريخ وطننا بلغة وطننا) وهو طبعًا كتاب يسرد قصة تاريخ الأفريقان، وكان أول كتاب يُنشر باللغة الأفريقانية (١٨٧٧). ووفقًا لـ«دى توا»، فإن الأفريقان كانوا يشكلون شعبًا مميزًا يحتل أرض الآباء المميزة، حيث تلقى أمرًا من الله بالبقاء لمدة محددة فى جنوب أفريقيا وحكمها ونشر الحضارة لدى السكان الوثنيين. وكان «دى توا» أول أفريقانى يتبنى مصطلح الشعب المختار للأفريقان. وبرغم انتصار أيديولوچية القومية الأفريقانية لـ«دى توا» فى الانتخابات العامة عام ١٩٤٨، فهى لم تَسُدْ فى المؤسسات السياسية فى القرن التاسع عشر، أمام معارضة الرئيسين «براند» و«كروجر» اللذين أرادا أن يحافظا على الهوية المنفصلة لولايتيهما (إل. تومپسون ١٩٩٥ : ١٣٥).

وتم الترويج ـ بشكل واسع ـ لمسألة الهوية الأفريقانية والرغبة فى الاستقلال، بفضل تعاليم المدارس الإصلاحية الهولندية والوعظ التقليدى للكالڤينية الأفريقانية، والنشاطات المتعددة لرابطة الإخوان (موودى ١٩٧٥ : ١١٠- ١١١). ولاحظنا فى بداية القرن الجهود المنسقة بشكل جيد لإنشاء أدب أفريقانى يصنع أساطير الأصول الأفريقانية. و سرعان ما عبَّر المثقفون الأفريقان عن القومية الحماسية فى الكتب التى حرروها، وبهذا الشكل ساهم كل المجتمع فى صناعة تاريخه الخاص به (انظر إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٣٥ - ٦٨). وتم ذلك على أساس بعض التركيبات الأيديولوچية مثل: أسطورة «سلاجترزنك ـ Slagtersnek» وأسطورة النزوح الكبير، و أسطورة

العهد. كانت كل هذه الأساطير تتماشى بسهولة مع تطور الأحداث، بالإضافة إلى أسطورة التفوق العنصرى.

أسطورة سلاجترزنك السياسية

أصبح حدث شنق متمردين أفريقان فى «ڤناردتسپوس» على بعد ٢٠ كيلومتراً من سلاجترزنك على الحدود الشرقية لمستعمرة الكاپ عام ١٨١٥ من الأساطير المؤسِّسة للقومية الأفريقانية (انظر إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٠٥ - ١٤٣). وعلى الرغم من أنه لم يكن يشكل حدثًا هامًا فى عملية تكوين المجتمع الأفريقانى قبل سبعينيات القرن التاسع عشر، إلا أنه أصبح منذ تلك الفترة تأكيداً للتهديدين اللذيْن يشكلان خطراً على بقاء الأفريقان على قيد الحياة، ألا وهما الإنجليز والسود، وبالتالى أصبحت القصة المزورة والمشوهة للحدث عنصراً هامًا بالنسبة للأسطورة الناشئة للقومية الأفريقانية. وبدايتها هى إدانة «بيزويدينهوت فريك» بسبب عدم دفع أجر عامل من الخوى خوى، ورفضه إطلاق سراحه بعد نهاية عقد العمل، وحُكم عليه بالحبس، ونظراً لرفضه الامتثال للحكم يوم ١٠ أكتوبر ١٨١٥، أمر الضابط المسئول بالقبض عليه. وقتله أحد ضباط الشرطة السود لأنه كان يحمل سلاحًا. وأقسم «هانس» أخو «بيزويدينهوت» على أن ينتقم لأخيه، ونظم مؤامرة كان هدفها قلب النظام البريطانى الموجود فى الكاپ حيث كان يكن له، مثل أى أفريقانى، كل الحقد والكراهية.

وفى الثامن عشر من أكتوبر، كان ستون من أتباع «هانس» فى سلاجترزنك عندما أدركتهم قوات البوير والدراجون البريطانية. وهرب «هانس» وعائلته وآخرون إلى الشمال فى منطقة تدعى «زهوسا»، وفى التاسع والعشرين من نوڤمبر وعلى بعد ٨٠ كيلومتراً شمال شرق سلاجترزنك، تصدى «هانس» وزوجته وابنه إلى القوات المكونة من البوير وجنود الكاپ، ومات «هانس» بعد أن أصيب بجروح بالغة. وبعد ذلك، تم محاكمة حوالى ٤٧ متآمراً فى «يوتينهاج»، وفى ٢٢ يناير ١٨١٦ تم الحكم على ستة منهم بالموت شنقًا. وتم تنفيذ الإعدام فى «ڤناردتسپوس» يوم ٩ مارس ١٨١٦. وبالتالى كان هذا الحدث بمثابة إشارة لإرساء القانون والنظام فى هذه المنطقة الحدودية التى كانت

تعانى من الفوضى، وكان هذا الحدث أيضًا لحظة حاسمة فى تاريخ مستوطنة الكاب، حيث تم محاكمة المستوطنين البيض الذين أدينوا بتهمة الخيانة وتم شنقهم.

من ڤناردتسپوس إلى سلاجترزنك

لم تثر هذه الأحداث فى تلك الفترة إلا ردود أفعال قليلة، ولم تشر إليها الدراسات التى نشرت قبل سبعينيات القرن التاسع عشر. إلا أن وجهة نظر «هانرى كلويت» ـ التى عبر عنها فى خمسينيات القرن التاسع عشر قائلاً: «لا يمكننا أبدًا أن ننسى سلاجترزنك» ـ كان لها تأثير بالغ فى خلق الأساطير الأفريقانية. وكانت هذه المرة الأولى التى يتم فيها الخلط بين اللفظين: «ڤناردتسپوس» وهو المكان الذى تم فيه تنفيذ عملية الشنق، ولكنه يقع على بعد ٢٠ كيلومتراً من المدينة الأخرى والتى يثير اسمها معانى كثيرة وهى سلاجترزنك (والتى تعنى رقبة الجزارين) حيث كان يأتى وسطاء الجزارين من الكاب ليشتروا ماشية البوير. وتم استعمال كلمة سلاجتر فى مكان الشنق حيث كانت توحى بالطبع إلى فكرة المجزرة.

فى سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته، عندما بدأت المصالح الإمبريالية للبريطانيين تهدد استقلالية جمهوريات البوير، تغير السلوك تجاه الإنجليز الذى تأثر أيضًا بأحداث الماضى. هذا واندمجت أسطورة سلاجترزنك فى الأساطير القومية منذ ١٨٧٧ عندما نشر «دى توا» قصة هذه الحادثة. ووفقًا لكتابه، فإن نتائج الأحداث التى دارت مابين ١٨١٥و١٨١٦ لم تكن تخدم القانون والنظام وإنما كانت تخدم الاستبداد. كانت ثورة «بيزويدينهوت» موجهة ضد الحكومة البريطانية «الظالم الأكبر». وتم وصف البوير الذين تعاونوا مع الحكومة البريطانية بأنهم خونة، أما المتمردون فأصبحوا أبطالاً. وادعى أن الثورة ومحاولة الإنجليز إخمادها كانت سبب النزوح الكبير للبوير وأساس الفكر القومى الأفريقانى (انظر رثاء دى توا فى كتاب موودى ١٩٧٤ : ٤). وأشادت كتب أفريقانية أخرى ببطولات المتمردين (مثل كستيل الذى كان يعرف باسم ليناد). وتم مقارنة الأفريقان فى هذه الفترة بالإسرائيليين: «مثلما دخل الإسرائيليون القدامى أرض كنعان وحماهم الله فيها، فالأمر ذاته بالنسبة لشعبنا الذى أتى من هولندا وفرنسا وألمانيا إلى جنوب أفريقيا بفضل حماية الرب وفقًا للمزمور ٨٠: ٩ -١٦، وإشعياء ٢٧ : ١ -٣» (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٢٦٨ رقم ٥).

وبينما تم ترسيخ الأسطورة فى نهاية القرن التاسع عشر وتم استعمالها فى الكفاح ضد الإمبريالية البريطانية ، كان يجب الحرص على عدم الإفراط فيها لتفادى تفاقم الموقف وتأزمه داخل المجتمع الأبيض (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٣٢ - ١٣٧). واجتمع فى يوم ٩ مارس ١٩١٦ ، ألف شخص فى «ڤناردتسپوس» لافتتاح المتحف التاريخى احتفالاً بذكرى المتمردين. وبعث الچنرال «هيرتزوج» وهو مؤسس الحزب الوطنى الأفريقانى بأمنياته الحارة. وكان المتحدث الرئيسى د. «مالان»، وهو الذى سيقود الحزب للفوز عام ١٩٤٨ .وبعد أن أثبت علماء التاريخ الأخطاء الواضحة فى حقيقة الأسطورة، شهدت الأسطورة تحولاً فى الهوية الأفريقانية. إلا أن هذه الأسطورة لم تكن على نفس مستوى أسطورة النزوح الكبير.

الأسطورة السياسية للنزوح الكبير

أصبح النزوح الكبير للبوير من مستوطنة الكاپ إلى ولاية الأورانچ الحرة والترانسڤال (١٨٣٥ - ١٨٤٠) يشكل عنصراً أساسيًا فى خلق أسطورة أصول القومية الأفريقانية. حيث تدَّعى الأسطورة أن الكتاب المقدس أسس هوية البوير، وأنه أثناء مسيرتهم كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذى هرب من مصر (وفى حالتهم هربوا من الاضطهاد البريطانى) متوجهًا إلى أرض الميعاد.

وكان السكان الأصليون السود يمثلون الكنعانيين الذين كانوا يعبدون الأوثان والذين يجب على إسرائيل ألا تختلط بهم، لاسيما بالزواج (انظر إيه. دى توا ١٩٨٤ : ٥٥). ويُحكى أن الرئيس «إم. دبليو پريتوريوس» خاطب بهذه العبارات حشدًا كبيراً من الناس:

> **تحدث جلالته مع المهاجرين الأوائل وناداهم بآباء إسرائيل وشبههم بشعب الله المختار. ومثل الإسرائيليين الذين هربوا من مصر لتفادى اضطهاد فرعون، هرب البوير من الحكومة الإنجليزية التى يكرهونها ليشيدوا حكومتهم الخاصة بهم وإدارتهم الخاصة بهم (انظر إيه دى توا ١٩٨٤ : ٦٤ - ٦٥).**

إلا أنه وفقًا لـ «دى توا» (١٩٨٤) فإن الدراسة النقدية للمصادر تعطينا صورة مختلفة. ومن الصعب التصديق أن هؤلاء المهاجرين كانوا يعتبرون أنفسهم فى هذا

الوضع، بل على العكس، يبدو أن الأمر كان مختلفًا. وكان بعض المهاجرين يسترجعون الصور المذكورة فى الكتاب المقدس، حيث كانوا يعتبرون ناتال «الأرض التى تفيض لبنًا وعسلاً» ومسيرتهم فى الصحراء مثل «التيه فى الصحراء»، ولكن هذا لا يكفى لإثبات اعتقادهم بأنهم يتبعون أمرًا إلهيًا مماثلاً للأمر الإلهى لبنى إسرائيل بدخول كنعان. وبالفعل، قبل عام من النزوح، قام مجمع قساوسة الكنيسة الإصلاحية الهولندية فى الكاپ بنقد هذه المغامرة؛ حيث تحدثوا عن «الذين تركوا بيوتهم وأماكن عبادتهم، بدون موسى أو هارون، ليقتحموا الصحراء بحثًا عن أرض كنعان لهم لكن بدون وعود أو توجيهات» (دى توا ١٩٨٤ : ٦٩).

أوضح «دى توا» أنه قبل خمسينيات القرن التاسع، لم يزعم البوير أنهم شعب الله المختار (١٩٨٣):

> **ويجب أن نخلص من ذلك إلى. . . أنه على الرغم من الزعم القائل بوجود أدلة كثيرة تثبت أن السائرين كانوا يقارنون أنفسهم بإسرائيل الكتاب المقدس وبالشعب الذى اختاره الله. . . لا نجد أى أدلة فى أى مصدر موثوق فيه قبل سبعينيات القرن التاسع عشر عن هذا (إيه. دى. توا ١٩٨٤ : ٧٠ – ٧٣).**

ولكن أكد العديد من رجال الدين فى الترانسفال أن المهاجرين اعتبروا أنفسهم شعبًا مختارًا (إيه. دى. توا ١٩٨٣ : ٩٣٩ – ٤٧).

وفى الحقيقة كان المهاجرون حريصين على الهروب من الظروف المعيشية الجديدة، التى انبثقت من تحرير الإنجليز للعبيد والتى فاقمت النقص فى اليد العاملة، وجمع الإيجارات، ونقص الأراضى والغارات الكثيرة من الزهوسا، وكان ذلك أكثر من تأثرهم بقصة الكتاب المقدس الواردة فى سفر الخروج وقصة أرض الوعد (انظر ليستر ١٩٩٦ : ٦٤).

ولخص قائدهم «پيت ريتيف» أسباب نزوح البوير عام ١٨٣٨ قائلاً: «الخسائر الفادحة التى تحملناها بسبب تحرر العبيد» (انظر أيضًا سببين آخرين ذكرتهما بنت شقيق «ريتيف»: السلب المستمر الذى كان «الكافير» ينتهجونه، وعدم قدرة الحكومة على الوفاء بعهودها[1] فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٤٩).

---

(١) فيما يخص تحرر العبيد كتبت «أنا ستينكامپ»: «إن ما يحزننا ويؤلمنا ليس أنهم حصلوا على حريتهم، ولكن لأنهم وضعوا على نفس قدم المساواة مع المسيحيين، وذلك يتعارض مع قوانين الله ومع التفرقة الطبيعية بين الأجناس و الديانات. وكان من المستحيل لأى مسيحى مهذب أن يؤمن بهذا، لذلك قررنا وفضلنا الانسحاب للمحافظة على طهارة مذاهبنا وقداستها» (فى إل. تومپسون ١٩٩٥ : ٨٩).

إلا أنه انطلاقًا من سبعينيات القرن التاسع عشر، بدأ مؤرخو القومية الأفريقانية بإعادة تفسير النزوح وفقًا للكتاب المقدس، فى الوقت الذى كان يعانى فيه البوير من الضغط الإمبريالى البريطانى، والذى وصل ذروته أثناء الحرب التى دارت بين الإنجليز و البوير مابين عامى ١٨٩٩ و١٩٠٢، وعقب ظروف الحياة الصعبة فى ثلاثينيات القرن العشرين. يتلخص التاريخ المصنوع فيما يلى: بعد ٢٠ عامًا من الاضطهاد، غادر البوير الكاب بحثًا عن ملجأ فى الأحراش غير المعروفة فى الشمال، وكان حجًا للشهداء. وسبب نزوح البوير مطاردة الجيش الإنجليزى لهم (مثلما طارد فرعون الإسرائيليين) كما كان السود يمثلون الكنعانيين الكفار الذين أزعجوا الإسرائيليين فى كل مكان. وبما أن الشعب طبق إرادة الله، فقد خلصهم من أعدائهم ووهبهم الحرية فى أرض الوعد (موودى ١٩٧٥: ٥؛ ريتز ١٩٠٠: ٩٢-٩٣). قتل المتوحشون البرابرة الرجال والنساء والأطفال. أما الباقون على قيد الحياة، فقد طردوهم بفضل ثقتهم فى الله (دى پليسيس فى موودى ١٩٧٥: ٦). وبعد ذلك سار الباقون على قيد الحياة فى اتجاه الشرق وقاموا بإرسال «پيت ريتيف» وبعض الآخرين إلى زعيم الزولو ليشتروا منه الأراضى، ولكن فيما بعد، وبخيانة الزولو، قتلوا «ريتيف» وأصحابه وحاصروا المهاجرين. «كانت الأرض تمتلئ بآلاف الأعداء، وكان من المستحيل الاعتماد على أية مساعدة إنسانية، حتى الأطفال كانوا يصرخون إلى الله، ووصل صوت الشعب إلى الرب» (دى پليسيس ١٠٤ فى موودى ١٩٧٥: ٦، انظر أيضًا الصيغة البطولية لـ «پريلر» ١٩٠٩: ١٥٢-٥٣ فى موودى ١٩٧٥: ٦). وطلب البوير الذين بقوا على قيد الحياة المساعدة من إخوتهم فى المستعمرة والولاية الحرة:

> **جاء أندريس پريتوريوس مع جيوشه الشجاعة، وانضم إليهم لمعاقبة العدو وإخضاعه. و حدث ما يعرف بمعركة نهر الدم «بلود ريڤر» فى ١٦ ديسمبر ١٨٣٨؛ حيث حلفوا اليمين المقدس أن يحتفلوا بهذا اليوم كل عام لو أعطاهم الله النصر، وبالفعل نصرهم الله على الآلاف من أعدائهم (دى پليسيس(٩٤) فى موودى ١٩٧٥: ٦ - ٧).**

واستقر إذن البوير فى ناتال بسلام و أسسوا جمهوريتهم «لقد اشترينا الأرض بأموالنا وعمدناها بدمائنا» (ريتز ١٩٠٠: ١٣ فى موودى ١٩٧٥: ٧).

وإذا كانت المعاناة التى عاشها البوير أثناء الحرب مع الإنجليز أدت إلى ظهور القومية الأفريقانية وساعدتها ، إلا أنه تم إسناد هذا الدور فى العشرينيات إلى ملحمة النزوح الكبير تحت تأثير «چيه . د ى توا ، و لانجنهوڤن و دى . إف مالهرب وآخرين» وبالفعل ، لم يتم وضع أول حجر للمَعْلَمِ التاريخى للمهاجر «Voortrekker» إلا فى ديسمبر ١٩٣٨ ، ولم يتم افتتاحه رسميا إلا عام ١٩٤٩ . وحتى وقت قريب ، كان الأفريقان يتجمعون فى المدن والقرى يوم ١٦ ديسمبر (يوم العهد) ليجددوا عهدهم مع الله ، وبعد خطاب القس كان المثقفون ورجال السياسة ينشدون الأناشيد الدينية ، خاصة المزامير ٣٨ ، ٤٦ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٤٦ وتراتيل دينية أخرى (منها الصوت من جنوب أفريقيا ، الذى أصبح فيما بعد النشيد القومى) . ومنذ ١٩٣٨ اقتنع الأفريقان بانتمائهم إلى الشعب المختار ، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيمنحهم الله جمهورية جديدة (موودى ١٩٧٥ : ٢١) .

مئوية النزوح الكبير

ونظم «هنينج كلوپر» أحد مؤسسى جماعة الإخوان قداسًا بخصوص النزوح الكبير والعهد المقدس فى بلود ريڤر (ولمزيد من التفاصيل انظر موودى ١٩٧٥ : ١٧٥ – ١٨٧) . وفى ٨ أغسطس ١٩٣٨ ، وأمام تمثال «ڤان ريبيك» فى مدينة الكاپ ، توجه بالحديث إلى الحشد الكبير الذى جاء ليرى أول عربتى نزوح . وأشار الخطاب إلى قسم العهد لـ «ساريل سيليرز» المزعوم من المهاجرين ، وأنهى خطابه بـ «إهداء هاتين العربتين إلى شعبنا وإلى ربنا» (موودى ١٩٧٥ : ١٧٩) .

وأثار هذا التجمع جوّا احتفاليّا دينيّا واستعمل ألفاظًا ذات رنين بلاغى . وأنشد أحد الشيوخ ترتيلة سمعان (لوقا ٢ : ٢٩ – ٣٢) وتم الاحتفال بذكرى جلجثة(*) دينجان ، مع بناء مذبح . وأكد «كلوپر» «كان يجب أن تموت حبة القمح القومية قبل أن تطرح غلتها» وقال د . «ڤان رينسبرج» : «بدون موت لن تأتى القيامة» . وعلى حافة قبر «ساريل سيليرز» ، قال «كلوپر» إن «سيليرز» حمل أول شعلة تحالف بين الله والشعب ،

(*) مكان صلب المسيح ، طبقًا للعهد الجديد من الكتاب المقدس ، أما دينجان فهو ملك الزولو ـ المترجمة .

وتم التصديق على أن مذبح العهد فى بلود ريفر، فقد وفّى الله بكلمته بشأن التحالف إلا أن الشعب الأفريقانى انتهك هذا الوعد، وقال:

ارجعوا إلى الرب الذى سيكرمنا. . . إن تواجد شعبنا واستمراره فى البقاء ما هو إلا معجزة. إن شعبنا مثل النبات الشائك فى حوريب، يحترق ويحترق ولكن لا يفنى. فكثيراً ما عرف شعبنا الحزن والانقسام، إلا أنه يرجع دائمًا للاتحاد (كلوپر فى موودى ١٩٧٥: ١٨١).

وهكذا شكلت «وحدة المخاطر» قوة سياسية فعالة خلال العقد اللاحق، وطورت الفكر الجمهورى. ولعبت وسائل الإعلام الشعبية، مثل سرد «پريلر» للسيرة البطولية المقدسة لـ «پيت ريتيف» والسيناريو الذى حرره فى ١٩١٦ لإخراج فيلم المهاجرين، دوراً هامًا فى نشر رؤية مشتركة حول الهوية والقومية الأفريقانية (انظر ليستر ١٩٩٦: الفصل الثالث). وقد أثر هذا الأدب الذى يشيد بالبطولات على التعليم المدرسى، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى كتاب اسمه «تاريخ» من عدة مجلدات، ألفه «تيل» وتم إعادة طبعه عدة مرات بعد موت مؤلفه عام ١٩١٩، والذى نقرأ فيه أن المهاجرين يعتبرون أنفسهم الشعب الذى خصه الله؛ وهذا الأمر بديهى بالنسبة للذين نشأوا وكبروا فى البرية (إل. تومپسون ١٩٨٥: ١٨٢).

الأسطورة السياسية للعهد

فى ١٦ ديسمبر من كل عام وخلا ل الاحتفال الذى يُذَكِّر بالمعاناة من الاحتلال أكثر من الانتصار على ملك الزولو دينجان، يحتفل سكان جنوب أفريقيا بأحداث ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ والتى قام فيها ٤٦٨ أفريقانيًا بخدمهم الملونين والسود، وحوالى ٦٠ حليفًا أفريقيًا بالدفاع عن أنفسهم فى هجوم شنه حوالى ١٠٠٠٠ محارب من الزولو. وتراجع هؤلاء الزولو أمام البوير حيث كانت حصيلة قتلاهم ٣٠٠٠ قتيل فى ميدان المعركة، ولم يقتل مهاجر واحد على الإطلاق. وأطلق البوير اسم نهر الدم «Blood River» على هذه المعركة، حيث تلطخ النهر القريب بدم الزولو. وبعد ذلك تغير اسم الاحتفال من «يوم دينجان» إلى «يوم النذر» عام ١٩٥٢، ثم إلى «يوم العهد» فى ١٩٨٠. واغتنم السياسيون البارزون هذه الفرصة بشكل واسع لنشر القومية

الأفريقانية. وكان محظوراً بشكل مطلق التشكيك فى جذور هذا الاحتفال وتقاليده، وإلى عهد حديث.

ووفقًا لـ «أندريس بريتوريوس» وناسخ كتبه «بانتجيس»، كان القائد المنتصر ملهمًا بحماس دينى عميق. وعُقد اجتماع دينى حاسم يوم ٩ ديسمبر وكان يوم أحد. وكتب «بانتجيس» أن «بريتوريوس» اقترح على الرجال فى كل الخيم أن يصلوا طالبين العون من الله. واقترح أن ينذروا «أنه إذا أعطاهم الرب النصر سيبنون بيتا له فى المكان الذى يريد». كما اقترح أن يطلبوا مساعدة الله ليساعدهم فى تحقيق هذا النذر، وأن يسجلوا تاريخ هذا النصر فى كتاب ويعلمونه ويحتفلون به حتى نهاية الدهر. وقام «سايل سيليرز» وهو أحد القدماء برئاسة المهمة الدينية فى الخيمة التى كان يتواجد بها «بريتوريوس» وشدا بالمزمور (٣٨: ١٢ - ١٦) ثم قاد الصلاة، ثم وعظ بحديث يستند على (سفر القضاة ٦: ١-٢٤)، ثم قاد صلاة تلا فيها النذر. وبعد إنشاد (المزمور ٣٨: ١٢ - ٢١) أنهى القداس بإنشاد (المزمور ١٣٣). وبعد الانتهاء من وصفه للمعركة، أضاف «بانتجيس»: تم توجيه الصلوات والشكر لله، وبعد الخدمة [العبادة]... بعثت القيادة مجموعة قوية تطارد الزولو (إل. تومبسون ١٩٨٥ : ١٥٢ - ١٥٣).

وبعد ذلك أطلق على الخيمة الأساسية اسم «بيترماريتزبورج» على شرف «بيت ريتيف» و «جارت ماريتز» وأصبحت بعد ذلك عاصمة جمهورية ناتال. وهناك بعض الأسباب التى تجعلنا نشكك فى مدى صحة تاريخية هذا النذر. فالمؤرخون الأفريقان الأوائل لا يشيرون إليه، وإذا كان «بريتوريوس» قد حوّل منزلاً متواضعًا إلى كنيسة فى ١٩٤٨، فلا يوجد أية وثيقة أو مستند يثبت أنه قام بذلك للوفاء بالنذر. ولم يستعمل المبنى إطلاقًا بعد ١٨٦١ للخدمات الدينية، وإنما تم استغلاله فى نشاطات تجارية قبل أن يتم تحويله إلى متحف للمهاجرين عام ١٩٠٨. هذا بالإضافة إلى أنه تم تجاهل الاحتفال السنوى بهذه المعركة لمدة ربع قرن.

ولكن فى عام ١٨٦٤، أقنع كل من «بى. هويت» و«ف. ل كاشيت» وهما قسيسان هولنديان إصلاحيان، الجمعية العامة للكنيسة الإصلاحية الهولندية فى ناتال بإقامة احتفال دينى بيوم ١٦ ديسمبر كيوم للشكر، ولكن عندما نظم «كاشيت» احتفالاً عام

١٨٧٦ على ضفاف نهر الدم، لم يتم الإشارة إلى النذر المزعوم، إلا أن «هوفستيل» نشر أول قصة لولاية أورانچ الحرة فى عام ١٨٧٦، تضمنت احتضار «سيليرز» (١٨٧١) وركزت على تقوى «پريتوريوس» وعلى دور «سيليرز». وأمام العدد الهائل للزولو، قرر «پريتوريوس» و«سيليرز» أنهما - مثل اليهود فى العهد القديم - «نحن أيضًا نَعدُ الرب أنه إذا أعطانا النصر على أعدائنا سنقدس هذا اليوم مثل السبت، كل عامَ». تختلف رواية «سيليرز» عن رواية «بانتجيس»، فعنده، أعلن النذر على الملأ وليس كما يروى «بانتجيس» فى خيمة «پريتوريوس». وثانيًا لم يشر إلى إنشاء كنيسة كذكرى وشكر لله (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٦٧).

هذا كما أنه لم يتم الإشارة إلى النذر عندما أعلنت حكومة الترانسڤال فى عام ١٨٦٥ يوم السادس عشر من ديسمبر على أنه يوم احتفال رسمى.

ولكن عندما ثار الأفريقان عام ١٨٨٠ بعد أن أعلن «ثيوفيل شيپستون» أن الترانسڤال مستوطنة بريطانية عام ١٨٧٧، جددوا العهد وذلك ببناء جبل صغير من الحجارة كان يرمز إلى التحرر من سيطرة السود القديمة والمعركة المستقبلية للتحرر من الإنجليز. ومنذ ١٨٨١، كانت الحكومة تنظم كل خمس سنوات احتفالات وطنية ليوم «دينجان»، ولكن لم يكن هناك إشارة للنذر أثناء احتفال عام ١٨٨١، ولكن فى ١٨٩١، تم طبع رواية «سيليرز» فى البرنامج، وتم بناء معلم تاريخى فى مكان الجبل الصغير من الحجارة وتحدث الرئيس «كروجر» عن معركة نهر الدم.

وفى ديسمبر ١٨٩٥، قام رجال الدين والرجال الرسميون فى الترانسڤال بتنظيم احتفال قرب «وينين» فى ناتال؛ حيث جمعوا هيكل «ريتيف» العظمى وهياكل الضحايا الآخرين فى مجزرة ١٨٣٨، ووضعوها فى قبر صغير تم بناؤه ليكون أساس النصب التذكارى الجديد. هذا وفى نهاية القرن، تم إصدار عدد كبير من المؤلفات بشأن النزوح الكبير، ركز الكثير منها على الطموح الدينى للمشاركين. ويلاحظ «ثيل» أن المجموعة كانت تشبه مجموعة صلاة متنقلة أكثر من جيش حربى حديث (إل.

(١) يشير «ليونار تومپسون» إلى أن نذر «سيليرز» لم يكن إلا وعدًا ووفاء وإخلاصًا للقائد، ونجد مثل هذا الأمر فى تاريخ مجتمع البوير (١٩٨٥ : ١٦٢ : ١٦٣).

تومپسون ١٩٨٥ : ١٧٢ - ١٧٧)، فالبعض يتكلمون عن النذر وهناك من تجاهلوه تمامًا[١].

وفى نهاية القرن التاسع عشر، قام كل من رجال الدين والساسة والمثقفين فى الترانسفال وولاية أورانچ الحرة بإعادة إحياء هذا اليوم وتمجيده وإعطائه طابعًا قانونيًا وشرعيًا، واحتفلوا بإحدى روايات ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ بهدف التأكيد على الفخر بالهوية الأفريقانية ضد العدوان البريطانى. لكن بتراجع الإمبراطورية البريطانية خلال القرن العشرين، غيَّر الأفريقان اللاحقون تفسير الأحداث واستعملوها لدعم الهوية الأفريقانية فى مواجهة القومية الأفريقية. وهذا مثل صارخ على الأسطورة السياسية الكلاسيكية: اتساق جزئى مع الحقيقة التاريخية، وإعطاء شكل للأسطورة فى وقت متأخر وتطوير سريع للأحداث، ونشر محموم لأهداف سياسية، ومرونة كبيرة للتأقلم مع الظروف المختلفة. ويكمن فرقها الرئيسى عن أسطورة سلاجترزنك فى بعدها الدينى ومحوريته فى بناء الهوية الأفريقانية.

الأسطورة السياسية للأعلوية العنصرية

تستند الأسطورة السياسية للقومية الأفريقانية إلى فرضية تقسيم البشر طبقًا للعرق - رغم التعريف غير الدقيق لذلك - وإلى أن الأعراق يجب أن تحافظ على ذلك التقسيم، تنفيذًا للإرادة الإلهية. و بالتالى يعتبر الفصل العنصرى (الأپارتهايد) شرطًا أساسيًا فى الحياة. ومنذ وصول البوير عام ١٦٥٢ إلى جنوب أفريقيا، كانوا يسلكون نفس سلوك المستعمرين الأوروبيين ويتوافقون، فنجد أنهم رسموا نفس الأنماط التقليدية للسود: وثنيون بدون حياء، فسقة، سارقون، كذابون، كسالى، قذرون، ويأكلون لحم البشر، يتصرفون كالحيوانات[١]. وأوضح تقرير نشرته لجنة حكومية استعمارية فى ناتال عام ١٨٥٢ أن الفكرة السائدة لدى الأفريقان هى أن الرجل الأسود يجب أن يُجلد حتى يعمل، وأنه غير قادر على أن يعرف أين مصالحه الحقيقية. وكان هؤلاء الأفريقان يتحدثون من وجهة نظر دنيوية وپرجماتية وليس من وجهة نظر لاهوتية وفلسفية وتاريخية(إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٨٣ -٨٤).

---

(١) فى قاموس أكسفورد الإنجليزى (١٩٨٣) تعنى كلمة «هوتونتوت» الشخص الذى لديه ثقافة منحطة.

نظرية سلسلة الكائنات الكبرى، والتى وفقًا لها يمكن ترتيب الأجناس البشرية بشكل تدريجى من الجنس الأفضل (الأوروبيين) إلى القردة، لا يمكن تطبيقها كما هى على السود الأفارقة، لأن أدمغتهم غير مختلفة عن الأوروبيين، ولكن بدون شك كانوا يشكلون أجناسًا بشرية مختلفة. فلكل شعب خصائصه الجسدية والثقافية الثابتة والخاصة به، والتى تقع فى درجات مختلفة على سلم الحضارة، من الرجل المتحضر (أى الأوروبى وأفضله الإنجليزى) إلى المتوحش (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٩٠ - ٩٣). وبقدر كمية الدم الأبيض الذى ربما حصلوا عليه فى شمال أفريقيا، قد يرتفع بعض الأفارقة إلى مستوى عال من ثقافة الأوروپيين. واعتبروا أن ذكاء الطفل الأسود يتوقف عن التطور عند سن البلوغ(*).

كان كل سكان جنوب أفريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين يظنون أنهم ينتمون إلى جنس أعلى من جميع الأجناس الأخرى الموجودة فى جنوب أفريقيا، وتتجلى تلك الأعلوية فى ديانتهم والتكنولوچيا والسياسة والفنون، وكذلك فى عظمتهم وثروتهم. ويستند الدعم العلمى لهذه المواقف والسلوكيات على تأكيدات مستنتجة من دراسات طبية وراثية استخدمت مناهج علمية غير مناسبة وعلى تحليلات زائفة (جولد ١٩٨١). ومهما كانت الظروف، فإن عقدة الأعلوية العنصرية بررت استعباد السكان الأصليين، ونهب أراضيهم؛ مثلما قام بذلك الإمبرياليون البيض فى بقية القارة السوداء وفى آسيا وفى الكاريبى، بالإضافة إلى استغلال البيض للأفرو أمريكان؛ حيث كان يبرر هذا التفوق الهيمنة السياسية للبيض واستغلال اليد العاملة الملونة.

الكتاب المقدس ولاهوته فى قلب التعصب الأفريقانى

نسج مجتمع جنوب أفريقيا خيوطًا كثيرة، تعددت تلك الخيوط فى النهاية ذاتيتها المنفصلة. تمثل العوامل اللاهوتية أحد هذه الخيوط، وقد أثرت على كل تطور لهذا المجتمع. والدلائل والبراهين على التأثيرات الكتابية واللاهوتية عديدة للغاية. وقد تحدث سير «چون روبينسون» الذى كان رئيس وزراء ناتال عن «هؤلاء الدعاة الذين

(*) وشبه العلماء ذلك بقصة بيتر پان - المترجمة.

أثروا على فكر المؤمنين ووجدانهم، بحيث أسهم ذلك بشكل كبير فى الوضع الحالى» (إل. تومپسون : ١٩٨٥ : ١٧٢). وأصر العديد من الزعماء السياسيين، بالأخص «پول كروجر» الذى كان رئيس جنوب أفريقيا من ١٨٨١ إلى ١٩٠٢، أصروا بشكل بالغ على تعاليم «كالڤين» فيما يتعلق بوحى الله إلى الشعب وعهده معه الذى لا ينطبق فقط على فترة العهد القديم، بل وأيضًا على عصر «كروجر».

ويرى «كروجر» أن الله اختار شعبه فى مستوطنة الكاپ وقاده إلى الصحراء، وبعد أن طهره، أبرم عهدًا معه وتم الانتصار على العدو واستقر البوير على الأرض التى أعطاهم إياها بكل عدل. كما يرى أن الله سمح لليد الإمپريالية البريطانية أن تبطش بهذا الشعب لأنه لم يف ببنود العهد بشأن إحياء ذكرى العهد لمدة تزيد عن ٣٠ عامًا. وفى پارديكرال عام ١٨٨٠، اعترف أن شعب جمهورية الترانسڤال لم يكن فقط «شعبًا من شعوب الله، وإنما شعب الله الخاص» (دى پليسيس هامش، ١٠٣، ٨٩ فى موودى ١٩٧٥ : ٢٦ – ٢٧). ولكن هذا الاختيار كان يتطلب من الشعب ولاءً وإخلاصًا مطلقين. إن النهاية الإعجازية لحرب ١٨٨١ كانت تشكل برهانًا قاطعًا على اختيار الله لشعب الترانسڤال. وكان اللاهوت الذى يرتكز عليه يستند على حلقة المعصية ـ العقاب ـ الثواب، والتى تتجلى فى «المزمور ٨٩» وهو مزموره المفضل (٨٩: ٣١ – ٣٤).

وبالنسبة لـ «كروجر» لا ينتمى الأفارقة السود إلى شعب الله المختار، ومصيرهم هو أن يبقوا للأبد خاضعين لسادتهم البيض. وكان هجوم الإنجليز على الجمهوريات بمثابة هجوم الشيطان على كنيسة الرب. وكان من الممكن للإنجليز أن يكون لديهم الآلاف من الرجال فى المعركة ضد بعض المئات من البوير، لكن هؤلاء كان على رأسهم المسيح السيد الأعلى للسماء والأرض. وفى عام ١٩٠٠، قارن «كروجر» معاناة شعبه بمعاناة يسوع، وقال إن معاناتهم، مثل معاناة المسيح فى طريق الآلام والجلجثة [مكان صلب المسيح طبقًا للأناجيل]، قبل رؤية فجر الحرية (موودى ١٩٧٥ : ٣٢ – ٣٦). وقد دعا «كروجر» الچنرال «سموتس» إلى قراءة سفر يوئيل لأن مواضيع التدمير (١ : ٦ – ١٠) وإعادتهم ورجوعهم (يوئيل ١ : ١٥ – ٢ : ١، ٣ : ١ – ٢١) ستواسيه.

القومية المسيحية عند «أبراهام كويپر»

وبالإضافة إلى عوامل أخرى شكلت ظهور القومية الأفريقانية وبلورتها، نجد فكرة إنشاء دولة قومية مسيحية على أساس القومية المسيحية لدى «كالڤين» فى صميم أيديولوچية رابطة الإخوان. وهذا يعنى أن الله هو مصدر السلطات، وأنه على أية حكومة أن تسترشد بالمسيحية الكالڤينية التى فسرها وحدثها فى الكنيسة الإصلاحية الهولندية «أبراهام كوپير» (١٨٣٧ - ١٩٢٠) والذى جعل مصطلح (القومية المسيحية) شعبيًا. كان «كويپر» متأكدًا من أن الكالڤينيين يشكلون قلب المجتمع، وأن مهمته تتمثل فى جعل كل وجوه الحياة تحت ظلال الله. وكانت النظرية اللاهوتية فى جنوب أفريقيا تفيد كمعيار للمجتمع. وعلى الرغم من خسارة البوير، كان «كويپر» متأكدًا من أنهم سينتصرون فى نهاية المطاف بشرط أن لا يتخلوا عن الإيمان الإصلاحى لآبائهم. ووفقًا لرأيه، فإن الله خلق أجناسًا بشرية مختلفة من حيث العرق واللون والثقافة، يجب أن نقبلها كما هى. ويشير «بلومبرج» إلى تأثير «كويپر» على الأفكار الأساسية المكونة للقوميين الأفريقان. فالمبدأ القومى يجب أن يستوحى دائمًا من المبدأ المسيحى. والكالڤينية شاملة بل هى عالمية؛ فكل الأمور المتعلقة بالإنسان من اختصاصاتها، فهى إيمان عالمى ومتفتح يمكنه التأقلم مع القومية (بلومبرج ١٩٩٠ : ١٠). واختار الأفريقان أن يكونوا حرَّاس الأمة المسيحية وذلك بالاعتماد على الكتاب المقدس كمصدر أول فى الحياة السياسية. ولكن دار نزاع بين لاهوت «كويپر» وأحد أشكال القومية الأكثر علمانية وذلك عند رجوع أكاديميين من ألمانيا مثل «ڤيرورد»، الذى سيصبح فيما بعد رئيس الوزراء و الدكتور «نيكولاس ديديريش»، والذى أصبح وزير المالية وبعد ذلك رئيس جمهورية جنوب أفريقيا. فبالنسبة لهم، ينهض مفهوم القومية على فكرة الشعب الذى تربطه ثقافة وتاريخ مشتركين. ولكن نظرتهم هذه لأمة تربطها اللغة والثقافة والتاريخ الواحد أوجدت قضية مشتركة مع الأفريقان ذوى العاطفة الدينية، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم الشعب الذى اختاره الله. فالإنسان مدعو للانتماء إلى مجتمع قومى «إنه فقط داخل الأمة، وهى المجتمع الإنسانى الأكثر شمولاً والأكثر تكاملاً، يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته بشكل كامل وشامل» (ديديريش فى موودى ١٩٧٥ : ١٥٦ - ١٥٨). وبالتالى فإن المبادئ المسيحية البروتستانتية والقومية الثقافية هما أساس الأمة. وكان «ديديريش» يرفض أية أيديولوچية أو مذهب يدعو

للمساواة بين البشر . حيث يرى أن تنوع الأمم ذاته وضعه الله ، والأهم من هذا وذاك أن الله هو الذى خلق كل هذه الأمم حتى تمارس هذه الأمم إرادة الله (فى موودى ١٩٧٥ : ١٥٩) . وأخيراً يرى أن خدمة الأمة هى خدمة الله ، ومن هنا يفسر التقديس شبه الكامل للأمة التى ما فتئت أن أصبحت إلهًا .

القومية والكتاب المقدس

يشكل الكتاب المقدس لدى الوعى الأفريقانى حجر الأساس (انظر لوبسر ١٩٨٧) والخطاب الكتابى يؤثر على الخطاب السياسى . ويتحدث «لانجنهوفن» عن شهداء النزوح الكبير «أمة أفريقانية تستحق أن تحمل التاج المكتسب على طريق الصليب ، الذى خاضه آباؤهم وأفنوا حياتهم فيه» . ولكن لا تنتهى هذه القصة عند هذا الحد فى جنوب أفريقيا ، لا سيما عند المعركة ضد «دينجان» ، بل تستمر فى المستقبل وتؤدى إلى إعادة نهوض الجمهورية(فى موودى ١٩٧٥ : ١٤) . ولكن خلال فترة ١٩٢٠ -١٩٥٠ نشهد انتشاراً سريعًا للمدن فى المناطق التى يقطنها الأفريقان . وأدى هذا التمدن إلى إحداث عدة تغيرات فى المجتمع ، أهمها ارتفاع شديد فى الجماعات الدينية المدنية للكنيسة الإصلاحية . وفى هذه الظروف سيكتشف قراء الكتاب المقدس الذين كانوا مزارعين مستقلين وملاكًا ذوى ثقافة أصلية ، أنهم مجرد مزارعين بسطاء فى ثقافة غريبة ، وفى أدنى السلم الاجتماعى (انظر تفاصيل دايست ١٩٩٤ : ١٤ - ١٥) . ولم تكن الكنائس الأفريقانية مهيأة لهذا التغيير . بالإضافة إلى تواجد السود فى المدن ، وتزاحمهم للحصول على عمل بأجور بخسة ، تزيد من حدة غضب السكان الذين يتكلمون اللغة الأفريقانية ، والذين بدءوا يصرون على تطبيق مبدأ «عدم المساواة» بين البيض والسود (انظر دايست ١٩٨٦) .

خروج البوير

وعلى الرغم من أنه ليس هناك أدلة على أن مهاجرى النزوح الكبير كانوا يعتبرون أنفسهم الشعب المختار المتوجه إلى أرض الوعد ، فقد تم استعمال هذا المصطلح الكتابى بشكل كبير لمساندة أسطورة أصول القومية والتعصب ودعمها فى جنوب أفريقيا ، مثلما توضحه هذه المقارنة البسيطة مع إسرائيل الكتاب المقدس(انظر دايست ١٩٩٤) .

إسرائيل	الأفريقان
ـ جاء بنو إسرائيل من فلسطين إلى مصر	ـ جاء الأفريقان من أوروبا إلى أفريقيا .
ـ وقعوا تحت سيطرة الحكام الأجانب .	ـ وقعوا تحت وطأة الإنجليز .
ـ هربوا من مصر إلى كنعان .	ـ هربوا من مستوطنة الكاپ إلى الشمال .
ـ اعتبروا الأمم كثيرة وقوية .	ـ اعتبروا السود أعداء كثيرين وأقوياء .
ـ امتلكوا بمعجزة أرضًا جديدة .	ـ امتلكوا بمعجزة أرضًا جديدة
ـ أبرموا عهدًا مع الله .	ـ أبرموا عهدًا مع الله .
ـ أقاموا نُصُبًا تذكارية .	ـ بنوا كنيسة كذكرى لـ «سيليرز» .
ـ قام الأجداد بنقل ملحمتهم إلى الأسلاف .	ـ قام الأجداد بنقل ملحمتهم إلى الأسلاف .

وجد المفكرون الأفريقان في ثلاثينيات القرن العشرين ـ الذين تحسروا على نقص الشعور الديني، وتزايد العلمانية بين الأفريقان «البيض المساكين» في الحضر ـ ملاذًا روحيًا في جامعة كويپر الحرة في أمستردام، وطوروا كالڤينية البوير الخاصة بهم، والتي قامت على الإحساس الصرف بالكتاب المقدس(دايست ١٩٩٤ : ١٨ - ١٩) .

كان هذا المذهب يدعو إلى قراءة بسيطة، وواقعية في الوقت ذاته، لسفر التثنية، وكان دوره حاسمًا في وضع سياسة الأپارتهايد. وكانت المواعظ و منشورات الكنيسة الإصلاحية الهولندية تُذكِّر بدون انقطاع قرَّاء الكتاب المقدس بـ (كايروس ـ Kairos) خلال اللحظات التي كانوا فيها، مثل موسى، على وشك أن يشهدوا قيام جنوب أفريقيا بيضاء لأبنائهم. ولكن كان الأفريقان يعلمون أن وضعهم، على غرار الإسرائيليين، مهدد في أية لحظة (انظر ستوهلمان ١٩٩٠ : ٦٢٦). ومثل موسى، كانت السلطات الدينية تعتقد أن بقاءهم يعتمد على تطبيق أوامر الله، لا سيما تلك التي تقول بالفصل بين الأمم، كما أمر بها الله وذلك وفقًا لتفسيرهم لسفر التثنية (٤ : ٣٧ -

٣٨، ٧: ٧ - ٨، ١٠: ١٤ -١٥). وإذا فرق الله بين الأمم وفصل بينها فليس لأى أحد الحق فى جمعها. ووفقًا لقراءتهم الخاصة لسفر التثنية، فإن هذا السفر يشجع على جمع شمل الأفريقان من جهة، وفصلهم عن السود من جهة أخرى. وكتب «چى دى. توا» بشأن سفر التثنية قائلاً:

أولاً: لا يمكن لأحد أن يفرق ما جمعه الله. وهذا أساس حملتنا الدفاعية بشأن الاتحاد بين الأفريقان. . . وثانيًا: لا يمكننا أن نجمع ما فرقه الله. فرغبة الله تكمن فى التعدد. . وبالتالى لا نقبل المساواة كما لا نقبل جعلنا لقطاء (فى دايست ١٩٩٤ : ٢٣).

وكتب «لوتس»:

من هذا المبدأ الإصلاحى بشأن الجماعات المنفصلة داخل مملكة الرب، تنبثق سياستنا بشأن الأپارتهايد فى الكنيسة وفى الدولة. هذا مبدأ عالمى، والذى وفقًا للكتاب المقدس والطبيعة، قام بوضعه الخالق الأعلى، والذى يجب أن يدافع عنه الشعب الأفريقانى وكنيسة البوير بقوة، لاسيما ضد سياسة المساواة فى الليبرالية الحديثة (فى دايست ١٩٩٤: ٢٣).

وهذا يعنى بوضوح أن التنوع الذى يدعو إليه الكتاب المقدس هو أفضل من المساواة التى ينادى بها الإنسان. والفصل بين الشعوب يعتمد على الكتاب المقدس، أما الدعوة إلى المساواة بين الأجناس فما هى إلا ابتداع إنسانى. يقدم الحظر بشأن الاختلاط بالسكان الأصليين ـ الذى يتم ذكره فى بعض تفاسير سفر التثنية(*) (٧: ٣ -٤، انظر

(*) فى الكتاب المقدس: ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم، أكثر وأعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرمونهم. لا تقطعوا لهم عهدًا، ولاترفقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم . . . . فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا. ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم وأحرقوا تماثيلهم.
لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم. فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. ولم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عددًا من سائر الشعوب، فأنتم أقل الأمم عددًا. بل من محبته، وحفاظًا على القسم الذى أقسم به لآبائكم، ، أخرجكم بقوة فائقة، وفداكم من نير عبودية فرعون ملك مصر. فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله، الإله الأمين الوفى بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظى وصاياه إلى ألف جيل. وهو يجازى مبغضيه علنًا، فيستأصلهم ولا يتمهل، بل يسرع فى معاقبة من يبغضه. فأطيعوا الوصايا والفرائض والأحكام التى أوصيكم بها اليوم لتمارسوها. فإن استمعتم إلى هذه=

كوهين ١٩٨٣ ، ديون ١٩٨٥ ، أوكنيل ١٩٩٢) ـ الأساس الكتابى لقانون جنوب أفريقيا الخاص الذى يمنع الزواج المختلط حتى يتم المحافظة على طهارة الأفريقان. وذلك مثل الإسرائيليين الذين كانوا أقلية، ولكن بمساعدة الله حصلوا على الأرض ، كذلك اعتبر الأفريقان الكالفينيين أنهم بأمر إلهى امتلكوا الأرض. ومثل مؤلفى سفر التثنية، لم يكن الكالفينيون يبالون على الإطلاق بفكرة أن هذه الأرض كانت مأهولة بالسكان قبلهم. وكان الأهم هو الاحتفال بالاحتلال أكثر من الوقوف عند مسائل تاريخية تافهة أو أقل شأنًا.

وأثناء الاحتفال بالذكرى المئوية لمعركة نهر الدم يوم ١٦ ديسمبر ١٩٣٨ ، طور د. «مالان» موضوع النزوح الكبير الثانى، فمثلما انتصر الأفريقان على السود فى معركة نهر الدم فى عام ١٨٣٨ ، سيقومون بنزوح آخر فى اتجاه المدن حيث كانت ساحة المعركة الجديدة هى سوق العمل :

> **هنا فى نهر الدم أنتم على أرض مقدسة. إذ تمت هنا الخطوة الحاسمة التى حددت مستقبل جنوب أفريقيا والحضارة المسيحية فى بلدنا، والتى ساعدت على الحفاظ على الجنس الأبيض وسلطته . . . وأنتم على حدود قرنين. ففى الخلف ترون عام ١٨٣٨ ...وفى نهاية الطريق غير الواضحة لجنوب أفريقيا تلمحون عام ٢٠٣٨ ...حيث ترون فى ١٨٣٨ آثار عربات المهاجرين. إن نهر الدم هو الآن فى المدن. . . هذه المسيرة الجديدة لن تبعدكم عن مراكز الحضارة. . . ولكن رجوعًا من الأرياف إلى المدن. . . واليوم يتنافس السود والبيض على سوق العمل . . . . . حرية أجدادنا كانت قبل كل شىء المحافظة على جنسنا كبيض. وتدركون بشكل أفضل اليوم أن واجبهم لجعل جنوب أفريقيا أرض الرجل الأبيض ،أصبح يشكل واجبكم الأكبر (موودى ١٩٧٥ : ١٩٨ - ٢٠٠).**

= الأحكام وأطعتموها وعملتم بها، فإن الرب إلهكم يحافظ لكم على العهد والإحسان كما حلف لآبائكم. ويحبكم ويباركم ويكثركم، ويبارك ثمرة أحشائكم وغلة أرضكم من قمح وزيت، ويزيد من إنتاج بقركم ونعاجكم على الأرض التى أقسم لآبائكم أن يهبها لكم. وتكونون مباركين أكثر من جميع الشعوب، فلا يوجد عقيم ولا عاقر فيكم ولا فى بهائمكم. ويقيكم الرب من كل علة، وكل أمراض مصر الخبيثة التى عاينتموها، ولا يصيبكم بها، بل يجعلها على مبغضيكم. وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم، فلا تشفقوا عليهم ولا تعبدوا آلهتهم لأن ذلك شرك لكم.

وبالتالى لعبت العوامل اللاهوتية والكتابية دوراً مهمّا لدعم الأيديولوچية القومية المتعصبة للأفريقان، الذين كانوا يتطورون وفقًا للظروف المتغيرة. وبلا شك لقى هذا الدعم اللاهوتى الكتابى السائد معارضة داخل الكنائس الإصلاحية الهولندية. وبالفعل تم نقد سياسة الأپارتهايد نقداً لاذعًا، حيث وصفها علماء لاهوت ورجال دين على أنها انشقاق عن الكنيسة، وغير مقبولة لأنها مخالفة للمبادئ.

الأسطورة والتاريخ والعلم والأخلاق

يكمن فى صميم التاريخ الأفريقانى لجنوب أفريقيا الاعتقاد التام بأعلوية الجنس الأبيض. وأكد الچنرال «هرتزوج» أن كلمة « أوروپى» تعنى فى جنوب أفريقيا الحضارة وإذا اختفى الرجل الأبيض أو انقرض، فمعنى ذلك بلا شك اختفاء الحضارة (موودى ١٩٧٥ : ٢٦١). ومقارنةً بالرجل الأبيض المتطور، فإن الزنجى هو طفل عمره ٨ أعوام له دين ومعتقدات، ولكنه لا يملك الفن والعلم، حيث إنه لا يعرف إلا أساسيات بسيطة للغاية. وبينما كان كل العالم تقريبًا يتوجه توجهًا معاكسًا، كانت جنوب أفريقيا تواصل سياسة الأپارتهايد، ومنذ ١٩٨٠ أصبحت تشكل ظاهرة فريدة من نوعها: دولة صناعية ذات «حكم اللون ـ Pigmentocracy» (إل تومپسون ١٩٨٥ : ١٩١).

ولمواصلة مساندة نظام الفصل العنصرى فى عالم أصبح فيه التنوع العرقى طبيعيّا، كان من الضرورى إعادة تأكيد الأساس الأيديولوچى وإعادة كتابة التاريخ وإعادة تفسير الأساطير؛ فتم التأكيد على الفصل بين الأجناس المتوارث، وبالطبع التأكيد على أن البيض كانوا متفوقين على السود بآلاف السنين، وبالتالى كان الفصل حتميّا وضروريّا. وفيما يخص الأصول، فالسود ليس لديهم حجج تفوق حجج البيض لامتلاك الأرض لأنهم أتوا من الشمال، وبالتقريب فى الفترة التى وصل فيها البيض إلى الجنوب، وأنهم فى كل الأحوال كانوا نصف رُحَّل [بَدْو] ونصف حضريين. (انظر أخبار هيئة الاستعلامات الحكومية فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٩٩-٢٠٠). وتم الرجوع إلى عناصر وأحداث تاريخية راسخة فى الأساطير القومية (سلاجترزنك، النزوح الكبير، النذر الخ) وكذلك إلى براهين لاهوتية وكتابية لتشكيل نص الخطاب الذى يشيد بالقضية الأفريقانية ويدافع عنها.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، قام مؤرخو الأجناس البشرية وعلماؤها وعلماء اللاهوت بدراسة عميقة ومفصلة لكل مكونات تاريخ جنوب أفريقيا، التى تتميز بالطابع القومى والمتعصب، وبدأ العديد منهم فى مناقشتها. وبهذا الشكل تم تفكيك أساطير سلاجترزنك و النذر والأرض الخالية.

وأثبت «ريشارد إلفيك» أن جميع الرجال الذين قابلهم الهولنديون فى المنطقة الغربية من الكاپ، كانوا أعضاء فى نفس چينات السكان الذين عاشوا فى المنطقة منذ آلاف السنين (١٩٧٧). وكشف استعمال الكربون [١] ١٤ وجود فخار يرجع إلى العصر الحديدى الأول فى الترانسڤال (حوالى عام ٣٠٠ ق. م) أسطورة الأرض الخالية. وقد عاش أجداد سكان بانتو جنوب أفريقيا فى المنطقة قبل قدوم الهولنديين بـ ١٤٠٠ عام. وكانت هناك مجتمعات إنسانية مارست الصيد البرى والبحرى، وجمعت النباتات القابلة للأكل وذلك خلال عدة آلاف من السنين. ومنذ العام ١٠٠٠ قبل الميلاد، كان هناك مزارعون فى ناتال وفى ضاحية الكاپ والترانسڤال وسوازيلاند وبوتسوانا الشرقية وشمال شرق ولاية الأورانچ الحرة [٢].

أما الأسطورة السياسية لسلاجترزنك التى اتخذت شكل الأسطورة المعادية للإنجليز، فقد بدأت تضعف عندما اجتمع الإنجليز و الأفريقان لمواجهة خطر الأغلبية الأفريقية. و فى الخمسينيات، اختفت تمامًا هذه الأسطورة من الكتب المدرسية فى جنوب أفريقيا، كما قللت الأبحاث التاريخية فى الثمانينيات من شأنها بشكل أكبر. ولم تكن خسارة كبرى؛ لأن هذه الأصول المعادية للإنجليز أصبحت مزعجة، وبما أنها كانت أسطورة علمانية، لم تعط لها الكنائس الأفريقية اهتمامًا كبيراً.

استمرت معركة نهر الدم والعهد (١٨٣٨) رموزاً رئيسية فى الهوية المسيحية الأفريقانية. ولكن فى مارس ١٩٧٩، نظمت جامعة جنوب أفريقيا مؤتمرًا كان

(١) الكربون ١٤ نظير مُشع من نظائر الكربون، وزنه الذرى ١٤، وهو أثقل من الكربون العادى ١٢. يستخدم العلماء الكربون المشع لتحديد عمر الحفريات، والأنواع الأخرى من الآثار القديمة. ويستخدمه الباحثون أيضًا لدراسة بعض العمليات البيولوچية ـ (المترجمة).

(٢) انظر إل. تومپسون ١٩٩٥: الفصل الأول بالإضافة إلى ملخص شهادات تم الإدلاء بها، وانظر المراجع فى ماركس ١٩٨٠.

المتحدث الأساسى فيه البروفيسور «فلوريس ڤان چارسڤيلد» وكان متوقعًا أن يتكلم عن العهد من وجهة نظر علمانية، ويشكك فى بعض عناصر هذه الأسطورة. وبينما هو متوجه إلى المنصة، قامت مجموعة من المتعصبين بتلطيخه بالقار، وأمسك «أويجن تيريبلانش» بالميكروفون واعترض قائلاً: على أى أساس يمكن للپروڤيسور «ڤان چارسڤيلد» أن يتساءل عن النذر بوجوب الاستمرار فى الاحتفال بيوم العهد؟ (صنداى تايمز، ٨ أبريل ١٩٧٩، فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٢٨٠). بينما تحاجج ورقة «چارسڤيلد» بأنه لاسبيل لمعرفة كلمات النذر، وأنه لم يكن يُحتفل به قبل ١٨٦٤، وأنه ليس الأفريقان فقط هم من ادعى وقوف الله بجانبهم.

إعادة التفكير اللاهوتى

وازداد نقد سياسة الفصل العنصرى فى الكنائس المسيحية فى الداخل والخارج. وكانت جنوب أفريقيا من أكثر الدول «مسيحية» فى العالم بنسبة ٩, ٨٣٪ من السكان وكان ٨, ٩٣٪ من السكان البيض أعضاء فى الكنيسة المسيحية، وينتمى ٣٥ من ٤٠ وزيراً إلى إحدى الكنائس الهولندية الإصلاحية الثلاث، وحوالى ٤٩٪ من السكان البيض كانوا منضمين إليها [١, ٤٠٪ فى كنيسة (NGK) و٦٪ فى كنيسة (NHK) و٩, ٢٪ فى كنيسة (GKSA)]. وكان ٧٦, ١٠٪ من الأنچليكان و٦, ٩٪ من الميثوديست و ٢, ٨٪ من الكاثوليك الرومان و ١, ٣٪ من المشيخيين، ويشكل الباقون ٤٥٪ من المسيحيين، بالإضافة إلى ٣٪ من اليهود. ولكن كانت المسيحية أيضًا ديانة المضطهدين، أى ٦٩٪ من مجموع ١٨ مليونًا من الأفارقة السود وحوالى ٩١٪ من الملونين ينتمون إلى الكنيسة المسيحية. وساند المجمع العام لكنيسة (NGK) الذى كان يجتمع كل أربعة أعوام سياسة التطور الانفصالى، وكذلك الكنيسة المحافظة(NHK) فى الترانسڤال، فقد دعمت بشكل أكبر هذه السياسة. أما الاعتراض فقد جاء من كنيسة (GKSA) وهى أصغر هذه الكنائس الثلاث (دى جروشى ١٩٧٩، ١٩٩١، دى جروشى وڤيلا ڤيسينسيو ١٩٨٣[1] موودى١٩٧٥؛ هوپ و يونج ١٩٨١).

(١) هذه مجموعة مقالات لعلماء لاهوت من طوائف وثقافات مختلفة (بويزاك، توتو)، تم جمعها بهدف تمكين مواطنى جنوب أفريقيا من أن يسألوا أنفسهم على ضوء قرار اتحاد الكنائس العالمى عما إذا كانت الأپارتهايد هرطقة.

وبالفعل فى عام ١٩٤٨ أعلنت معظم الكنائس الأخرى فى جنوب أفريقيا عن رفضها وإدانتها للتشريع المقترح للأپارتهايد. وأكد المؤتمر العالمى للكنائس فى روزنتفيل فى عام ١٩٤٩، وهو الأول من نوعه منذ تقلد الحزب الوطنى لمقاليد الحكم - مع نائب واحد معترض من كنيسة (NGK) - وحدة جميع أبناء الله، وأعلن أن الاحتياج الحقيقى لجنوب أفريقيا لا يتمثل فى الأپارتهايد، ولكن فى وحدة العمل فى فريق (دى جروشى ١٩٧٩ : ٥٤ - ٥٦). وقد اعترف اللقاء الذى تم تنظيمه فى پريتوريا فى نوفمبر ١٩٥٣ من قبل المجلس الفيدرالى لنشر المسيحية التابع لكنيسة (NGK) وبحضور مسئولين من طوائف أخرى، بثلاث نقاط اختلاف قسمت المشاركين، وبشكل أكبر المجتمع: الذين كانوا يؤمنون بالتبرير الكتابى للفصل، والذين لا يقتنعون بهذا التبرير ولكن لأسباب نفعية كانوا يسمحون به، والذين كانوا مقتنعين أن الفصل فى الكنيسة سيىء وتدينه النصوص المقدسة (دى جروشى ١٩٧٩ : ٥٧-٥٨).

وخلال الخمسينيات، ظهر شكل من أشكال النقد لنظام الفصل العنصرى داخل كنيسة (NGK) ، بينما كانت محاولة تطبيق هذا التشريع تتواصل بشكل سريع. وقام عالما لاهوت معروفان هما «بن مارايس، و كيت» بدحض الأساس اللاهوتى والكتابى للفصل العنصرى. وفى دراسته حول تأثير الفصل العنصرى فى «سوفيا تاون» ، أكد الأب « تريفور هودلستون» وهو مبشر أنچليكانى، أن أعمال الفصل وأسبابه كانت فى الأساس سيئة وضد الفكر المسيحى حيث قال: يتم اللجوء للفصل العنصرى بسبب الرغبة فى السيطرة بهدف المحافظة على التفوق العنصرى، ويدمر هذا السياق العلاقات الشخصية التى هى أساس الحب ذاته، وهذا ضد تعاليم المسيح (هودلستون ١٩٥٦ : ١٨٢).

و قد أثارت مذبحة شارپفيل فى ٢١ مارس ١٩٦٠ أزمة حادة بشأن الأپارتهايد فى جنوب أفريقيا وخارجها على حد سواء. فقد ألقت الضوء على الخلاف القائم بين كنيسة (NGK) والكنائس المسيحية الأخرى المتأثرة بدعوة الأسقف الأنچليكانى المعارض «جوست دى بلانك» لاستبعاد كنيسة (NGK) من المجلس العالمى للكنائس، ولكن بدلاً من ذلك عقد هذا المجلس اجتماعًا للتشاور بشأن المسائل الاجتماعية والخاصة بالعلاقات بين الأجناس المختلفة.

وضمت مشاورات «كوتسلو» عام ١٩٦٠ عشرة نواب من كل كنيسة من كنائس جنوب أفريقيا، التى هى من أعضاء المجلس العالمى للكنائس المسيحية، منهم ١٨ مندوبًا أسود مع ٥ ممثلين من المجلس العالمى. ورفض الإعلان النهائى أى نوع من أنواع التمييز العنصرى غير العادل، وطالب بالكرامة على قدم المساواة للجميع والحقوق المتساوية لجميع المجموعات العرقية فى جنوب أفريقيا، وكذلك لجميع الخدمات الدينية المقدمة لجميع المؤمنين. وبينما أرادت كل من الكنائس التى تتكلم الإنجليزية: الأنجليكانية والمشيخية والميثودية والأبرشية أن يكون القرار أكثر عدلاً، رفض مندوبو كنيسة (NHK) القرار كليًا. والمشكلة الحقيقية كانت معرفة رد فعل مجمع كنيسة (NGK). وتحت تأثير النقد اللاذع للمجموعات المحافظة داخل الكنيسة، رفض كل من مجلس كنيسة الكاپ والترانسڤال هذا القرار، وانسحبت كنيسة (NGK) من المجلس العالمى للكنائس المسيحية.

وعلى المستوى الدولى، عرفت الكنيسة المسيحية كيف تحل مشكلة التحدى الذى كانت تشكله العنصرية للإيمان المسيحى. وقام المجلس العالمى للكنائس المسيحية مبكرًا بنشر قرارات و بيانات، وبدأ فى أعمال ضد العنصرية (انظر إصدارات برنامج المجلس العالمى لمكافحة العنصرية ـ ١٩٨٦). وأدانت الجمعية الرابعة للمجلس فى أوپسالا عام ١٩٦٨ العنصرية، وعلى وجه الخصوص العنصرية التى يمارسها البيض من أصل أوروپى والذين يزعمون أن جميع البيض لهم الحق فى الاستعلاء، حيث يدّعون أن الأفارقة أقل شأنًا منهم، وذلك حتى يبرروا إخضاعهم واستغلالهم. (المجلس العالمى للكنائس المسيحية ١٩٦٨ : ٣٥). أما الاجتماع الخامس لجمعية المجلس العالمى للكنائس المسيحية (نيروبى ١٩٧٥) فأدان العنصرية بالعبارات التالية:

> **إنها خطيئة ضد الله و ضد البشر. فالتمييز العنصرى يتعارض مع عدالة الرب وحبه الذى علمه لنا يسوع. فهو يدمر الكرامة الإنسانية لدى الذى يمارس العنصرية ولدى الضحية. وبما أنه يتم ممارستها من قبل المسيحيين، فهى تنفى الإيمان الحقيقى الذى ندين به، وتدمر مصداقية الكنيسة كشاهدة ليسوع؛ وبالتالى فنحن ندين العنصرية بكل أشكالها داخل الكنيسة وخارجها (المجلس العالمى للكنائس المسيحية ١٩٨٦ : ٥٣).**

واعترف الاجتماع بتواطؤ الكنيسة الواعى، وغير الواعى، مع التمييز العنصرى، وعدم قدرتها على اقتلاعه من جذوره داخل الكنيسة نفسها.

وفى عام ١٩٧٦ جددت اللجنة المركزية للمجلس رفضها واعتراض المجلس على الأپارتهايد والعنصرية لأنهما « ضد الإنجيل ولا يتماشيان مع طبيعة كنيسة يسوع، حيث ينتهكان الحقوق الإنسانية الأساسية والأولية». كما أدان المجلس أيضًا المناورات الدنيئة والمنافقة لحكومة جنوب أفريقيا حتى يستمر الأپارتهايد ويتواصل. ودعا مجلس الكنائس لكشف شرور سياسة البانتوستان [تحديد إقامة السود فى أراض معزولة] (فى المجلس ١٩٨٦ : ٥٩). وفى العام التالى وصفت اللجنة المركزية هذه الأعمال بـ: غير العادلة والوحشية والقاسية وغير المقبولة لأنها تسىء للمسيحية، حيث يتم ارتكابها باسم الحضارة المسيحية، من قبل حكام قامعين قساة فى جنوب أفريقيا (المجلس ١٩٨٦ : ٦٤) وأدانت المشاورة الدولية للكنائس فى ١٩٨٠ العنصرية كخطيئة يجب على جميع تلاميذ يسوع أن يكافحوها، كما عبَّرت عن ندمها الشديد وتوبة الكنيسة التى لم تدرك ذلك إلا مؤخرًا (المجلس ١٩٨٦ : ٧٤).

أما الاجتماع السادس للمجلس (ڤانكوفر ١٩٨٣) فقد تطرق إلى العنصرية الرسمية فى جنوب أفريقيا. وجدد رفضه لسياسة الفصل العنصرى ودعا جميع المسيحيين إلى رفضها ومكافحتها:

> **ينشىء الأپارتهايد الحواجز ويرفض الحياة الكاملة ليسوع. ومهمة المسيحيين والكنائس هى السير على خطى السيد المسيح فى الحياة الدنيا والحفاظ على وحدة الكنائس والاعتراض على الأپارتهايد بكل أشكاله، ومساعدة الذين يقومون بمكافحة هذا النظام الشيطانى غير العادل، وإدانة أى تأويل للإنجيل فى محاولة التبرير اللاهوتى للأپارتهايد (الجزء الثانى من ديباجة إعلان المجلس عن جنوب أفريقيا (١٩٨٦ : ٨٥).**

وكان من المعلوم أنه فى حالة القمع الذى تمارسه الدولة، لم يكن بإمكان الكنيسة أن تتفادى المواجهة مع الحكومة (المجلس، الجزء الخامس ١٩٨٦ : ٨٥). هذا وقد كرر المجلس فى توصياته، وأكد اقتناعه بأن إنجيل يسوع يدين الأپارتهايد، وأن أية نظرة

لاهوتية تؤيده أو تسمح به هى لاهوتية منشقة (١٩٨٦ : ٨٧)، وهو ينادى بتفكيك ذلك النظام (١٩٨٦ : ٨٨).

وفى الوقت ذاته، نشرت كنيسة (NGK) وثيقتين من المجلس الكنائسى: الأولى تحمل عنوان العلاقات الإنسانية فى جنوب أفريقيا (١٩٦٦)، والثانية العلاقات الإنسانية فى جنوب أفريقيا على ضوء الكتاب المقدس (١٩٧٤)، وبدون تقديم أدنى تبرير، اعترفت الوثيقة الأخيرة ـ مثلها مثل إصدارات كنيسة (NGK) اعترفت بسلطة الكتاب المقدس المطلقة فى تحديد المعايير الخاصة بجميع الأعمال الحياتية. وأكد النص فى نفس الوقت أن النوع البشرى واحد متساو فى الأساس، وأن التنوع العرقى كان منذ الأصل يتسق مع إرادة الله «يمكن تبرير النظامَ السياسى الذى يقوم على التولد الذاتى، أو التنمية المنفصلة بين المجموعات [العرقية] المختلفة، بالكتاب المقدس». والواضح أن كنيسة (NGK) كانت ترفض ظلم العنصرية والتمييز، لكن كانت تؤيد سياسة التنمية القائمة على الفصل. وفى تأويل كهذا للنصوص الكتابية، يصبح الكتاب المقدس نوعًا من أنواع الكتب الوسيطة ذا نصوص دلالية، يمكن للاستخدام الانتقائى لها أن يعطى وزنًا لنظام سياسى خاص، وفى هذه الحالة يتم الرجوع إلى الخمسين استشهاداً التى تم استخدامها لدعم الأپارتهايد: التكوين. ويبين «باكس» كيف أن التقرير يجهل نصوصًا أخرى فى الكتاب المقدس التى تعطى قيمة وتؤكد على وحدة شعب الله وتكامله (١٩٨٣ : ١٣٣ - ١٤٤).

وخلال الستينيات والسبعينيات، اتخذ بعض علماء لاهوت كنيسة (NGK) وغيرها ـ بكل شجاعة ـ موقفًا ضد السياسة الحكومية. كذلك جاءت معارضة سياسة التمييز العنصرى من مصادر إصلاحية أخرى، خاصة من هولندا، مما أدى إلى قطع العلاقة بين كنيسة (NGK) وجيريفورميردى كيركن فى عام ١٩٧٨. وقد أكد بالفعل مجلس كنائس جنوب أفريقيا فى عام ١٩٦٨ أن الأپارتهايد والتطور القائم على الفصل يتعارض مع الإنجيل. ونكتشف فى الفترة ذاتها تقريبًا بوادر لاهوت جديد يتبناه السود متأثرًا بأفكار «چيمس كون». وفى سياق جنوب أفريقيا، كان يهدف هذا اللاهوت إلى توعية السود بمعنى هويتهم وكرامتهم. واستناداً على الكتاب المقدس، كان يركز هذا اللاهوت على سفر الخروج، أو على الأقل على جزئه الأول، وعلى رسالة يسوع الذى وضّح أن الله مع المضطهدين. وعلى الرغم من التحفظات التى نجدها فى عمل

«أوكپونج» (١٩٨٤)، أصبح لاهوت السود عاملاً مهمّا وفعالاً فى تغير وجهات النظر فى كتابات «ألان بويزاك» (١٩٧٦، ١٩٨٤) و«تكاستو موفوكنج» (١٩٨٣) وآخرين من بينهم الأسقف «ديسموند توتو» الذى يتميز بشخصية كاريزمية.

وفى الثمانينيات، أكد مجلس الكنائس المسيحية فى جنوب أفريقيا والذى كان يرأسه الأسقف «توتو» فى تلك الفترة، على رفضه الشديد للأپارتهايد، وكانت سنة ١٩٨٢ سنة أزمة بالنسبة للكنيسة. وعلى الرغم من أنها انسحبت من المجلس العالمى للكنائس المسيحية فى ١٩٦٠، إلا أن كنيسة (NGK) بقيت عضواً فى التحالف العالمى للكنائس الإصلاحية، ولكن عندما أكدت هذه المؤسسة فى إصدارها الذى يحمل عنوان «العنصرية وجنوب أفريقيا» (أوتاوا ١٩٨٢) أن الأپارتهايد هو هرطقة لاهوتية ابتدعتها الكنائس الأفريقانية، علقت عضوية كل من كنيسة (NGK)، وكنيسة (NHK). وعينت «ألان بويزاك» عضو كنيسة (NGSK) كرئيس، وفى العام ذاته انضمت كنيسة «بويزاك» إلى مجلس كنائس جنوب أفريقيا.

وفى عام ١٩٨٢ أكدت كنيسة (NGSK) أن الأپارتهايد هو شكل من أشكال الوثنية وأن تبريره اللاهوتى هو هرطقة. ونشر النص فى عام ١٩٨٦ متحديًا لاهوت الأپارتهايد الذى دعت إليه كنيسة (NGK). إلا أن القوى المحافظة استمرت فى بسط سلطتها على كنيسة (NGK) خلال انعقاد المجلس الكنائسى العام فى أكتوبر ١٩٨٢. ولكن كانت معارضة التمييز العنصرى تزداد فى الكنائس المتحدثة بالإنجليزية والكنائس الكاثوليكية الرومانية والكنيسة اللوثرية، بل وأيضًا لدى أعضاء مهمين فى كنيسة (NGK) (دى جروشى ١٩٧٩، هوپ ويونج ١٩٨١، ريجر ١٩٧٩).

يوضح إصدار وثيقة «كايروس ـ Kairos» يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨٥ وإصدارها الثانى «المُراجَع» بعد عام زيادة حدة التعليقات اللاهوتية للسكان الأصليين بشأن الوضع الذى أصبح متأزمًا أكثر فأكثر ولا يمكن السيطرة عليه. فقد عرضت نقداً للنماذج اللاهوتية المقبولة فى الكنائس، واقترحت بديلاً كتابيًا ولاهوتيًا فى ذات الوقت، والذى وفقًا للكتاب المقدس قد يؤثر بشكل مختلف على مستقبل جنوب أفريقيا. كما نقدت الوثيقة موقف اللاهوت بشأن الأپارتهايد لاستعماله الخاطئ للمصطلحات اللاهوتية والنصوص الكتابية لصالحه (الفصل الثانى). واتهمت الوثيقة الكنائس بصياغة نقد

حذر وسطحى ضد الأپارتهايد باستعمال أفكار مستهلكة عن الصلح والعدل وعدم العنف دون الجرأة على القيام بتحليل عميق لواقع تلك الفترة. ولم يكن من الممكن إرساء سلام، لا سيما أن بعض النزاعات كانت تجمع بين ظالم عنيف ذى تسليح عالٍ ومضطهد بدون دفاع.

ليس هناك فى الكتاب المقدس أو فى التقاليد المسيحية أى شىء يقول بأنه يجب الجمع والتوفيق بين الخير والشر، بين الرب والشيطان، أو يجب أن نترك الشر والظلم، والاضطهاد والخطيئة دون مقاومة. ومن المفترض أن نعترض ونقاوم ونرفض الشيطان وليس أن نتحالف معه (وثيقة كايروس ٣ . ١).

إلزام السود بالدخول فى عملية المصالحة بدون عدل، كان يعنى أن يطلب منهم أن يكونوا متآمرين مع الاضطهاد الذى كانوا يعانون منه. لم يكن السلام الذى كان يقدمه العالم إلا وحدة تقايض فى الحقيقة وتخفى الظلم والقمع، فالمحرك الأول والأساسى لها هو الأنانية. وتستمر الوثيقة:

لكى يكون هناك اتباع حقيقى للكتاب المقدس، يجب على مسئولى الكنائس أن يتبنوا لاهوتًا يعتمد على المواجهة المباشرة مع قوى الشر بدلاً من تبنى لاهوت يتسق مع الخطيئة والشيطان (وثيقة كايروس ٣. ١).

كما قارنت الوثيقة القمع الذى تمارسه الدولة، وغياب العدل السائد والسيطرة بالعنف الذى يمارسه المغتصب، ومقاومة المرأة والدفاع عن نفسها بالقوة البدنية، التى تستعملها المرأة الضحية ضد المغتصب. وإذا كان هناك اتهام، فإن استعمال العنف للدفاع عن النفس هو بالطبع الاتهام الأدنى. كما انتقد سلطة الكنيسة التى كانت تقول إن النظام الذى يطبق الفصل العنصرى كان سلطة شرعية، والتى بحيادها تعطى موافقة ضمنية للمضطهد (٣ . ٣). ويجب على لاهوت الكنيسة أن يدعم فهْمًا يتناسب مع الاستراتيچية السياسية ويجب أن توسع مفهوم الخلاص إلى الـ «هنا» و«الآن» (٣. ٤).

ويجب أن تكون نقطة انطلاق اللاهوتية من معاناة القمع والاستبداد. يثير لاهوت التنبؤ بطبيعة الحال مواجهات، ولكن يجب أن يبقى الأمل. يجب أن تسمى خطيئة الأپارتهايد بأنها «إثم فى حق الله».

ووفقًا لتعاليم التراث الإصلاحى، كان الرجوع إلى الكتاب المقدس ضروريًا، لكن كان انتقائيًا بشكل غريب كما فى الرسالة إلى مؤمنى روما «الخضوع للسلطات»:

على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة. فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطات القائمة مرتبة من قبل الله. حتى إن من يقاوم السلطة، يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيجلبون العقاب على أنفسهم؛ فإن الحكام لا يخافهم من يفعل الصلاح بل من يفعل الشر. أفترغب إذن فى أن تكون غير خائف من السلطة؟ اعمل ما هو صالح، تكن ممدوحًا عندها، لأنها خادمة الله لك لأجل الخير. أما إن كنت تعمل الشر فخف، لأن السلطة لا تحمل السيف عبثًا، إذ إنها خادمة الله، وهى التى تنتقم لغضبه ممن يفعل الشر. (العهد الجديد ـ الرسالة إلى مؤمنى روما ١٣ : ١ - ٤).

وعندما يتم ذكر العنف الذى ورد فى الكتاب المقدس، يتم الرجوع فقط إلى ذلك العنف الذى يمارسه أعداء إسرائيل. وعند التحدث عن المعاناة والقمع فى العهد القديم، يتم التركيز على تلك التى عانى منها الإسرائيليون من قبل المصريين وملوك كنعان. . . الخ.

ولكنهم يتجاهلون غزو أرض الوعد والمعاملة التى لقيها الكنعانيون وأمم أخرى من بنى إسرائيل بأمر من الله. ومع ذلك يركز تأويل الكتاب المقدس فى تقرير كايروس على النصوص من وجهة نظر الإسرائيليين، دون أن يرتفع إلى تحدى قراءة الكتاب المقدس بأعين الكنعانيين.

خاتمة

بدأت الأسطورة السياسية للقومية الأفريقانية تتلاشى و تضمحل مع بداية القرن. ولقد رأينا كيف خلقت القومية الأفريقانية الأساطير السياسية وساندتها ونوعتها لتصل إلى أهدافها، وكيف نقد البحث التاريخى و الأنثروبولوچى كل عنصر مكون لهذه الأساطير. فلم يتم القبول بأسطورة الأرض الخالية التى استقبلت شعبًا بدون أرض عندما تم إثبات وجود شعب أفريقى فى المنطقة قبل العصر المسيحى، وكذلك البوير الذين ثاروا ضد حكومة الكاپ الاستعمارية فى ١٨١٥ فقد بدوا كمتمردين وليسوا

كأبطال. أما ظروف أسطورة النذر غير المؤكدة فى عام ١٨٣٨ فقد شكك البحث فى تاريخية الأسطورة نفسها. هذا بالإضافة إلى أن كل المؤرخين، أو تقريبًا كل الذين درسوا القرن التاسع عشر، رفضوا وجهة النظر ـ التى ما زالت شائعة ـ والتى تقول إن الأفريقان فى النزوح الكبير كانوا مقتنعين بأن واجبهم هو الاستيلاء على الأراضى من السكان السود الأصليين بالطريقة التى قام بها الإسرائيليون الذين، وفقًا لرأيهم، كانوا مكلفين من الله بتطهير أرض كنعان من الشعوب التى تسكنها[1]. كما أن الأسس البيولوچية المقترحة التى كانت تبرر العنصرية أو النظريات الفجة حول التفرقة العنصرية تم استبعادها. هذا كما رُفضت الإمپريالية و التمييز المبنى فقط على التفرقة العرقية بشكل شبه دولى، وانحصرت ممارسة العنصرية فى جنوب أفريقيا فقط.

وفى المجتمع الأفريقانى، حيث برز تحالف بين الكنيسة والدولة، كان الدين يقدم مرجعًا فوقيًا لممارسة السلطة. وعلى الرغم من دعم اللاهوت السائد فى الكنيسة الهولندية للأپارتهايد (التمييز العنصرى)، ساهمت الانتقادات اللاهوتية والكتابية فى القضاء عليه. وبالفعل فقد تم مهاجمة التفرقة العنصرية من كل الجهات وفى كثير من الأحيان من البيض وحتى من الأفريقان. وبالتالى هاجمت كل من الأبحاث الحديثة فى الآثار وفى الدراسات التاريخية، والاكتشافات الحديثة، والتأمل اللاهوتى والكتابى الجديد، كل مظاهر الأسطورة الأفريقانية؛ ومن ثم تزعزت القومية الأفريقانية ثقافيًا وأخلاقيًا.

وعندما يرفض التاريخ، وأشكال أخرى من البحث، حجج الأساطير الخطيرة، فكل فرد مسئول عن إسقاط الاحترام الذى كانت تحظى به من قبل، والحرص على أن لا تلعب هذه الأساطير الكاذبة الموروثة من الماضى دورًا تدميريًا. إلا أن بعض دارسى الكتاب المقدس قبلوا هذه المسئولية لكن بتحفظ. فعلى سبيل المثال أنهى «دايست» دراسته كما يلى:

> **من الممكن أن يعرض سفر التثنية أيديولوچيات خطيرة، وبالتالى قد يكون كتابًا خطيرًا. ولكن الخطر الأكبر يأتى من القرّاء الذين يقرءونه بدون فكر**

---

(١) عبر عن هذه الأسطورة الشعبية «دى كلارك» ١٩٧٥، «ڤيلى» ١٩٨٢ وآخرون، كذلك قصة «چيمس ميشنر» (ذى كوڤنانت ١٩٨٠).

نقدى. وبالاعتراف بأن التاريخ المأساوى لجنوب أفريقيا، وتهديد الكارثة القومية الموجود دائمًا، نشأ من تفسير الكتاب المقدس، فلا ترجع هذه المأساة إلى طرق تفسير الكتاب الخاطئة أو الخطيرة، بل إلى نقص الحس النقدى لدى بعض المفسرين. يجب أن تشجع تجربة جنوب أفريقيا القرّاء على تناول الموضوع بنظرة نقدية للطابع التاريخى لأى إنتاج أدبى، وأى شكل من أشكال التأويل بما فى ذلك أخلاقيات التأويل (١٩٩٤: ٢٨ - ٢٩).

وإذ يبين «دايست» جيدًا المشاكل التى قد يثيرها الكتاب المقدس بالنسبة للقارئ العادى، يقبل بصعوبة أن سفر التثنية قد يشكل فى حد ذاته كتابًا خطيرًا لا سيما فى المواضع التى يتم فيها التأكيد على أن الاتجاهات العنصرية والعداء للأجانب والميول القتالية امتثال لإرادة الله. ويحدد المشكلة بإلقاء المسئولية على دارسى الكتاب المقدس وبالأخص على القارئ الذى يرى أن لديه استعدادات أخلاقية تدعو للشك.

ولكن على ضوء تجربة السود، يعرض «موفوكنج» صميم المشكلة. يشير الشعب الأسود لجنوب أفريقيا بإصبعه إلى ثلاث حقائق متنازعة:

يوضح السود الموقف المحورى للكتاب المقدس فى تطور عملية استعمارهم وقمعهم واستغلالهم. وثانيًا يعترفون بالتناقض الذى يتمثل فى أنهم مُسْتَعْمَرون من شعب مسيحى، ومع ذلك تحولوا للمسيحية وقبلوا الكتاب المقدس، الذى كان الأداة الأيديولوچية التى أدت إلى استعمارهم وقمعهم واستغلالهم. وثالثًا يشعرون أن لديهم التزامًا تاريخيًا توارثته الأجيال المتعاقبة بشكل مقدس، وهو تعهد بوضع حد لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان (موفوكنج ١٩٨٨: ٣٤).

ويواصل:

وعندما يلاحظ المسيحيون السود هذه الجهود التى يقوم بها المحافظون المنفعلون ويسمعون ترتيل الكتاب لدعم قضايا رجعية، يكتشفون أن الكتاب نفسه يمثل مشكلة خطيرة بالنسبة لشعب يريد أن يكون حرًا (١٩٨٨: ٣٧).

ويؤكد «موفوكنج» أن فى الكتاب المقدس العديد من النصوص التى لا يمكن تفسيرها إلا لصالح القمع النظرى والتطبيقى، وبكل بساطة لأنها ذات طابع قمعى. ويضيف قائلاً إن أية محاولة لتفسير هذه النصوص القمعية لصالح المضطهدين، ما هى إلا لصالح القامعين. هذا وقد اكتشف الشباب السود أن الكتاب المقدس هو وثيقة قمعية استبدادية بطبيعته، وطالبوا باستبعاده وإلغائه (موفوكنج ١٩٨٨ : ٣٤)[1].

* * *

(١) وعلى الجانب الإيجابى، ذكر «وست» و«درابر» أعمال معهد جنوب أفريقيا لدراسة الكتاب المقدس الذى تم إنشاؤه مؤخراً، والذى يسعى إلى إحداث تفاعل بين الدراسات الكتابية والقارئ العادى وتطوير هذا التفاعل (١٩٩١ : ٣٦٩ - ٧٠). وقد لفتا الأنظار إلى أعمال هامة قدمها عدد كبير من المؤسسات داخل البلاد.

الفصل الرابع

الاستعمار وفلسطين

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم، لكى لا يعلموكم رجاساتهم التى مارسوها فى عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم.

[التثنية ٢٠ : ١٦ – ١٨]

تعد مجموعة العناصر التى تشكل الأيديولوچية الصهيونية[1] معقدة ومركبة أكثر من تلك التى كانت تدعم القومية الأفريقانية. وعلى الرغم من أن هاتين الأيديولوچيتين تلتقيان فى نقاط كثيرة، إلا أنهما تحققتا فى ظروف اجتماعية مختلفة. وفى هذا الصدد يتعين علينا دراسة ما إذا كان المؤرخون الصهاينة قد صنعوا التاريخ اليهودى مثلما قام بذلك الأيديولوچيون الأفريقان حيث ابتدعوا ميثولوچيا قوميتهم. وقد لعب الكتاب المقدس فى حالة الصهيونية دوراً مهمّا بشكل خاص. و إذا كان مستعمرو أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا قد بذلوا جهوداً حثيثة لجمع الحجج من الكتاب المقدس، والتى تجعل الغزو والاستيطان وتبعاتهما شرعية، فقد كان موقف اليهود أسهل من الأوروپيين فى ذلك. ولكن لم يتم الاستناد الصريح على الكتاب المقدس بشكل بارز لدعم القومية الصهيونية إلا قبيل عام ١٩٦٧. و أسعى من خلال أبحاثى إلى أن أوضح أن اختلاق الأساطير القومية يسمح باستيعاب طبيعة نصوص الكتاب المقدس بشكل أفضل. وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تقدم نقداً أخلاقيّا لتأويلات الكتاب المقدس وعلاقتها بالاستعمار، إلا أنه من الضرورى تحديد السياق الاجتماعى الذى تطورت فيه هذه التأويلات. وعلى غرار الأمثلة السابقة، سيسمح لنا استرجاع تاريخ الصهيونية من نشأتها إلى تطوراتها التاريخية حتى اليوم، بتقديم إيضاحات كثيرة.

المرحلة المبكرة للصهيونية (١٨٩٦-١٩١٧)

على الرغم من أن ثيودور هيرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) لم يكن أول من وضع خطط هجرة يهود أوروپا إلى فلسطين، كما أنه لم يكن أول من اقترح إنشاء دولة لليهود، إلا

(١) أول من استعمل كلمة الصهيونية بمعناها الحديث كان «ناثان برنباوم» عام ١٨٩٠ (باين ١٩٦١: ٣٣).

أنه قام بشكل منهجى بتصور خطط تسمح بتحقيق هذه الأهداف على أرض الواقع. لذا يتعين أن نأخذ فى الاعتبار حلمه اليوتوپى و الاستراتيچية التى اتبعها لتحقيق هذا الحلم.

اهتم هيرتزل بالمسألة اليهودية منذ ١٨٨١ أو ١٨٨٢ (هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٤)[١] وأثناء إقامته فى ڤيينا، تصور أن حل هذه المشكلة يكمن فى تنصير اليهود وتحولهم إلى الكاثوليكية كحل للمشكلة اليهودية فى المجتمع الأوروپى (هيرتزل: ١٩٦٠، ١: ٧). واعترف عام ١٨٩٥ أن الجهود المبذولة لمكافحة المعاداة للسامية غير مجدية (هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٦). وكان أول ما خطه من كتاب «الدولة اليهودية» ما بين يونيه ويوليه ١٨٩٥، وعرض فى السابع عشر من نوڤمبر أفكاره على الدكتور «ماكس نوردو» فى باريس، والذى تحمس للفكرة[٢] . و الجدير بالذكر أنه استغل محاكمة الضابط اليهودى «دريفوس»، وهو فرنسى من منطقة الألزاس وكان يخدم فى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى (٥ يناير ١٨٩٦) حيث اتهم بالخيانة لنقله أسرارًا عسكرية من فرنسا إلى ألمانيا. ونجح هيرتزل فى تصوير المأساة اليهودية، حيث اعتبر هذه الحادثة الفردية نهاية الحملة التى قادها لإدماج اليهود فى المجتمع الأوروپى و أكد تمسكه بالصهيونية. وفى ١٧ يناير ١٨٩٦، نشرت (Jewish Chronicle) مقالته «حل المشكلة اليهودية». وعبَّر المقال الافتتاحى عن شكوكه قائلاً «لا نتصور مستقبلاً باهرًا لمشروع ينتج منه خيبة الأمل». وفى فبراير، نشر هيرتزل النص الكامل لبرنامجه الصهيونى.

الرؤية ودعمها

حاجج هيرتزل بأنه لا يمكن حل المشكلة اليهودية بدون «استعادة دولة يهودية»

---

(١) بدأ «هيرتزل» فى كتابة مذكراته فى عيد الخمسين عام ١٨٩٥، واستمر فى كتابتها حتى وفاته. وتم نشر المجلدات السبعة لرسائله ومذكراته، حيث نشر أول ثلاثة مجلدات «جوهانس واشتن» (١٩٨٣-١٩٨٥)، والمجلدات الأربعة الأخيرة فقد نشرتها «باربارا شافير» (١٩٩٠ - ١٩٩٦). أما الترجمة الإنجليزية الكاملة، فقد نشرها فى خمسة مجلدات «رافائيل پاتاى». وقد استخرجت الفقرات التى رجعت إليها من نسخة «پاتاى» والتى قارنتها بالنص الأصلى لـ «واشتن» و«شافير». وعندما أرى ذلك مهمًا، أستعمل النص الأصلى الألمانى لهذين الناشرين، وعندما أرجع للنص الإنجليزى أشير له بالأرقام ١، ٢ الخ وعندما أرجع للنصوص الألمانية أشير بالأرقام I, II الخ.

(٢) الأفكار التى أذكرها بشأن «هيرتزل» وصفها هو بنفسه بشكل دقيق فى مذكراته فى التاريخ المحدد، هنا على سبيل المثال فى الطبعة الألمانية الكاملة (II: ٢٧٧ - ٢٧٨).

(١٩٨٨ : ٦٩)[1]، كما أكد على فكرة أن اليهود يشكلون شعبًا واحدًا (٧٦، ٧٩) حيث تحدث عن القومية اليهودية التى تميزهم عن غيرهم(٧٩). ويرى أن اليهود كانوا معرضين للقمع فى كل مكان وفى أى مكان (٧٥-٧٨). وبالنسبة لـ «هيرتزل»، مَثَّل العداء للسامية مشكلة قومية أكثر منه مشكلة اجتماعية ومدنية، أو دينية، ولن يتم حل المشكلة اليهودية إلا إذا تم طرحها سياسيًا على الصعيد العالمى(٧٦).

وقليلاً ما يستند «هيرتزل» فى حديثه على الحافز الدينى، على الرغم من أنه يستعمل عبارة «العام المقبل فى القدس»(٨٢). وتتمثل فحوى خطته فى «الحصول على السيادة على قطعة أرض فى العالم تكفى لإرضاء الاحتياجات الشرعية للأمة اليهودية»(٩٢).واعتمد اليهود على مساندة حكومات جميع الدول التى كان يظهر فيها العداء للسامية حتى يحصلوا على هذه السيادة (٩٣). وقد وجه «هيرتزل» حديثه إلى القوى العظمى ليُعَرِّفَ بحق اليهود فى السيادة على قطعة أرض محايدة. و يرى «هيرتزل» أن اليهود من شأنهم أن يقدموا مزايا كثيرة لأصحاب الأرض الحاليين، كما أن إنشاء دولة يهودية سيكون له عظيم الفائدة على البلدان المجاورة (٩٥). وفى مناقشة الاختيار بين الأرجنتين وفلسطين لإقامة الدولة اليهودية أكد قائلاً: «إن اسم فلسطين يجذب شعبنا بقوة نافذة عجيبة» (٩٦).

وطبقًا لـ «هيرتزل»، ستكون الدولة اليهودية «جزءًا من استحكامات أوروپا فى مواجهة آسيا، ومخفرًا أماميًا للحضارة ضد البربرية» (٩٦). وأضاف «هيرتزل» أنه «سيمكن رؤية المعبد من بعيد لأن إيماننا القديم وحده هو الذى حافظ على وحدتنا» (١٠٢). وكان يطالب بمساعدة الحاخامات فى هذه الحملة لأنه توقع صعوبة إقناع اليهود بالهجرة (١٢٩). وأكد: « إن مجتمعنا العرقى خاص وفريد، لأن ما يجمعنا هو إيمان آبائنا» (١٤٦). ولكن لن تكون الدولة اليهودية دولة ثيوقراطية: «سنحصر دور رجال الدين فى تأدية الطقوس فى المعبد، كما سنحصر دور جيشنا المحترف فى الثكنات»[2] وختم بهذه العبارات:

---

(١) النصوص التالية من كتاب «الدولة اليهودية»(نيويورك: دوڤر، ١٩٨٨).

(٢) أعلن «أرون ماركوس» الحسيدى فى ٨ مايو ،١٨٩٦ أن ٣ ملايين من اليهود الپولنديين الحسيديين سوف يساندون بشكل واضح هذا المشروع. وأجاب «هيرتزل» بأنه يرحب بمساندة اليهود الأرثوذكس [التقليديين] ولكنّه لم يكن بصدد إنشاء دولة ثيوقراطية (II و٣٤٠).

أعتقد أن جيلاً عظيمًا من اليهود سينشأ. وسيصعد من جديد المكابيون. واليهود الذين يسعون إلى إنشاء دولة سوف ينالون هذا المطلب. وسنعيش أخيرًا كرجال أحرار على أرضنا وسنموت بسلام عليها. وسيتم تحرر العالم بفضل حريتنا وسيغتنى بغنانا وتمجده عظمتنا. وكل ما سنقوم به هناك لتحقيق رفاهيتنا سيكون له عظيم الأثر على الإنسانية (١٥٦ - ١٥٧).

وقد لقيت اقتراحات هيرتزل هذه معارضة معتبرة، لاسيما من الحاخام «موريتز جودمان» من ڤيينا، والذى أكد أن اليهود لا يشكلون أمة وأن الصهيونية لا تتوافق مع تعاليم اليهودية [1]. وكانت خطة «هيرتزل» تتمثل فى حشد اليهود والتفاوض مع القوى الاستعمارية. وبالتالى كان يجب البدء فى مفاوضات مع تنشيط الحملة الدعائية على أوسع مجال (١١ مايو ١٨٩٦، هيرتزل ١٩٨٣- ١٩٩٦ : II، ٣٤٠، ٣٤١) وقد استمع لـ «هيرتزل» كل من السلطان والقيصر والبابا والملك «ڤيكتور إمانويل» و«شامبرلين»، وشخصيات قيصرية، والعديد من الشخصيات البارزة الأخرى.

اعترف «هيرتزل» بأن مفهومى «الشعب المختار» و«العودة إلى أرض الوعد» عاملان فعالان لحشد الرأى العام اليهودى، على الرغم من أن كبار الصهاينة كانوا غير متدينين أو كانوا ملحدين أو لا أدريين. وفى السادس من مارس ١٨٩٧، تقرر عقد المؤتمر الصهيونى فى ميونيخ فى شهر أغسطس، إلا أن يهود ميونيخ رفضوا استضافته. أما الحاخامات - من كل الاتجاهات - فقد شجبوا الصهيونية ووصفوها بأنها متعصبة وضد الكتاب المقدس اليهودى [العهد القديم]، وأكدوا ولاءهم لألمانيا. هذا بالإضافة إلى أن اللجنة التنفيذية لمجلس حاخامات ألمانيا أدانت رسميًا وعلنيًا «جهود الذين يعتبرون أنفسهم صهاينة لإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين» لمناقضتها للكتاب المقدس (ڤيتال ١٩٧٥ : ٣٣٦).

وأقام «هيرتزل» أول مؤتمر صهيونى عالمى (٢٩ - ٣١ أغسطس١٨٩٧) فى بازل. وعشية الافتتاح، وعلى الرغم من أنه ليس متدينًا، فقد ذهب إلى المعبد اليهودى

(١) القومية اليهودية (ليبزيج وڤيينا ١٨٩٧) ص ٤٢، ذكره (لاكر ١٩٧٢ : ٩٦).

للصلاة، وقرأ القانون اليهودى [الشريعة اليهودية] (ڤيتال ١٩٨٥ : ٣٥٥) وأعلن أن الهدف الأول من المؤتمر هو وضع حجر الأساس للدولة التى ستؤوى الأمة اليهودية وستساهم فى تطور الحضارة.

إنه من مصلحة الأمم المتحضرة والحضارة بصفة عامة، أن يتم إرساء محطة ثقافية جديدة على أقصر طريق يؤدى إلى آسيا. فلسطين هى هذه المحطة ونحن اليهود حملة الثقافة مستعدون للتضحية بممتلكاتنا وحياتنا لضمان إنشاء هذه الدولة... فالصهيونية تسعى إلى ضمان بيت للشعب اليهودى معترف به رسميًا و مضمون شرعيًا فى أرض فلسطين.

وأدى المؤتمر إلى تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية. وفى جلسته الختامية، أقر المؤتمر اقتراحًا مبدئيًا يدعو إلى إنشاء صندوق لتمويل امتلاك أراض فى فلسطين «والتى لا يمكن بعد شراؤها أو نزعها، ولا يمكن بيعها حتى إلى يهود بشكل شخصى، إلا أنه يمكن استئجارها للاستخدام لفترات تدوم ٤٩ عامًا على الأكثر» (فى ليهن١٩٨٨ : ١٨) وتشير التسعة والأربعون عامًا إلى الأمر الإلهى بامتلاك الأرض (اللاويين - الإصحاح ٢٥)[١].

ورأى «هيرتزل» أن مساندة القوى الأوروبية العظمى للصهيونية تخدم مصالحها الإمبريالية للتخلص من اليهود و معاداة السامية، كما تدفع المنظمات اليهودية إلى قمع الحركات الثورية [ضد القوى الاستعمارية]. وبعد المؤتمر الصهيونى الأول، كتب «هيرتزل» فى مذكراته (٣ سبتمبر):

لو طلب إلىّ تلخيص أعمال المؤتمر فإنى أقول، بل أنادى على مسمع من الجميع، إننى قد أسست الدولة اليهودية فى بازل. وإعلانى هذا قد يثير سخرية العالم. وربما يعترف بها العالم بعد خمس سنوات وفى كل الأحوال بعد ٥٠ عامًا على الأكثر (هيرتزل ١٩٦٠ : ٢ : ٥٨١).

ووصل «هيرتزل» وحزبه إلى يافا يوم ٢٦ أكتوبر ١٨٩٨، وزاروا المستوطنين اليهود فى فلسطين. وقد تأثر بشكل سيئ للغاية من حال القدس بسبب [على حد قوله]

(١) أسس المؤتمر الصهيونى الخامس الذى عُقد فى بازل (٢٩ - ٣١ ديسمبر ١٩٠١) الصندوق الوطنى اليهودى. ومنذ تأسيسه، كان يهدف إلى إقامة دولة يهودية.

التراكمات العفنة خلال ٢٠٠٠ عام من مظاهر عدم الإنسانية وعدم التسامح في الشوارع الصغيرة الكريهة الرائحة بسبب عدم النظافة (٣١ أكتوبر ١٩٨٣- ١٩٩٦ II، ٦٨٠).

وفي ٢ نوفمبر ١٨٩٨ استقبل الإمبراطور الألماني «ويليام الثاني» في إقامته بالقرب من القدس «هيرتزل». وعلم «هيرتزل» في تلك اللحظة أن ألمانيا لا تؤيد أهداف الصهيونية. وفي مايو ١٩٠١، استقبل السلطان «عبد الحميد» «هيرتزل» في جلسة عامة، و وعد «هيرتزل» السلطان بأن يسدد اليهود ديونه الخارجية ويطوروا تصنيع بلده. وقد وعد السلطان بحماية اليهود إذا لجأوا إلى تركيا كمواطنين. و التقى «هيرتزل» عدة مرات مع السلطان في فبراير و يوليه ١٩٠٢. ولكن لم يستطع «هيرتزل» أن يجمع مجرد جزء من المبلغ اللازم، وقرر التفاوض مع إنجلترا.

ونظراً لمصالح إنجلترا في الدول العربية المجاورة، ولضمان سلامة الطريق البرية التي تؤدي إلى الهند، فقد تستفيد إنجلترا من شراكة أنجلو صهيونية، وذلك بمنح حقوق استعمارية لليهود في قبرص والعريش و شبه جزيرة سيناء. وقد التقى «هيرتزل» مع «جوزيف شامبرلين» الوزير المكلف بالمستعمرات يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٢، وشرح له أنه بمساندة القضية اليهودية ستضمن الإمبراطورية البريطانية ١٠ ملايين وكيل [أو عميل] «agent»، يخدمون عظمتها ونفوذها في العالم، وسيعطيها ذلك فوائد سياسية واقتصادية (١٩٨٣- ١٩٩٦ : III، ٤٦٩)، إذا التزمت بحماية الدولة اليهودية، ويهود العالم، في المقابل سيخدم جميع يهود العالم المصالح البريطانية وتصبح الدولة اليهودية عميلتها. وفي اليوم التالي كتب «هيرتزل» أن ذلك كان يوماً عظيماً في التاريخ اليهودي.

وفي أغسطس ١٩٠٣، تفاوض «هيرتزل» مع الحكومة القيصرية بشأن تنشيط هجرة اليهود الروس. وحاجج بأن على القوى الأوروبية أن تساند الاستيطان في فلسطين، ليس فقط بسبب احترام الحقوق التاريخية التي يضمنها الكتاب المقدس، بل وأيضاً بسبب ميل الأوروبيين لإبعاد اليهود. وقد اقترح شامبرلين - في بادئ الأمر - إقامة المستوطنة في أوغندا، إلا أن هذا الاقتراح تم مناقشته بشكل مطول في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد في بازل دون التوصل إلى نتيجة (٢٢ - ٢٨ أغسطس

١٩٠٣) . وأكد «هيرتزل» و «نوردو» أن أوغندا ما هى إلا مرحلة انتقالية للوصول إلى الهدف النهائى ألا وهو فلسطين . ولكن خوفًا من وقوع انقسام داخل الحركة الصهيونية، رفع «هيرتزل» يده اليمنى وقال « إذا نسيتك يا قدس فلتشل يدى اليمنى» مرتلاً ما جاء فى المزمور ١٣٧ : ٥ (لاكور ١٩٧٢ : ١٢٩). وهكذا استبعد المؤتمر السابع ـ الذى لم يشارك فيه هيرتزل ـ كليّا ونهائيّا فكرة إقامة دولة يهودية فى أوغندا .

وعلى الرغم من تدهور أحواله الصحية، زار «هيرتزل» روما يوم ٢٣ يناير ١٩٠٤ وقابل الملك «ڤيكتور إمانويل الثالث» و«پيوس العاشر». وردّا على طلب بإقامة الدولة اليهودية فى طرابلس، قال الملك : ولكنها أرض شعب آخر (هيرتزل ١٩٨٣ - ١٩٩٦ : II، ٦٥٣). ولم يقبل كل من البابا «پيوس العاشر» ولا وزيره الكاردينال «مرى دل ڤال» تقديم أية مساندة بأى شكل من الأشكال للنوايا الصهيونية (هيرتزل ١٩٦٠ : ٤، ١٦٠٢-١٦٠٣) معارضين ذلك لأسباب دينية (كروتز ١٩٩٠ : ٣٣). وآخر ما دونه «هيرتزل» كان يوم ١٦ مايو ١٩٠٤ . ومات فى إدلاش يوم ٣ يوليه . وأثناء مراسم الدفن، شبهه «زانجويل» بـ «موسى» الذى سمح الله له ـ فقط ـ بإلقاء نظرة على أرض الوعد . ولكن مثل «موسى»، كان« هيرتزل» قد وضع يده على رءوس العديد من أمثال «يشوع»، فأعطاهم روحه وحكمته وذلك لاستكمال عمله (زانجويل ١٩٣٧ : ١٣١ - ١٣٢).

نقد «هيرتزل»

أمد «هيرتزل» الحركة الصهيونية بالإلهام، والقيادة، والتنظيم، وأسفر كل ذلك عن إعلان «بن جوريون» قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨ . لم تنحصر عبقريته فقط فى تحليله لظروف اليهود، ولا فى وضوح فكرته ونظرته للحل، ولكن فى قدرته على تحويل خطته إلى حقيقة بفضل تنظيم مدهش، وبفضل حسه الديپلوماسى. وكان رجل أفعال بشكل خاص مثلما يقول «مارتن بوبر» . حيث كان يتم تشبيهه بمسيح، أو بملك إسرائيل، أو بأنه تحقيق لنبوءات الكتاب المقدس. وتوضح مذكراته ومراسلاته طموحه الكبير للبحث بكل الوسائل والطرق عن الدعم لقضيته . فالقول بأنه قابل القيصر والسلطان والملك والبابا وتعامل معهم كرئيس دولة يعد أمرًا ذا دلالة كبيرة. وسمح موته المبكر بالاحتفال به من قبل جميع المجموعات والحركات الصهيونية .

ولم يُمْلد الحافز الدينى ولا أوامر الكتاب المقدس على «هيرتزل» الرجوع إلى أرض إسرائيل القديمة «أرض الوعد». كان للصهيونية التى يدعو إليها مفهوم مشابه للقومية الألمانية، بالتأكيد على الأمة، فولاء الألمان حيثما عاشوا هو لألمانيا، كذلك اليهود ولاؤهم للأمة اليهودية، التى يتوقف نجاحها على إقامة الدولة اليهودية.

أسهمت عصور النهضة والإصلاح فى أوروبا فى إنشاء مجتمعات دول جديدة تتعارض مع فكرة العصور الوسطى عن الإمبراطورية العالمية. وعلى الرغم من أن المبدأ الأساسى لقيام القوميات [وبالتالى الدول القومية] الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الطبيعة الخاصة لكل مجتمع، وكذلك الرغبة فى الاستقلال عن السلطة الإمبريالية، إلا أن الصهيونية لم تتبلور فى مثل هذا السياق، و إنما ترجع مطالبة اليهود بإقامة دولة منفصلة ـ مثلما كان الحال بالنسبة لكل الأمم الأخرى ـ إلى تناول خاص.

ولم تشر خطة «هيرتزل» إلى حق السكان الأصليين؛ حيث كانت حججه تستند على فكرة أن فلسطين كانت أرضًا خالية، صحراء قاحلة، تحت التصرف الحر للقوى الخارجية. وعلى الرغم من هذا، كان يعلم ما سيكون ضروريًا لإقامة دولة يهودية على أرض يقطنها بالفعل شعب آخر. ونقرأ فى إشارة له فى مذكراته يوم ١٢ يونيه ١٨٩٥ مايلى:

> **وعندما نحتل الأرض سنجلب الفوائد الفورية للدولة التى تستقبلنا. ويجب أن نصادر الأراضى التى تمنح لنا [من أصحابها] بشكل لطيف. وسنحاول أن نشجع الشعب الفقير [صاحب الأرض] على عبور حدودنا إلى الدول المعابر [الانتقالية] وأن ندبر لهم العمل فى دول أخرى، ونحرمهم من أى عمل لدينا. وسيكون الملاك فى جانبنا. ويجب تحقيق كل من انتزاع الأراضى واستبعاد الأهالى الفقراء بشكل حكيم وحذر (هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٨٧ – ٨٨).**

لكن فى بادئ الأمر، كان يظن أنه قبل استبعاد السكان الأصليين يجب على الصهاينة أن يستعملوا اليد العاملة المحلية ـ لاسيما عندما يعانى العمال من الحمى ـ وذلك حتى يتم حماية الصهاينة.

خلفية رؤية «هيرتزل» وخطته

وإذا كان هناك بالفعل رغبة كبيرة فى العودة إلى جبل صهيون فى جميع فترات التاريخ اليهودى، فقد تم التعبير عنها فى دعاء «العام المقبل فى القدس»، فإنه لا يجب الخلط بين الرغبة الدينية فى القدس ومعبدها، مع الرغبة فى إقامة دولة لليهود فى فلسطين. وساندت الحركات القومية اليهودية، داخل السياسات الأوروپية المضطربة من بعد الثورة الفرنسية هذا الهدف الصهيونى، وكانت بمثابة الرد على الأمل فى أن يحل التحرر المدنى المشكلة اليهودية[1]. وعلى الرغم من وجود فروق كثيرة بين الصهيونية، والحركات القومية والإمپريالية الأخرى، إلا أنه يمكن اعتبار الصهيونية نتاجًا لمجموعة هذه الحركات. وساعد العديد من العوامل بعض اليهود على تبرير فكرة إقامة دولة فى فلسطين بعد عدة قرون من الخمول، ونذكر من هذه العوامل: خدعة الذوبان [ذوبان اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها]، صعود معاداة السامية، ظهور النظريات العنصرية فى ألمانيا، ومذابح اليهود فى روسيا فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الخ. ولكن هذه العوامل وحدها لم تكن كافية لتبرير العودة إلى صهيون، لأن اليهود الذين عانوا من الاضطهاد فى أماكن مختلفة لم يهاجروا أبدًا إلى فلسطين، بل توجهوا إلى دول أخرى. والجدير بالذكر أنه لم يتوجه إلى فلسطين إلا ١٪ من إجمالى ٣ ملايين من اليهود الذين هربوا من روسيا مابين ١٨٨٢ و١٩١٤ فرارًا من المذابح ومن سياسة معاداة السامية التى كانت تمارسها الحكومة القيصرية (أڤينيرى ١٩٨١ : ٥).

ومن خلال تاريخهم، حافظ اليهود على وحدتهم بشكل مدهش بفضل إخلاصهم القوى لقيمهم الدينية المشتركة، إلا أن المنهج العلمى الذى ظهر على يد «ديكارت» و«لوك» و«نيوتن» فى القرن السابع عشر والذى أدى إلى ظهور عصر التنوير، قد تحدى بشكل جدى الهوية اليهودية. واتسمت المعرفة باستقلال البحث والنقد [عن سلطة الكنيسة والكتاب المقدس]، والتى تقوم على العقل والملاحظة والتجربة، دون أن تتأثر بأى مذهب أو تقليد أو سلطة باستثناء المنطق والفكر المستقل. وكانت الحركة التنويرية تتشكك بشكل عام فى التأكيدات الدينية، بل وغالبًا ما كانت معادية لها.

---

(١) حوالى ٩٠٪ من ٥ , ٢ مليون من اليهود [إجمالى عدد اليهود فى العالم] كانوا يعيشون فى أوروپا فى بداية القرن التاسع عشر. وكان هناك ارتفاعٌ ملحوظٌ فى تعداد الشعب اليهودى فى العالم منذ القرن الخامس عشر وحتى ١٩٣٩.

وكان التمييز العنصرى مشكلة فى مناطق مختلفة؛ وعبرت عن نفسها فى مظاهر القمع المتكررة. ومنذ أن صوتت الجمعية الوطنية الفرنسية على الاعتراف بمواطنة اليهود وإلغاء التمييز (٢٨ سبتمبر ١٧٩١) تحسن وضع اليهود بصورة طفيفة. ومنذ ١٨٦٠، تم القبول ـ بشكل عام ـ فى أوروبا بمساواة اليهود مع بقية المواطنين (هالپيرن ١٩٦٩ : ٤). وبالفعل ومنذ تدمير الهيكل، يتضح أن القرن التاسع عشر كان أفضل فترة عرفها اليهود كأفراد وكجماعات؛ حيث انتقلوا من وضعهم كأقلية مهمشة فى بداية القرن إلى أكثر المستفيدين ـ لمائة سنة ـ من فترة عصور التنوير والتحرر و الثورة الصناعية (أڤينيرى ١٩٨١ - ٥ - ٦).

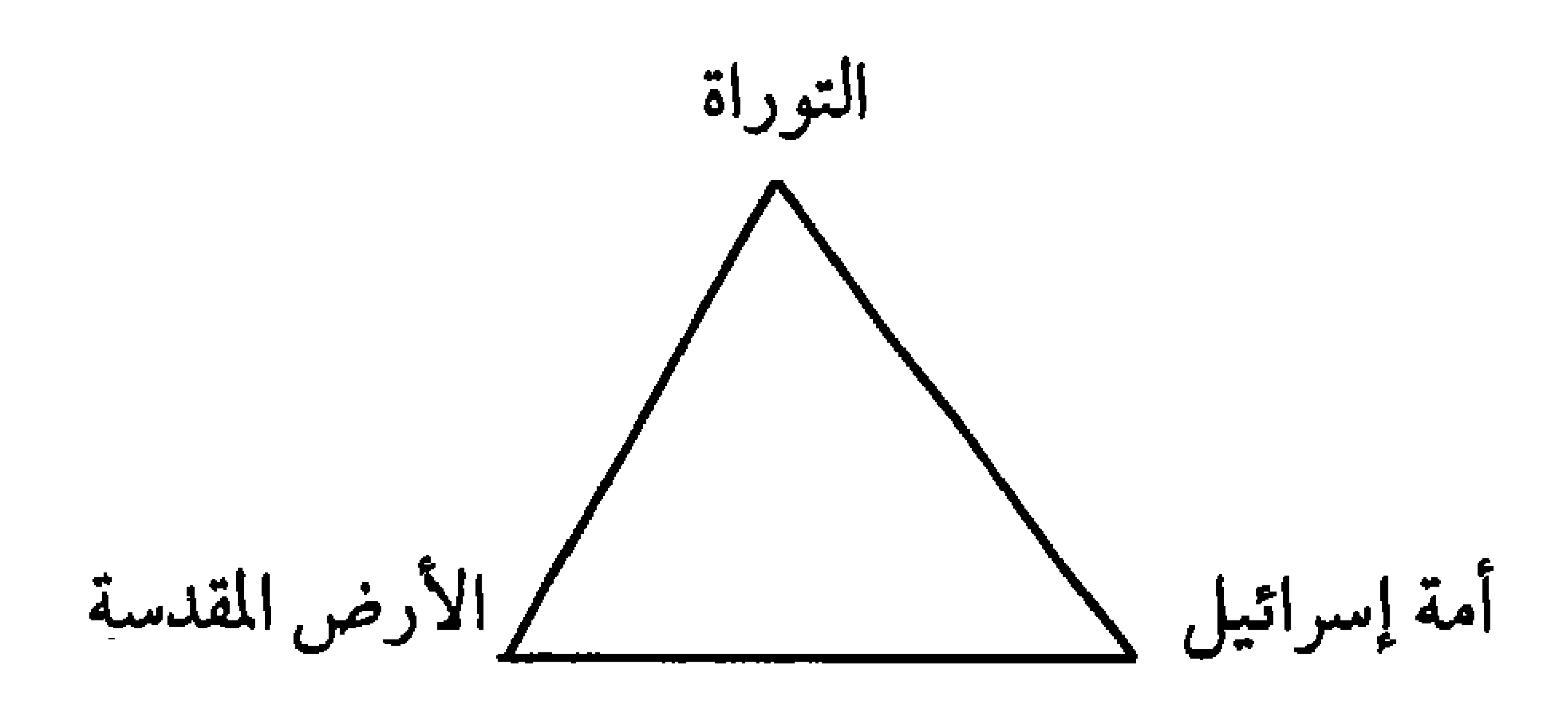
ولكن بقى خطر يداهم اليهود ألا وهو «ذوبان» اليهود الأوروپيين فى المجتمعات التى يعيشون فيها، ذلك المصطلح المعبأ بالهلع المرضى لدى اليهود من الأجانب، من ناحية، وعقدة الأعلوية من ناحية أخرى. وأدى التنوير والتحرر إلى ظهور مناخ جديد تخلى فيه بعض اليهود عن عدد من ممارساتهم التى كانت تشكل أساس مجتمعهم. وأكد اليهود الغربيون أنهم ليسوا أمة منفصلة [عن الدول التى يعيشون فيها]، بل جسداً دينيًا كان يرفض العودة إلى صهيون (هالپيرن ١٩٦٩ : ١٠) وقد اشتكى «ڤيلهلم مار» ـ وهو أول من استعمل مصطلح معاداة السامية[1] ـ نفوذ اليهود الذى تخلل بقوة الحياة الاقتصادية الأوروپية (لاكير ١٩٧٢ : ٢٨- ٢٩). بينما شكلت الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر فترة سعادة لليهود فى ألمانيا، إلا أن العداء بدأ يظهر فى السبعينيات، وكان الاتجاه فى روسيا يتمثل فى إذابة اليهود خلال الستينيات والسبعينيات، وكان اليهود فخورين بذلك حتى بداية المذابح فى الثمانينيات، والتى وجهت ضربة قاضية للذوبان التام.

وعلى الرغم من أن «هيرتزل» لم يتأثر بالأيديولوچيات التى سبقته، فإنه من الواضح أن بزوغ الأفكار الصهيونية فى أماكن مختلفة فى القرن التاسع عشر، شجع

(١) تنطبق الصفة السلبية «معاداة السامية» فى اللغة الشعبية وبدون غموض على كل ما يبدو أنه معاد لليهود، انطلاقًا من ممارسات «هتلر» إلى نقد منظمات حقوق الإنسان لممارسات دولة إسرائيل. إلا أن هذه الكلمة غير دقيقة و غير واضحة. وفى القرن الثامن عشر، كان اللغويون يقسمون الشعوب إلى مجموعات لغوية وفقًا للغة التى يتكلمونها، وبسبب التشابه الموجود فى مجموعة لغوية ـ تم جمعها فى فئة اللغات السامية. وعلى هذا الأساس تم تحديد اسم الشعوب مما أدى إلى ظهور الألفاظ السامية واللاسامية. ولكن عبارات مثل كراهية اليهود أو حقد اليهود أكثر ملاءمة، وكذلك يتم التعبير عن كراهية النازى لليهود بالمصطلحين الألمانيين : judenhass أو Judenfeindschaft.

استقبال برنامجه. وأسهم ديوان «بيرون»: «الألحان اليهودية» وقصة «ديزرائيلى»: «تانكريد» وقصة «چورج إيليوت»: «دانيال ديروندا» (١٨٧٦)[1] فى تطور فكرة عودة اليهود إلى فلسطين. وفى ألمانيا عام ١٨٤٠، أعلنت مقالة مجهولة المؤلف القبول بفكرة إقامة دولة يهودية، ولكن لأسباب عملية رفضت أن تكون إقامتها فى فلسطين. فقد اقترح الكاتب ولاية أركانسو أو ولاية أوريجون فى الولايات المتحدة، كدولة لليهود حيث كان يمكن شراء أرض كبيرة فى مساحة فرنسا بسعر قدره ١٠ ملايين دولار، وسوف يمارس فيها اليهود أقصى طاقاتهم. وفى مقالة أخرى مجهولة تم نشرها فى «أورينت» يوم السابع والعشرين من يونيه ١٨٤٠ اقترح الكاتب أن الحل الأمثل لمشكلة اليهود فى أوروبا، هو العودة على وجه السرعة إلى فلسطين حيث يمكن إقناع الوالى محمد على بحمايتهم.

ونكتشف أن هناك تطوراً فى الأفكار يقترح أن إقامة دولة يهودية هى الحل المنطقى والمعقول للمشكلة. وكان «هنريخ جرايتز» (١٨١٧ - ١٨٩١) أنشط داع لفكرة الأمة اليهودية (أڤينيرى ١٩٨١ : ٣٥). وكان يؤكد أن اليهودية تحتاج إلى تعبير وتطبيق على أرض الواقع بشكل واضح، وأن طبيعتها التى يختلط فيها ما هو دينى بما هو سياسى، تحتاج إلى بلورة هذه الفكرة بالحصول على أرض[2]. وإذا كانت الشريعة هى روح اليهودية والشعب اليهودى هو موضوعها التاريخى، فالأرض المقدسة هى أساسها المادى. وتؤدى هذه الحلقة إلى المثلث التالى:



(١) وفى السابع من يونيه ١٨٩٥ قرر «هيرتزل» قراءة شعر إليوت... وقال «زانجويل» إن من اخترع الصهيونية هو [هى] «چورج إليوت» (١٩٢٠ : ٧٨).

(٢) وما بين ١٨٥٣ و ١٨٧٦، نشر «جرايتز» كتابه ذا الأحد عشر مجلداً: قصة اليهود منذ الأزمنة القديمة، والذى تم ترجمته إلى لغات أوروبية عديدة.

يرى «أڤينيرى» أن هناك علاقة روحية بين هذه العناصر الثلاثة التى تجمعها علاقة غير مرئية لا يمكن التخلى عنها . وبدون حياة اليهود القومية على الأرض ، فلن تكون إلا ظلاً للحقيقة (أڤينيرى ١٩٨١ : ٢٨ - ٢٩) .

ولعب تطور التطرف القومى فى القرن التاسع عشر فى أوروپا دوراً هاماً فى التأثير على القومية اليهودية . وبالتأثر بكتاب روما لـ «جيسپى مازينى» وبصعود القومية الإيطالية ، وكتاب «روما والقدس» (١٨٦٢) للكاتب «موسى هيس» (١٨١٢-١٨٧٥) ، وهو أول من دعا بشكل منظم إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، وذلك بتحرير المدينة الأبدية القائمة على جبل المُرَيَّا ، على مثال تحرير المدينة الأبدية القائمة على نهر التيبر (أڤينيرى ١٩٨١ : ٣٩ - ٤٢)[1] .

ووفقًا لتصور «هيس» فإن اليهود لا يشكلون فقط مجموعة دينية بل يشكلون أمة منفصلة عن بقية العالم ، وجنسًا خاصًا يجب أن يحافظ على نفسه من الاندماج داخل المجتمع الأوروپى ، ويؤكد وضعه الفريد ، بإقامة مركز قومى يهودى فى فلسطين يتم اعتباره نموذجًا من أنواع الكومنولث الاجتماعى الحديث . وكان كل من «پينسكر» و«هيرتزل» يجهلان أفكار «هيس» ، وظهرت طموحاتهما فى الميول الاجتماعية القومية اليهودية لاحقًا .

وبينما حافظت المؤسسة الدينية على النظرة التقليدية إلى مفهوم الخلاص وقدوم المسيا (المسيح) ، اقترح اثنان من الحاخامات على اليهود أن يلعبوا دوراً أكثر نشاطًا فى تعجيل عملية الخلاص . وفى كتابه «Minhat Yahuda» (١٨٤٥) حدد الحاخام «يهودا ألكالاى» من البوسنة (١٧٨٨ - ١٨٧٨) المكان الجغرافى لقدوم المسيا المخلص . وبالمحافظة على المذهب التقليدى -والذى وفقًا له فإن المسيا هو الذى سيخلص البشر- أكد أن عودة اليهود إلى صهيون يجب أن تسبق مجىء المخلص . وكان «ألكالى» يأتى بحججه من تفاسير التوراة والتلمود ليضع حداً للانتقادات التى تتهمه بـ «تعجيل قدوم نهاية العالم» . وكان يقترح إحياء اللغة العبرية و إنشاء صندوق دائم و إقامة جمعية تمثل اليهود (أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٠ - ٥١) . وفى ١٨٥٧ دعا إلى إقامة الدولة اليهودية ، وربما كان أول من دعا إلى ذلك ، وفى أيامه الأخيرة ، هاجر إلى القدس .

(١) أكد «هيس» فى بداية فكره ، أنه لن يكون لليهود مستقبل ؛ إلا إذا تخلوا عن هويتهم وأصبحوا مواطنين عالميين ، أما أورشليم الجديدة فى نظره ، فهى التى تستند على القومية أكثر منها على الدين ، ومن المفروض إقامتها فى قلب أوروپا وليس فى فلسطين .

ومنذ ١٨٣٢ أكد الحاخام «زوى هيرش كاليشير» من پوسين (١٧٩٥- ١٨٧٤) أن استعادة صهيون لن تتحقق إلا بفضل تحرك الشعب اليهودى، وأن معجزة المسيا ستأتى بعد ذلك. وفى عام ١٨٦٢، وهو العام الذى نشر فيه «هيس» كتابه، نشر «كاليشير» كتابه «السعى وراء صهيون» والذى كان به العديد من أوجه التشابه مع آراء «ألكالاى»، وكانت تقترب بشكل كبير من نتائج «هيس» مع اقتراح خطة مختلفة. وكانت نقطة انطلاقة الكتاب المقدس و المشناة والتلمود:

لن يكون خلاص إسرائيل والذى نتطلع إليه، معجزة مفاجئة. إن الله هو الجبار المتعالى، فليكن اسمه مباركًا، لن ينزل فجأة من السماء ويطلب من شعبه البدء فى المسيرة، ولن يرسل أيضًا المسيا فى غمضة عين لينفخ فى البوق للمشتتين من بنى إسرائيل ويجمعهم فى القدس. ستأتى استعادة إسرائيل تدريجيًا وسيشرق نور الخلاص أيضًا تدريجيًا (كاليشير فى أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٣).

ويرى «كاليشير» أن استقرار اليهود على أرض إسرائيل قد يُعجل يوم الفداء. ويجب أن يأخذ ذلك شكل جماعات زراعية تتمتع باعتماد ذاتى حسب الأوامر الدينية. وعندما يتم تحرير الأرض بهذه الطريقة الدنيوية، سيشرق نور الخلاص السماوى تدريجيًا (فى أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٤).

وتحدث كل من «كاليشير» و«ألكالاى» عن إمكانية ضم الفكر القومى والتحرر الحديث مع تقاليد اليهودية التى يطبقها الحاخامات. وأراد كل منهما أن يؤثر على مذهب المسيانية السلبية وذلك لتحقيق هوية ثقافية وقومية داخل الثقافة المحيطة. وكانت مهمة اليهود هى القيام بالخطوات الأولى والتسريع بقدوم مسيا الفداء[1]. وبرغم أن كلاً من «ألكالاى» و «كاليشير» كان منعزلاً عن بقية الحاخامات فى القرن التاسع عشر، فقد أظهرا جيدًا كيفية إعادة تفسير الهوية اليهودية وأهدافها وآمالها فى العالم الذى كان يتغير بشكل جذرى. كان تركيزهما على مفهوم الهوية الجماعية لليهود على المستوى الثقافى والدينى يتفق مع طموحات الصهيونية القادمة، والتى كانت ترجع جذورها الثقافية بشكل كبير إلى التقاليد العلمانية والقومية للقرن التاسع عشر فى أوروپا أكثر منها إلى التقاليد الدينية.

(١) ظهر نزاع مماثل فى اللاهوت المسيحى بشأن دور المسيحيين الذين ينتظرون قدوم المسيح. انظر مثلاً، الآراء التى اقترحها «ألبرشت ريتشل» (١٨٢٢ - ١٨٨٩) وزوج ابنته «يوهانس ڤايس» (١٨٤٣ - ١٩١٤).

واهتزت ثقة «ليو پينسكر» (١٨٢١ - ١٨٩١) وهو مناصر لفكرة ذوبان اليهود، في مستقبل اليهود في روسيا بسبب أحداث الشغب التي وقعت في أوديسا عام ١٨٧١، كما ضاعت أحلامه مع المذابح الروسية لليهود عام ١٨٨١. ونشر مقالة لم يشر فيها إلى اسمه - وكان يجهل أعمال هيس - أكد فيها أن معاداة السامية هي وسواس نفسي موروث لا يمكن علاجه (١٨٨٢). وليس لليهود أي أرض تعتبر وطنهم، فهم غرباء بامتياز في هذا العالم. والعديد منهم لم يكن يأمل في قيام وطن قومي مستقل، يشبهون في ذلك المريض الذي فقد شهيته تمامًا.

وتعين على اليهود الروس أن يهاجروا ليفروا من وضعهم كطفيليات، وكان عليهم أن يستقروا في وطن خاص بهم. وفي هذا الصدد نظمت الجمعيات اليهودية مؤتمرًا قوميًا لشراء أراض حتى يتسنى لملايين اليهود الإقامة عليها، وذلك بدعم من الدول العظمى التي كانت ستضمن لهم الاستقرار. وبما أن الأرض المقدسة كانت صعبة المنال، فيمكن الاستقرار في أية أرض مثل أمريكا الشمالية أو تركيا.

وناقش العديد من اليهود علنًا إمكانية الاستقرار في فلسطين وإحياء اللغة العبرية. وفي ١٨٧٧، اقترح الشاعر «يهودا ليب جوردون» تحت اسم مستعار إقامة دولة يهودية في فلسطين تحت السيادة البريطانية. أما «أليعازر پيرلمان» (بن يهودا)، فقد كان يأمل في إحياء اللغة العبرية، ولا يمكن لذلك أن يكون إلا في فلسطين. وأعلن «موشي ليب ليلين بلوم» (١٨٣٤ - ١٩١٠) - الذي اعتبر أن اليهود سيكونون دائمًا أغرابًا - «نحن نحتاج لأرض لنا، نحتاج لفلسطين». ومنذ ١٨٨١، نادى وطالب بشراء أراضٍ في فلسطين.

وخلال عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩، حاولت مجموعة من اليهود أن تقيم مستوطنة زراعية اسمها «پيتا تيكڤا» على مساحة تبلغ ٣٠٠٠ دونوم (الدونوم ألف متر مربع) وذلك في شمال شرق يافا. وقد فشلت هذه المحاولة إلا أنها أعطت أفكارًا ليهود روسيا والذين تبين أنهم ليسوا أفضل مهارة في الزراعة (ليهن ١٩٨٨ : ٩). وبعد مذابح اليهود في روسيا عام ١٨٨١، ارتفعت معدلات هجرة يهود روسيا ورومانيا، حيث استقرت ١٤ عائلة على مساحة تقدر بـ ٣٢٠٠ دونوم في ريشون تسيون جنوب شرق يافا في أغسطس ١٨٨٢. وفي العام ذاته، أقام ٢٠٠ مهاجر من رومانيا مستوطنة «زخرون

يعكوف» بالقرب من الساحل فى جنوب حيفا؛ كما أقامت ٥٠ عائلة رومانية مستوطنة «روش پيناه» شرق صفد، ولحق بهم بعد ذلك مهاجرون آخرون، و فى نهاية ١٨٨٤ أصبح هناك ٨ قرى يهودية جديدة تضم ٢٤١٥ نسمة عام ١٨٩٠. وبالنسبة للفترة ما بين ١٨٨٢ إلى ١٩٠٣، كانت نسبة الهجرة إلى فلسطين ٣٪ من إجمالى هجرة يهود أوروبا (ڤيتال ١٩٧٥ : ٩٣، ٩٩-١٠٠).

وقد توصل فرع من جماعة «أحباء صهيون» فى روسيا ويطلق عليه «بيلويم» (انظر الحروف الأولى من كلمات إشعياء ٢ : ٥) إلى أن الحل الوحيد لتفادى التمييز ضد اليهود فى روسيا، يتمثل فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين. وقد هاجر ١٤ منهم فقط فى يوليه ١٨٨٢، ولم يتعد عددهم ٢٠ حتى نهاية عام ١٨٨٤، إلا أنه كان لهم شأن يفوق بكثير عددهم الصغير. وشمل مشروعهم إقامة مستوطنات يهودية مستقلة تتكلم العبرية ولا تستعمل إلا اليد العاملة اليهودية.

من الأسهل وضع قائمة بأسماء أبطال معاداة السامية فى القرن التاسع عشر، عن وضع قائمة بأسماء أبطال الصهيونية فى الفترة ذاتها، وبدون توضيح علاقة السبب ـ النتيجة بين عناصر القائمتين، فلن يستطيع المرء رؤية حجة مبكرة للتطور الضرورى لشكل خاص للمعيشة اليهودية. وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الأمر الذى كان يميز «هيرتزل» عمن سبقوه هو قدرته على التخطيط لرؤيته المثالية وعزمه الملحوظ على تحقيقها.

الصهيونية والإمبريالية الأوروپية

استوعب الصهاينة الأوائل أنه يتعين عليهم الحصول على دعم دولة أوروپية عظمى واحدة على الأقل ترى إقامة دولة يهودية فى فلسطين بشكل إيجابى. وتميزت فترة الحكم العثمانى بمناقشات حادة بشأن السياسة الدولية المتعلقة بالقدس والأراضى المقدسة (أوماهونى ١٩٩٤ : ١٣). وعينت إنجلترا قنصلاً فى القدس عام ١٨٣٨، أما بالنسبة للپروتستانت (الأنچليكان)، فقد أقاموا أسقفية لهم فى القدس عام ١٨٤١ (العسال ١٩٩٤ : ١٣١- ١٣٢). وزاد اهتمام إنجلترا بفلسطين بحصولها على أراضٍ

فى الهند مما استلزم تأمين طريق برى آمن وسريع. هذا بالإضافة إلى ضمان استمرار التجارة مع الخليج، وكذلك لإلزام والى مصر محمد على[1] حدود مصر. وخلال النصف الثانى من القرن، أثبت توسع المؤسسات المختلفة فى الأرض المقدسة، عودة الاهتمام الدولى.

احتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢، و خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى اتجه اهتمام إنجلترا إلى العراق. وفى الوقت ذاته ألقت فرنسا بثقلها فى سوريا للتعجيل بتفكيك الإمبراطورية العثمانية. وكان يتم كل هذا فى سياق استعمارى أكبر ظهرت من خلاله الصهيونية، فرضت فيه القوى الأوروپية العظمى تفوقها على الأمم الأخرى وحقها فى استغلال الشعوب الأخرى. ويقول «حاييم وايزمان» قائد الصهيونية وأول رئيس لإسرائيل:

> **يمكن أن نؤكد بشكل منطقى أنه إذا دخلت فلسطين تحت سيطرة إنجلترا، وإذا شجع الإنجليز استقرار اليهود تحت سلطتهم، نستطيع خلال عشرين أو ثلاثين سنة جمع مليون يهودى على هذه الأرض من شأنهم أن يطوروا هذه الأرض بشكل أكبر، ويقدموا لها الحضارة، ويشكلوا حرسًا فعالاً لقناة السويس(رسالة إلى المانشستر جارديان، نوڤمبر ١٩١٤ فى وايزمان ١٩٤٩ : ١٤٩).**

وكان وايزمان يعلم جيداً الفائدة التى كانت ستعود على إنجلترا من دعمها للصهيونية. وكان يعتقد أنه من البديهى أن تحتاج إنجلترا لفلسطين لحماية المدخل إلى مصر، وأنه إذا تم فتح فلسطين للمستوطنات اليهودية «سيربح الإنجليز حاجزاً فعالاً وسيكون لدينا وطن» (رسالة إلى زانجويل يوم ١٠ أكتوبر ١٩١٤ فى شتاين ١٩٦١ : ١٤- ١٥).

الحرب العالمية الأولى

كان لدخول الإمبراطورية العثمانية الحرب فى أكتوبر ١٩١٤ عواقب وخيمة أثرت

(١) «رجوع الشعب اليهودى تحت سلطة السلطان وحمايته، وبناءً على دعوته، كانت بمثابة ضمان ضد أى مشروع سيئ النية لمحمد على أو لخلفائه فى المستقبل» (من ڤايكونت پالمرستون، إلى ڤايكونت پونسونبى، ٢ أغسطس ١٨٤٠، وزارة الخارجية ٧٩ / ٣٩٠ (١٣٤) مكتب السجلات العام).

على تطورات الشرق الأوسط. وعندما أصبحت تركيا عدواً لإنجلترا، بحثت الحكومة البريطانية ـ التى كانت تخشى تصاعد معارضة إسلامية عدائية يقودها الخليفة العثمانى ـ عن مركز قوة إسلامى آخر مستقل نوعًا ما عن إسطنبول؛ ويُفضل أن يتبع النفوذ البريطانى، حيث توجهت لشريف مكة «الحسين بن على» ليرعى مصالحها. ووافق الشريف «ابن على» على هذا الأمر، ولكن بشرط أنه بمجرد أن تخسر تركيا الحرب، يتعين على الإنجليز أن يساندوا الاستقلال العربى فى كل شبه الجزيرة العربية (باستثناء عدن) وفى سوريا ولبنان [الشام] وفلسطين والأردن والعراق (إنجرامس١٩٧٢ : ١-٢) ووافق ـ مع تحفظات هامة ـ سير «هنرى مكماهون» المندوب السامى البريطانى فى مصر يوم ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ على «الاعتراف بالعرب ودعم استقلالهم داخل الأراضى التى عرضها شريف مكة، من قليقية بالشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى إيران» (رسالة إلى شريف مكة فى ياپ ١٩٨٧ : ٢٧٩).

لكن حصلت فرنسا، بموجب معاهدة «سايكس ـ پيكو» بين فرنسا و إنجلترا (٣ يناير ١٩١٦، على الضوء الأخضر لاحتلال قليقية وسوريا و لبنان، أما إنجلترا فحصلت على البصرة وبغداد والمنطقة الجنوبية من الشرق الأوسط. كما حصلت أيضًا على حيفا و عكا، أما باقى أراضى فلسطين فأصبحت تقع تحت حكم دولى غير محدد. ومن بين الفروق التى تم ملاحظتها بين بنود اتفاق «سايكس ـ پيكو» وبين رسالة «مكماهون» إلى «الحسين بن على»، نلاحظ وضع العراق و درجة الاستقلالية الممنوحة للدول العربية، ووضع وحيفا ووضع فلسطين. وعدم الإشارة لفلسطين فى رسالة «مكماهون» يقترح أنها قد تكون جزءاً من الدول العربية، بينما تنص معاهدة «سايكس ـ پيكو» على تدويلها.

ومهما كانت نوايا بريطانيا (استبعاد فلسطين من المنطقة العربية أم لا)، فإن رسالة «مكماهون» كانت رسالة نوايا أكثر منها اتفاقية رسمية. وبشكل أكثر وضوحًا، لا يتم احترام الوعود والتصريحات التى تمت تحت ضغوط الحرب؛ إلا إذا كانت تخدم المصالح بعد نهاية الحرب. وفى الوقت ذاته، أمر رئيس الوزراء الجديد «لويد چورچ» بالتقدم إلى فلسطين، واستولت القوات البريطانية بأمر من الجنرال «اللنبى» على

القدس يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧، كما استولت على حلب فى سپتمبر ١٩١٨. وعقب بداية انحسار القوات العثمانية فى ١٩١٧، وضعف المجهود الروسى، أصبحت إنجلترا القوة المسيطرة على المنطقة.

ومن جهتهم، لم يسجل الصهاينة إلا تطوراً طفيفًا فى بحثهم عن مساندة دولية لمشروعهم بشأن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين، وفى جهودهم المتمثلة فى استقرار عدد كبير من اليهود هناك قبل بداية الحرب. وتقول الإحصائيات إن عدد اليهود الذين استقروا فى فلسطين قبل بداية الحرب كان يتراوح ما بين ٣٨٠٠٠ و ٨٥٠٠٠ يهودى، أى ما يعادل من ٥٪ إلى ١٠٪ من إجمالى السكان[1]. ولم يُعتبر إلا نصفهم كصهاينة سياسيين. وبما أن معاهدة «سايكس ـ پيكو» لم تنص على أن لفرنسا مصالح فى فلسطين، رأت إنجلترا أن هذه المنطقة حيوية لمصالحها الاستراتيچية وحاجز لحماية مصر، وتحمى قناة السويس التى تؤدى إلى الهند، وكذلك رأت أنها عامل يربط بين مصالحها فى المنطقة و آمالها فى العراق. ومع نهاية الحرب، أصبح تداخل مصالح الإنجليز والصهاينة حقيقة، ففلسطين اليهودية سوف تخدم كحامية محلية تدافع عن المصالح البريطانية فى قناة السويس، وكذلك كجزيرة سياسية صغيرة تُكنُ الولاء لبريطانيا وسط دول عربية مستقلة حديثًا. و كان من البديهى أن لا يقبل عرب فلسطين الحلم الصهيونى، وبذلك أصبحت المساندة الإنجليزية ضرورية لتحقيق هذا الحلم.

---

(١) لم تكن هناك إحصائية دقيقة عن عدد اليهود الذين استقروا فى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى. ووفقًا لتحليل «جوستين ماكارثى» للوضع الديموجرافى، بلغ عدد سكان فلسطين ٤٥٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٨٠ منهم ١٥,٠٠٠ (أقل من ٥٪ من اليهود) وبعد ١٩١٤ صار هناك ٧١٠,٠٠٠ نسمة منهم ٣٨,٠٠٠ يهودى (أقل من ٦٪). ووفقًا لمصادر صهيونية، كان عدد اليهود يقدر بما بين ٨٠,٠٠٠ و ٨٥,٠٠٠ يهودى، إلا أنه يعتقد أن ٥٠٪ من المهاجرين اليهود، غادروا فلسطين ثانية بينما احتفظ البعض الآخر بجنسيته الأصلية بدلاً من أن يصير مواطنًا عثمانيًا (انظر خاليدى ١٩٨٨ : ٢١٣- ٢٣١). ووفقًا لـ«إنجرامس»، وصل عدد المسلمين عام ١٩١٤ إلى ٥٠٠,٠٠٠ مسلم وعدد اليهود ٦٠,٠٠٠ يهودى، ومثلهم من المسيحيين (١٩٧٢ : ١). و قد اشترى الصندوق الوطنى اليهودى الذى تم تأسيسه فى ١٩٠٧ - وكانت تتمثل مهمته فى الحصول على أرض لمستوطنات اليهود فقط ـ الأراضى العربية الأولى عام ١٩١٠ من ملاك محليين، وحصل الصندوق على أراض تقدر بـ[١٦٣٦٦ "دونوم] فى ١٩١٩ (لين ١٩٨٨ : ٣٠ - ٣٩). و أصر «أرثر روپين» (١٨٧٦ - ١٩٧٤) وهو مدير الصندوق فى فلسطين، على الفصل الاقتصادى [بين اليهود والآخرين] وفقًا للمبدأ «ساعد نفسك بنفسك».

المرحلة الثانية من الصهيونية (١٩١٧ - ١٩٤٨)

تعارضت مبادرات إنجلترا للوفاء بضمانات استقلال الدول العربية بعد الحرب، مع بنود معاهدة «سايكس - پيكو»؛ حيث وقعت إنجلترا فى مأزق مأساوى تمثل فى مساندتها للقضية الصهيونية - و فى الوقت ذاته - وعودها بضمان حقوق السكان الأصليين الفلسطينيين. ولن أتعرض إلا للتطورات الأكثر أهمية بشأن الصهيونية خلال الثلاثين سنة التى تفصل نهاية الحرب العالمية الأولى عن إعلان قيام دولة إسرائيل. وفى هذا الصدد، يتعين دراسة وعد «بلفور» وتصاعده إلى برنامج ساندته عصبة الأمم، وكذلك خطة التقسيم التى أقرتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧.

وعد «بلفور»

تم انتخاب «حاييم وايزمان» (١٨٧٤ - ١٩٥٢) رئيسًا للاتحاد الصهيونى الإنجليزى فى ١١ فبراير ١٩١٧. وسرعان ما أثر على سياسة الحكومة [البريطانية] بوجهة نظر تدعو لإصدار بيان يساند المشروع الصهيونى. و كان «اللورد إدوين مونتاجيو» العضو اليهودى الوحيد فى الحكومة، الذى كان يعتبر الصهيونية عقيدة سياسية ضارة، ولا يمكن أن يقبلها أى مواطن مخلص فى المملكة المتحدة (مايهيو ١٩٧٥ : ٥٠، فى آدمز ومايهيو ١٩٧٥)، قد حاجج ضد هذا الإعلان؛ حيث أكد أن مشروع إقامة دولة يهودية سيكون على حساب السكان الأصليين الذين سيتم طردهم (محضر اجتماع مكتب الحرب يوم ٤ أكتوبر ١٩١٧، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ١١). وأثناء الاجتماع، تعجب اللورد «كيرزون» من الطريقة المقترحة للتخلص من أغلبية السكان المسلمين واستبدال اليهود بهم. واقترح أن يتم ضمان حقوق متساوية لليهود المستقرين بالفعل فى فلسطين بدلاً من تنظيم هجرة على مستوى واسع يمكن اعتبارها «مثالية على مستوى المشاعر لكن لا يمكن تحقيقها» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٢). وقرر مجلس الحرب (وزراء حكومة الحرب) أن ينسق بين آراء اليهود الصهاينة وغير الصهاينة، و أن يقدم بصورة سرية مشروع إعلان للرئيس «ويلسون» وقادة الحركات الصهيونية، وكذلك أعضاء يمثلون المجتمع اليهودى البريطانى الذين يعارضون الصهيونية (پرو كاب ٢٣ - ٢٤ ذكر فى

إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). وكان من الواضح أنه ليس من الضرورى الاكتراث بالرأى العربى بشأن هذا المشروع. ونص مشروع اللورد «ميلنر» على:

> **تنظر حكومة جلالته بعين التفضيل إلى إقامة وطن قومى للعرق اليهودى على أرض فلسطين، وستبذل أفضل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا المشروع؛ ومن المفهوم الواضح أنه لن يتم ما قد يسبب المساس بالحقوق المدنية و الدينية للمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين، أو بالحقوق والحالة السياسيةلليهود الذين يعيشون فى دول أخرى، والذين هم راضون بشكل تام عن جنسيتهم ومواطنتهم الحالية (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٢ - ١٣).**

وأعرب كبير الحاخامات «هيرتز» عن رضائه التام عندما علم أن حكومة جلالة الملك تقدم دعمها القوى لتأسيس دولة للعرق اليهودى فى فلسطين. وقد رحب بفكرة المحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف الأخرى فى فلسطين، والتى لم تكن وفقًا له إلا «تطبيقًا لقانون موسى: إذا أقام فى أرضكم غريب فلا تظلموه، وليكن لكم الغريب المقيم عندكم كالمواطن. تحبه كما تحب نفسك، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر» (اللاويين، الإصحاح ١٩ : ٣٣ - ٣٤، إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). أما لورد «روتشيلد» فقد اعتبر أن هذا الشرط هو طعن فى الصهيونية؛ لأنه يفترض مسبقًا احتمال وجود خطر يهدد غير الصهاينة. لن يكون هناك أية عراقيل ضد حقوق السكان الآخرين فى الوطن (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). ودعا وايزمان إلى« إحداث تغييرين أو ثلاثة على الخطاب السابق» واقترح القيام بثلاثة تغييرات: استبدال كلمة «إعادة تأسيس» بكلمة « إقامة» بشكل يوضح «العلاقة التاريخية مع التراث القديم» بالإضافة إلى استعمال لفظة «الشعب اليهودى» بدلاً من «العرق اليهودى» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٤). وأكد «ناهوم سوكولوف» للحكومة أن «الضمانات التى تم الإشارة إليها . . . اعتبرها الصهاينة خارج السياق» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٥).

وعبرت شخصيات أخرى يهودية بارزة عن رفضها للبرنامج الصهيونى؛ حيث أكد السير «فيليپ ماجنوس»: «أن العلاقات العميقة التى تجمع إسرائيل ليست علاقة عرق بشرى واحد ولكن بسبب الديانة الواحدة. . . . ليس لدينا طموحات قومية أخرى ماعدا تلك التى تربطنا بالبلد الذى نولد فيه». وكان يرى أن فكرة قيام دولة قومية

لـ «العرق اليهودى» فكرة غير مرغوب فيها وغير مناسبة (إنجرامس (١٩٧٢ : ١٥). أما رئيس الجمعية الأنجلو يهودية «السير مونتفيور »فقد قال: « إن تحرر الجنس اليهودى فى بلدان العالم المختلفة كان أهم ألف مرة من فكرة إنشاء وطن» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٥ - ١٦). أما «إل. إل. كوهين» رئيس مجلس الحرس اليهودى، فقد أعلن رفضه لفكرة أن اليهود يشكلون أمة واحدة؛ بالتالى كان يرفض فكرة أنهم يشكلون كيانًا منفصلاً ويتمتعون بمصالح مختلفة عن المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٦).

وأكد وزير الخارجية «آرثر چيمس بلفور» لحكومة الحرب يوم ٣١ أكتوبر بأن إصدار بيان فى صالح الصهيونية، ينشط الدعاية المفيدة فى روسيا وأمريكا، هو أمر مطلوب على وجه السرعة؛ حيث ستقوم دولة يهودية مستقلة ـ فقط بعد إعلان حماية بريطانيا أو أمريكا لها، أو قوة [كبرى] أخرى ـ كتطور تدريجى متناسق مع القوانين المعتادة للتطورات(*) السياسية» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٧). خول مجلس الحرب «بلفور» اتخاذ الوسيلة الملائمة لإصدار الإعلان، وهو ما قام به فى خطاب إلى اللورد «روتشيلد». ويطلق على هذا الإعلان اسم «وعد بلفور» الذى أعطى الدعم الإمپريالى لإنشاء دولة يهودية:

عزيزى اللورد روتشيلد، **وزارة الخارجية**

٢ نوڤمبر ١٩١٧

إنه لمن بالغ سرورى أن أنقل إليكم، باسم حكومة جلالة الملك، «الإعلان» التالى عن التعاطف مع طموحات الصهيونية اليهودية التى تم تقديمها إلى المجلس [مجلس وزراء الحرب]، ومن ثم قبولها:

تنظر حكومة جلالته بعين التفضيل إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين. وستبذل أفضل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الهدف. ومن

(*) جاء فى النص: «ordinary laws of political evolution» وفى ذلك إشارة للداروينية السياسية ـ المترجمة.

المفهوم بوضوح أنه لن يتم ما قد يسبب المساس بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين، أو بالحقوق والحالة السياسية لليهود الذين يعيشون فى دول أخرى.

وسأكون ممتنًا إذا أبلغتم هذا الإعلان للاتحاد الصهيونى.

المخلص لكم

آرثر چيمس بلفور

ولم يشر الإعلان نهائيًا إلى اسم عرب فلسطين ولا إلى الحقوق السياسية لهم. واعترف «بلفور» أن أول من كتب هذا الإعلان فى صياغته الأولى - وبطلب منه - كان «روتشيلد» و «ووايزمان» (إنجرامس ١٩٧٢ : ٩).

ووفقًا لدوق «ديڤونشاير» الذى جاء بعد «تشرشل» فى منصب وزير الدولة للمستعمرات، فإن وعد « بلفور» كان إجراء حرب . . . تم اتخاذه لتوفير مزايا ملموسة تسهم فى تحقيق النصر النهائى للحلفاء مثل: كسب مساندة اليهود للحلفاء، والتعجيل بدخول أمريكا للحرب (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٧٣). واعتبر العرب هذا الإعلان بمثابة خيانة؛ إلا أنه تم تجاهل اعتراضهم لهذا الظلم الجائر الذى كان يتمثل فى توطين شعب غريب على أرض عربية (مايهيو ١٩٧٥ : ٤٠ -٤١ فى أدامز ومايهيو ١٩٧٥). كانت مساندة إقامة وطن يهودى [دولة] بدون موافقة السكان الأصليين [للأرض] مغامرة متهورة: «فى هذه الوثيقة [وعد بلفور] وعد شعبٌ، شعبًا ثانيًا، بإعطائه أرض شعب ثالث (كويستلر ١٩٤٩ : ٤). وكانت جرأة المشروع فادحة لدرجة أنه فى ١٩١٩ كان عدد اليهود فى فلسطين يقدر بـ ٩,٧٪ من السكان، يمتلكون ٢,٠٤٪ فقط من الأراضى (خاليدى ١٩٩٢ : ٢١).

عكست رسالة بعث بها «وايزمان» إلى «بلفور» فى ٣٠ مايو ١٩١٨، قيمًا عنصرية وإمپريالية للتأثير عليه. كتب عن طبيعة العربى التى تتسم بالخيانة والابتزاز، وعقله الملىء بالتفاهات والحيل، مقارنة بالعقل الإنجليزى المتنور الأمين والنظيف والعادل. هذا بالإضافة إلى أنه إذا كان الفلاح [العربى]، متأخرًا بأربعة قرون، فإن الأفندى [العربى] غير أمين، وغير متعلم، وطماع، وغير وطنى، وغير كفء (وايزمان فى PO FO. 37/3395، فى إنجرامس١٩٧٢ : ٣١ - ٣٢). ولم يكن «بلفور» ولا القوى العظمى يهتمون من الأصل بالسكان الأصليين.

فى فلسطين، ليس من نوايانا البحث عن آمال السكان الحاليين لهذا البلد . . . حيث التزمت القوى الأربع العظمى أمام الصهيونية. وتضرب الصهيونية سواء كانت على صواب أم لا، صالحة أم سيئة - بجذور تاريخها الطويل فى التقاليد، وفى متطلبات الحاضر وفى آمال المستقبل، وبأهمية أعمق من رغبات ٧٠٠,٠٠٠ عربى يقطنون هذا البلد فى الوقت الحالى والأضرار التى قد تلحق بهم. ومن وجهة نظرى، هذا الأمر عادل. . . لا أظن أن الصهيونية ستقضى على العرب. ومهما كان قدر المراعاة التى تكنها القوى العظمى لآراء الذين يعيشون هناك، فالقوى العظمى فى اختيارها لقرارها، ليس لديها النية لمشاورتهم. وباختصار فيما يخص فلسطين، لم تلتزم القوى العظمى بحقيقة تعترف بأنها غير صحيحة، ولا بالإعلان عن سياسة - على الأقل فى الخطاب - لم تنو دائمًا انتهاكها (مذكرة بلفور إلى اللورد كيرزون ١١ أغسطس ١٩١٩، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٧٣).

وقد أنشأت وزارة الخارجية هيئة خاصة تخضع لإدارة «هيامسون» للبدء فى الدعاية اليهودية. وتم إرسال منشورات إلى جميع المجتمعات اليهودية فى العالم. وتم إسقاط المنشورات فى الأراضى الألمانية والنمساوية، كما تم توزيع منشورات باللغة اليديشية للجنود اليهود فى جيوش أوروبا الوسطى بمناسبة سقوط القدس؛ جاء فيها: «جاءت ساعة تحرير اليهود. . . ويجب أن تصبح فلسطين موطن الشعب اليهودى ثانيًا. . أعطى الحلفاء أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل» والهدف كان تشجيعهم على إيقاف قتالهم ضد الحلفاء (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٩).

وبناءً على اقتراح لجنة الشرق الأوسط، أرسل مجلس الحرب لجنة صهيونية إلى فلسطين لتعزيز نوايا حكومة جلالته. وكان يقودها «وايزمان» الذى أكد للعرب أنه:

. . . كان يهدف إلى رؤية الفلسطينيين تقودهم حكومة مستقرة على غرار حكومة بريطانيا العظمى، وأن الحكومة اليهودية ستكون حتمية، وأن رغبته - ببساطة - هى إقامة وطن لليهود على الأرض المقدسة ليمارسوا حياتهم كأمة، وأنهم سيتشاركون نفس الحقوق مع السكان الآخرين (مذكرة الماچور كورنواليس، ٢٠ أبريل فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٢٩).

وأكد لعرب ويهود يافا قائلاً: «ليس هدفنا هو السيطرة على السلطة العليا والإدارة في فلسطين ولا أن نجرد السكان من ممتلكاتهم»(*)(إنجرامس ١٩٧٢ : ٣٠).

هذا وعرض «وايزمان» براعته الدبلوماسية على وزارة الخارجية يوم ٤ ديسمبر ١٩١٨، و أكد لـ «بلفور» قائلاً: «قد يشع المجتمع اليهودى فى فلسطين المكون من ٤ ملايين إلى ٥ ملايين يهودى [الحضارة] إلى الشرق الأدنى؛ حيث سيسهم فى إعادة إنشاء هذه الدول التى كانت مزدهرة فى الماضى. ولتحقيق هذا الهدف، يجب إقامة دولة قومية حقيقية وليس فقط الحصول على مستوطنات بشكل يسمح بإقامة مجتمع يبلغ عدده من ٤ ملايين إلى ٥ ملايين يهودى فى جيل واحد، وجعل فلسطين دولة يهودية» (فى PRO. FO. 31/3385، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٤٦). كانت جاذبية مثل هذا الاقتراح للمصالح البريطانية معتبرة. وفى مذكرة للقائد الأعلى فى وزارة الحرب التى تحمل عنوان «الأهمية الاستراتيجية لسوريا فى الإمبراطورية البريطانية» (٩ ديسمبر ١٩١٨) جاء: «إن إنشاء دولة يهودية كدولة حاجزة فى فلسطين، حتى وإن كانت هذه الدولة ضعيفة، فهى مطلوبة استراتيجيًا لبريطانيا العظمى» (فى كيالى ١٩٧٩ : ١٦ - ١٧). وبحلول ١٩١٧، كان نصر الحلفاء وتفكك الإمبراطورية العثمانية وشيكًا، الأمر الذى ضمن لبريطانيا العظمى السيطرة على فلسطين.

أما بالنسبة للمعنى الذى يجب إعطاؤه لـ «الوطن القومى اليهودى»، رد «لويد چورچ» على «وايزمان»: «كنا نعنى دولة يهودية»(**)، وتم التأكيد على هذا أثناء الحديث مع رئيس الوزراء و«بلفور» و «تشرشل» و« وايزمان». وفكرة أن الإنجليز كانوا يستعملون كلمة «وطن قومى» بدلاً من « دولة» كان أسلوبًا يهدف إلى عدم إثارة المعارضة العربية؛ وهذا يتضح جيدًا فى مذكرة «هيربرت يونج» من وزارة الخارجية الذى كتب عام ١٩٢١ : «يجب القول بأن أخذ المعارضة الفلسطينية فى عين الاعتبار كان مشكلة تتعلق بالأسلوب وليس أبدًا بالاستراتيجية؛ حيث كانت الاستراتيجية العامة هى تشجيع الهجرة التدريجية لليهود إلى فلسطين، حتى يصبح هذا البلد به أغلبية يهودية . . . إلا أنه كان علينا التساؤل عما إذا كنا فى وضع يسمح لنا بأن نقول للعرب

(*) هذا هو «وايزمان» الذى وصف العرب بأن فى طبيعتهم الخيانة والابتزاز وانعدام الأمانة ـ المترجمة.
(**) وهنا أيضًا تظهر حقيقة الأمانة الإنجليزية ـ المترجمة.

ما نقصده بسياستنا وماذا تعنى هذه السياسة بالفعل؟»[*] (تم ذكره فى ليهن ١٩٨٨ : ٣٢٦- ٣٢٧، حاشية ١٠١).

ويبدو أن كلمة «وطن قومى» هى تعبير يقلل من شدة معنى مصطلح «دولة». أثناء المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧، حدد «هيرتزل» بنفسه هدف الصهيونية بأنه إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، ثم عاد وكتب فى يومياته يوم ٣ سبتمبر ١٨٩٧ : فى بازل أنشأت الدولة اليهودية (هيرتزل ١٩٦٠، ٢ : ٥٨١) وكتب «نوردو» بنفس الأسلوب الغامض عام ١٩٢٠ قائلاً:

> **فعلت ما بوسعى لأقنع من يوالون إقامة دولة يهودية فى فلسطين بأن نجد عبارة مواربة تعبر عما نريد، ولكن بشكل لا يثير الأتراك الذين يحكمون الأرض التى نريدها. كان التعبير غامضًا بالطبع، لكن كلنا كنا نفهم ماذا كان يعنى هذا. فقد عنى «دولة يهودية ـ Judenstaat » فى تلك الفترة وله نفس المعنى اليوم (سايكس١٩٥٣ : ١٦٠، الحاشية ١).**

هذا كما لم يكن لـ «زانجويل» أدنى شك فى فبراير عام ١٩١٩ فى الأهداف الصهيونية فى الاستحواذ على كل شيء: «يجب أن يمتلك اليهود فلسطين كما يمتلك العرب الجزيرة العربية، وكما يمتلك البولنديون پولندا» (١٩٣٧ : ٣٤٢). وكانت وجهة نظر «وايزمان» مماثلة: «نحن، مثل هيرتزل، نعتبر أن الأمر يتعلق بإنشاء دولة يهودية» (١٩٤٩ : ٦٨).

وكان لمساندة بريطانيا العظمى لهذا المشروع تأثير ثورة فورية. فقد ساعدت على إنشاء دولة يهودية وكيلة تستقبل المهاجرين اليهود فى فلسطين، والتى سوف تمنع نمو القومية العربية، وبذلك تخدم نوايا الدولة الراعية [إنجلترا]، وقضت على مشكلة الهجرة اليهودية إلى إنجلترا[1]. كانت فكرة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين يمولها

(*) ألا يزال هذا هو الأسلوب الإسرائيلى والأنجلو الأمريكى حتى اليوم؟ ـ المترجمة.

(١) وبالدفاع عن مشروع قانون الأجانب فى ١٩٠٥، قال «بلفور» رئيس الوزراء فى تلك الفترة: «ليس من صالح حضارة هذا البلد أن يكون بها مجتمع كبير من الأفراد، ورغم أنهم وطنيون، فإنهم يبقون شعبًا منفصلاً، ليس فقط يدين دينًا مختلفًا عن ديانة الأغلبية، بل وأيضًا يتزوجون فقط من بينهم» (ذكر فى خاليدى ١٩٩٢ : ٢٣).

اليهود وتساندها منظمات غربية أخرى، حلاً مثاليًا وغير مكلف لتحقيق أهداف القوى الأوروبية العظمى[1].

عصبة الأمم والانتداب

فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، شرع المنتصرون فى تقسيم غنيمة الحرب. و منح مؤتمر سان ريمو (أبريل ١٩٢٠) لفرنسا انتدابًا على سوريا و لإنجلترا انتدابًا على فلسطين والعراق. وهو الأمر الذى شكل تعارضًا صارخًا مع المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم الذى كان ينص على أن: «تشكل رغبات هذه الشعوب (والتى تُعتبر أممًا فى طريق الاستقلال) أولوية بالنسبة لخيار المنتدبين».

وحملت عصبة الأمم بريطانيا المسئولية فى إقامة دولة يهودية مع الحفاظ على الحقوق المدنية والدينية لكل سكان فلسطين بدون التمييز على أساس العرق أو الدين (الانتداب على فلسطين، المادة ٢، ٢٤ يوليه ١٩٢٢) وتم إدراج وعد «بلفور» فى الانتداب (التمهيد والمواد ٢، ٤، ٦، ٧، ١٥، ٢٢، ٢٣).

ويبدو جليًا عدم اهتمام عصبة الأمم بالسكان العرب وتجاهلها إياهم لأنه لم يتم على الإطلاق استعمال كلمة «عربى» فى النص. و ركز المؤتمر الصهيونى الحادى عشر فى لندن فى يوليه ١٩٢٠ على التنمية فى فلسطين التى يعتبرها الوطن القومى لليهود. ولن يتم إعطاء الأراضى التى تم شراؤها إلا لليهود، وقد تعارض هذا مع ما كان يزعمه الصندوق الوطنى اليهودى، فقد استلزم ذلك إزاحة العرب من هذه الأراضى قبل البيع (ليهن ١٩٨٨ : ٥٧).

المعارضة العربية

عقب الاشتباكات التى اندلعت فى القدس فى أغسطس ١٩٢٩، وقبل أن تنتشر

(١) قال« وينستون تشرشل» عند زيارته لفلسطين فى مارس ١٩٢١ : «أريد أن أقول إن حدثًا مهمًا يدور هنا، وهو حدث كبير لمستقبل العالم. فهو لا يؤذى أحدًا، وهو يحول الصحراء إلى أرض خصبة. والسكان الذين يشكلون أغلبية سوف يستفيدون بشكل كبير لتحقيق تطورهم.» (فى إنجرامس ١٩٧٢ : ١١٩-١٢٠). أما السير «رونالد ستور» الحاكم العسكرى للقدس، وبعد ذلك لفلسطين، فقد قال عن الصهيونية: «تبارك الله المعطى، وتبارك الله الآخذ، الذى شكل جيبًا يهوديًا مواليًا لإنجلترا فى بحر العروبة المعادية» (مذكرات ١٩٧٣ : ٣٦٤ فى كيجلى ١٩٩٠ : ٨).

بشكل سريع، حيث أودت بحياة ٢٤٠ ضحية يهودية وعربية، أرسلت إنجلترا لجنة اكتشفت أن سبب الاشتباكات هو معارضة العرب للسياسة التى تنص على إقامة دولة يهودية على حسابهم. وفى عام ١٩٣٠، أكدت لجنة ثانية أن المستعمرين اليهود كانوا يطردون العرب من الأراضى التى تم شراؤها منهم. وذَكَّرَ الكتاب الأبيض لحكومة العمال (أكتوبر ١٩٣٠) الجميع بأن مساندة إنجلترا للهجرة اليهودية وفكرة إقامة دولة يهودية كان مشروطًا باحترام الضمانات الواردة فى وعد «بلفور» لصالح حقوق السكان القاطنين بفلسطين.

ومن ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧، هاجر حوالى ١٤٤٠٩٣ يهوديًا إلى فلسطين وتضاعفت نسبة ملكية اليهود للأراضى لتصل إلى أعلى حد لها وهو ٥,٧٪ فى عام ١٩٣٩، وارتفعت نسبة اليهود بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٩، من ١٠ إلى ٣٠٪ من إجمالى سكان فلسطين (٤٥٠٠٠٠) (خاليدى ١٩٩٢ : ٣١ - ٣٣).

وأمام هذا التهديد، أنشأ العرب اللجنة العربية العليا فى أبريل ١٩٣٦. وقد دعت إلى إضراب عام يدوم حتى نهاية الهجرة الصهيونية، وحتى يتم إيقاف تمليك الأراضى، كما دعت إلى اتخاذ إجراءات لإنشاء فلسطين حرة ومستقلة. وانتشر العنف بشكل غير منتظم لكن بارتفاع ملحوظ. وأمام هذا الوضع، قرر الإنجليز أن يرسلوا لجنة ملكية فى نوفمبر ١٩٣٦. وفى تقريرها الذى سلمته فى يوليه ١٩٣٧، اعترفت لجنة «پيل» بأن ممارسة الانتداب كانت غير ممكنة لأنها كانت تتعثر أمام المشكلتين اللتين لا يمكن التوفيق بينهما: دولة يهودية واستقلال عرب فلسطين. وفى خاتمتها، تبنت اللجنة حكمة سليمان، وأوصت بالتقسيم (ليهن ١٩٨٨ : ٥٨).

ورأى عرب فلسطين أن خطة التقسيم هذه كانت تشبه تشريح بلدهم باقتراح ٤٠٪ من فلسطين لليهود الذين يملكون ٥,٧٪ من الأرض. هذا بالإضافة إلى أن الخطة المقترحة تقول إن الدولة اليهودية ستضم آلاف القرى العربية، بالإضافة إلى الكيان العربى بالجليل. هذا كما تم ترحيل العرب من أراضيهم بالقوة، وتم منحها للدولة الجديدة وذلك وفقًا للاحتياجات. وجددت خطة «پيل» التمرد العربى الذى رد عليه البريطانيون بقمع جماعى، حيث قتلوا ٥٠٠٠ عربى وأصابوا ١٥٠٠٠ بجروح وذلك من مجموع مليون نسمة خلال الثورة التى نشبت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩

(خـاليـدى ١٩٩٢ : ٣٤). وتبع ذلك ـ بشكل دورى ـ نزع سـلاح العـرب وتحطيم منظماتهم السياسية.

وشكلت خطة «پيل» بشأن التقسيم الاعتراف الأول بأن الوطن القومى اليهودى كان يعنى بالفعل الدولة اليـهودية مما أبهج «بن جوريون» و«وايزمان»، و أعطى فى دفعة واحدة ٤٠٪ من أرض فلسطين لليهود، أى أكثر مما كانوا يمتلكون فى الواقع بسبعة أضعاف. ولكن رأى «چابونتسكى» زعيم المعارضة الصهيونية أن ذلك يشكل خيانة لفكرة إسرائيل الكبرى القائمة على ضفتى نهر الأردن.

ورغم أن خطة التقسيم سوف توضع على الرف فيما بعد، فقد رفعت الطموح الصهيونى، وصارت مقياسًا تعاير عليه الإنجازات اللاحقة. وفى نوڤمبر عام ١٩٣٧، أسست الوكالة اليـهودية لجنة خاصة لترحيل السكان(*). وحددت إنجلترا، التى اعترفت أخيرًا أنه لا يمكن تحقيق التقسيم، أهدافها ونواياها فى ورقة بيضاء يوم ١٧ مايو ١٩٣٩. وكانت السياسة الجديدة تهدف إلى: «إقامة دولة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات. . . . والتى سيتشارك فيها العرب واليهود الحكومة بشكل يتم فيه ضمان المصالح الأساسية لكل مجتمع». واستلزمت الورقة وضع قيود على ضم اليـهود للأراضى، وعلى الهجرة اليهودية لفلسطين.

وكتب «يوسف ويتز» القائم على لجنة الترحيل ومدير مصلحة الأراضى فى الصندوق القومى اليهودى فى يومياته يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٤٠:

بالنسبة لنا، يجب أن يكون من الواضح أنه ليس هناك مكان لشعبين فى هذا البلد. إذا غادر العرب فسوف يصبح الوطن كبيرًا وواسعًا. . . . . الحل الوحيد هو أرض إسرائيل بدون عرب. . . . . وفيما يخص هذا الموضوع، ليس هناك أى حل وسط. . . يجب إذن ترحيل العرب إلى الدول المجاورة، كل العرب باستثناء ـ ربما ـ عرب بيت لحم والناصرة والمدينة القديمة فى القدس. يجب أن لا تبقى أية قرية ولا أية قبيلة. فليذهبوا إلى العراق وسوريا وحتى إلى الضفة الأخرى من الأردن [الضفة الشرقية]. سنجد

(*) المقصود السكان العرب، وترحيلهم أى طردهم ـ المترجمة.

الأموال اللازمة لهذه العملية . . . . وبعد الانتهاء من ترحيلهم يمكن للوطن أن يستقبل الملايين من إخوتنا وستنتهى المشكلة اليهودية . ليس هناك حل آخر . (ڤايتز ١٩٦٥ : II، ١٨١ ـ ذكره موريس ١٩٨٧ : ٢٧).

ووعيًا منه بأن المصالح البريطانية قد تتعارض مع مصالح الصهيونية ، بدأ« بن جوريون» فى تحفيز اليهود الأمريكان والحصول على مساندة أكبر من الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما كان يواصل «وايزمان» فى الوقت ذاته عمله الديپلوماسى فى لندن التى كانت فى حرب . وبموت الرئيس «روزڤلت» فى أبريل ١٩٤٥ ، تولى نائب الرئيس «ترومان» مقاليد البيت الأبيض ، وأثبت فوراً أنه مؤيد غيور للقضية الصهيونية . وفى ٢٤ أبريل ١٩٤٥ ، كتب لـ «تشرشل» يطلب منه أن يرفع القيود المفروضة على هجرة اليهود ـ الذين استأصلهم القمع النازى عديم الرحمة ـ إلى فلسطين (خاليدى ١٩٩٢ : ٤٨). وكنا نتوقع أن يكون «ترومان» أول من يقبل فى أمريكا حوالى ٣٠٠٠٠٠ من اليهود الناجين من البربرية النازية والذين كانوا ينتظرون ذلك فى العديد من معسكرات الإيواء . ولكن حققت خطته ميزتين : حصل على دعم الصهاينة ، وجنب أمريكا وطأة الهجرة اليهودية . وقال فى أكتوبر ١٩٤٥ وهو يوجه حديثه إلى الديپلوماسيين العرب : أنا متأسف أيها السادة ، فأنا ملتزم أمام مئات الآلاف من المواطنين الذين يريدون نجاح الصهيونية(*) ، وليس لدى مئات الآلاف من العرب ضمن دوائرى الانتخابية (خاليدى ١٩٩٢ : ٥٠ - ٥١).

وكانت رسالة «ترومان» بتاريخ ٢٤ يوليه ١٩٤٥ موجهة لـ «تشرشل»، ولكن وصل حزب العمال إلى السلطة مع «أتلى» كرئيس وزراء بعد انتخابات ٢٦ يوليه . وفى هذا الوقت ، تعاطف الحزب بشكل واسع مع الصهيونية ، وأعلن عن الحل الذى يراه مناسبًا : « فلنشجع العرب على الذهاب كلما أتى اليهود» (١٩٤٤ ، تقرير المؤتمر السنوى العام ، ص ٩ فى ماهيو ١٩٧٥ : ٣٤ فى أدامز و مايهيو ١٩٧٥).

ووفقًا لتوصيات اللجنة الأنجلو ـ أمريكية ، اشترط الإنجليز حل المنظمات العسكرية الصهيونية لقبول ١٠٠٠٠٠ مهاجر يهودى . وقتلت موافقة «ترومان» (٤ أكتوبر

(*) يقصد بذلك الصهاينة المسيحيين ـ المترجمة .

١٩٤٦) على الخطة الصهيونية فى أغسطس، اقتراح المندوبين العرب فى مؤتمر لندن (سپتمبر١٩٤٦) لإنشاء دولة فلسطينية موحدة يتم فيها اكتساب المواطنة الفلسطينية بعد ١٠ سنوات من الإقامة مع ضمان حقوق اليهود. وفى هذه الفترة كانت فلسطين مقسمة إلى ١٦ مقاطعة؛ ولم تكن الأغلبية اليهودية مستقرة إلا فى واحدة من هذه المقاطعات وهى مقاطعة يافا. وعلى الرغم من هذا، فإن خريطة الصهيونية التى أيدها «ترومان» فى ٤ أكتوبر ١٩٤٦ (يوم كيپور)، نصت على إدماج ٩ مقاطعات فى دولة إسرائيل، بل أجزاء كبيرة من المقاطعات الأخرى. ونصت على وضع خاص فى القدس. وأعطت الخطة ٧٥٪ من أراضى فلسطين لليهود الذين كانوا يمتلكون أقل من ٧٪ من أرضها، بينما وقعت ١٠ مستوطنات إسرائيلية، أى ما يعادل ٢٠٠٠ يهودى، تحت السلطة العربية، و ٤٥٠ قرية عربية، أى ٧٠٠٠٠٠ مواطن عربى تحت السلطة الصهيونية. هذا بالإضافة إلى أن العرب خسروا أراضيهم الأغنى، ومعابر البحر باستثناء ممر واحد يؤدى إلى يافا. وكانت مساندة البيت الأبيض للخطة الصهيونية حاسمة، ووقعت حكومة «أتلى» تحت ضغط كبير من الولايات المتحدة التى فرضت على بريطانيا ـ بواسطة السبل الدبلوماسية ـ أن تقبل فوراً هجرة ١٠٠٠٠٠ يهودى إلى فلسطين. وفى مواجهة الاعتراضات التى عبر عنها «كرستوفر مايهيو» السكرتير فى وزارة الخارجية والذى كان يعتبر أن مثل هذا العمل سبيل لإشعال الحرب:

. . . . . رد السفير بحذر وروية قائلاً: «إن الرئيس يريد أن يعلم ما إذا كنا قادرين على مساعدته فى هذه المسألة، فإن هذا سيسهل مهمة أصدقائنا فى واشنطن لجعل الكونجرس يقبل حصتنا فى مشروع مارشال. وبعبارات أخرى، يجب أن ننحنى لأمنيات الصهاينة ورغباتهم و إلا سوف نموت من الجوع. و استسلم بيڤين» (مايهيو ١٩٧٥ : ١٨ - ١٩ فى أدامز ومايهيو).

خطة الأمم المتحدة بشأن التقسيم عام ١٩٤٧

أمام عدم إمكانية التوصل لاتفاق بشأن فلسطين، أعلنت حكومة إنجلترا يوم ١٨ فبراير ١٩٤٧ «أن الحل الوحيد يكمن فى تقديم المشكلة للأمم المتحدة». وفى أبريل ١٩٤٧، بناءً على طلب من الإنجليز، عقدت الجمعية العمومية اجتماعًا طارئًا،

وقررت أن ترسل لجنة تحقيق من الأمم المتحدة (UNSCOP) إلى فلسطين. وعقب ذهابها إلى المنطقة، أوصت اللجنة بالتقسيم وفقًا للحدود الواسعة على خريطة يوم كيپور التى ساندها «ترومان». وتم منح النقب أيضًا لليهود على الرغم من أن ١٠٠٠٠٠ بدوى كانوا يزرعون جزءًا كبيرًا من الأراضى، بينما كان حوالى ٤٧٥ يهوديًا فقط يعيشون فى ٤ مستوطنات.

وفى توصيات لجنة الأمم المتحدة، يأخذ الصهاينة ٥٧٪ من الأرض التى كانت معظمها أراضى صالحة للزراعة، وكان معظمها يقطنها سكان عرب، أما الدولة الفلسطينية فتأخذ ٤٣٪ من الأرض. برغم أن اليهود عام ١٩٤٨ لم يمتلكوا إلا ٦,٦٪ من فلسطين (انظر جريش وڤيدال ١٩٨٨ : ٢٩، خورى ١٩٨٥ : ١٨، ليهن ١٩٨٨ : ٧٠ - ٨٠). هذا بالإضافة إلى أن اليهود لم يكونوا يمثلون إلا ثلث الشعب (من ٥٠٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠٠ يهودى مقابل ١,٤ مليون فلسطينى).

وفى يوم ٢٩ نوڤمبر ١٩٤٧، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع - مع إلحاق بعض التعديلات - على خطة التقسيم التى اقترحتها لجنة الأمم المتحدة من أجل فلسطين؛ حيث أقر ٣٣ مندوبًا الخطة، بينما رفضها ١٣ مندوبًا، وامتنع عن التصويت ١٠ مندوبين. وأوصت الجمعية بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين يهودية وعربية، و أصبحت القدس عاصمة دولية[1]. ولم يقبل العرب هذه الخطة حيث ندد المندوبون العرب فى الجمعية العامة بدور الأمم المتحدة فى فرض مثل هذا المشروع ضد رغبة العرب. ولم يجد مشروع قرارهم الذى يقضى بأن كل دولة عضوة فى الأمم المتحدة يجب أن تستقبل - وفقًا لمواردها «اليهود الأوروپيين الذين هم فى مأزق» والدعم الكافى.

فور الموافقة على قرار التقسيم، أعلن الإنجليز أمام تصاعد الأعمال الهجومية الشبيهة بالحرب الأهلية ضد بريطانيا، أنهم ينهون الانتداب فى فلسطين وأنهم

(١) تقول السجلات الرسمية للاجتماع الثانى للجمعية العامة، قرار ١٨١ (II)، ص ١٣١-١٣٣ : «ستكون القدس عاصمة منفصلة تخضع لنظام دولى خاص، وستخضع لإدارة الأمم المتحدة. وستضم مدينة القدس بلدية القدس الحالية، بالإضافة إلى المدن والقرى المحيطة بها حتى أبو ديس شرقًا وبيت لحم جنوبًا و عين كريم؛ بما فى ذلك المنطقة المبنية فى موتسا غربًا والشوفات شمالاً».

سيغادرون المنطقة فورًا . وانتهى الانتداب البريطانى فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وبدأت الأمم المتحدة الإشراف على عملية التقسيم . إلا أن عدم قدرة الأمم المتحدة على وضع قوة دولية قادرة على حل المشكلة أدى بالأطراف المتنازعة إلى بدء المعارك التى كانت ستؤدى حتمًا إلى نصر الصهاينة نظرًا لتفوق مصادر الصهيونية . ولم يكترث اليهود بعد ذلك بشراء الأراضى التى كان يمتلكها العرب .

ما بين خطة التقسيم ونهاية الانتداب

كانت فترة الستة أشهر التى تفصل إعلان الأمم المتحدة ونهاية الانتداب (من ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ إلى مايو ١٩٤٨) فترة حاسمة فى حفاظ الصهاينة على غنيمتهم . وكانت الحركات اليهودية الموجودة فى فلسطين قبل ١٩٤٨ وأثناءها (يشوف) منظمة بشكل أفضل على المستوى العسكرى والإدارى مقارنة بالعرب الفلسطينيين (موريس ١٩٨٨ : ٧) . وكانت الحركة القومية الفلسطينية متخلفة بالمقارنة بالمنظمات اليهودية فيما يخص التماسك والتنظيم والتعبئة والأداء ، حيث كانت مقسمة ومشتتة بشكل كبير وغير منظمة ، وليس لديها تجارب كافية لمواجهة المشاكل المعقدة التى كانت ستتعرض إليها (موعاز ١٩٩٢ : ١٥٣) . وقد وضعت القيادة الصهيونية العليا خطتين جديدتين ، خطة جيمل و خطة داليت ، بهدف احتلال أكبر قدر ممكن من الأراضى العربية ، واستبعاد أكبر قدر من الفلسطينيين . وكان المدبر الأساسى لهاتين الخطتين «يجال يادين» قائد عمليات الهاجانا . وكانت خطة جيمل تهدف إلى كسب الوقت الكافى لحشد القوات الضرورية لتحقيق خطة داليت العامة ، بهدف احتلال جميع الأماكن التى كان يحتلها الإنجليز . وفى أثناء هذه الفترة كانت المقاومة العربية قوية لدرجة أنها دفعت منذ نصف مارس ١٩٤٨ بالإدارة الأمريكية إلى إعادة النظر فى موقفها والتفكير فى عقد اجتماع طارئ للجمعية العمومية للأمم المتحدة ، لمناقشة إمكانية إقامة انتداب دولى على فلسطين .

وقبل بضعة أسابيع من نهاية الانتداب البريطانى ، أصبح من العاجل البدء فى تطبيق خطة داليت . وتمثلت الاستراتيجية فى شن هجمات مفاجئة ضد المدنيين . فى إطار الحرب النفسية ، كانت إذاعة الهاجانا السرية تذيع باللغة العربية وتهدد بشكل

عنيف العرب وتشرح لهم ما يجب عمله للفرار. ولتأكيد هذه التهديدات النفسية، كانت تتزامن معها عمليات وحشية دعائية يتم التدبير لها بدقة، بشكل يؤدى إلى تعجيل هجرة سكان المدن والأرياف. ويبرر «بينى موريس» هذا التخطيط مؤكداً أنه يتعلق باعتبارات وأهداف عسكرية، وليس اعتبارات عرقية (١٩٨٧ : ٦٢ - ٦٣).

وللتخفيف من حدة الضغط على يهود القدس، قرر «بن جوريون» والقائد الأعلى للهاجانا فى ليلة ٣١ مارس أن كل القرى العربية الواقعة على محور خولدا ـ القدس هى قرى تنتمى للعدو؛ وبالتالى يجب استهدافها. ووفقًا لخطة داليت، كان يجب تدمير القرى التى تقاوم وطرد سكانها. وتم الاستيلاء على القرى بشكل سريع (القسطل والقاليونية و الخولدا وساريس وبيدو وبيت سريق). وإذا كان تدمير القرى التى لم تكن تقاوم، يتعارض مع خطة داليت، فإن هذه الأعمال تتماشى مع الحلم الصهيونى. ووفقًا للهجة «موريس»، عندما يتعلق الأمر بمعركة حياة أو موت، فلا مفر من مواجهة التحدى (١٩٨٧ : ١١٣). وخلال ليلة ٩ أبريل ١٩٤٨، شنت فرقة مكونة من ١٣٢ رجلاً ينتمون إلى قوات إيرجون[١] وشتيرن[٢] التى كانت تدعمها مدفعية الهاجانا، هجومًا على قرية دير ياسين فى غرب القدس. وفى ظهر اليوم التالى للهجوم، تم ذبح ٢٥٤ مواطنًا فلسطينيّا بما فى ذلك ١٠٠ امرأة وطفل. وتم رمى جثثهم فى الآبار ورشها بالكيروسين وحرقها[٣].

---

(١) Irgun Zvai Leumi (المنظمة العسكرية القومية) كانت مجموعة سرية تكونت عام ١٩٣١ من قبل زعماء صهاينة بهدف إنشاء دولة بها أغلبية يهودية فى كل الأرض الفلسطينية التى وقعت تحت الانتداب، بما فى ذلك الضفة الشرقية لنهر الأردن.

(٢) Lohamei Herut Yisrael والتى تعرف أكثر باسم « عصابة شتيرن ـ Stern Gang»، بعد أن انفصل مؤسسها أبراهام شتيرن من إيرجون فى يونيه ١٩٤٠، كانت المنظمة تريد الاستبعاد الكامل والجبرى للشعب العربى الفلسطينى وكانت تطالب بتبادلهم مع اليهود الذين يعيشون فى الدول العربية الأخرى. وهى مجموعة إرهابية صهيونية أسّست فى ١٩٤٠ من قبل أبراهام شتيرن (١٩٠٧ - ١٩٤٢). نفّذت المجموعة هجمات إرهابية معادية لبريطانيا والعرب خلال فترة الانتداب البريطانية فى فلسطين، وكانت الهجمات على الأفراد وعلى الأهداف الاستراتيجية. قتل عدد كبير من أفراد العصابة من قبل القوات البريطانية فى ١٩٤٢ لكن المجموعة بقيت حتى ١٩٤٨ عندما منعت من نشاطها بعد إنشاء دولة إسرائيل.

(٣) وقد وصف ضابط قديم فى استخبارات شتيرن ـ من الذين شاركوا فى هذه المذبحة ـ أعمالها الوحشية (هاآرتس، ٢٥ أبريل ١٩٩٣). وقد لخص فرانكلين شهادته وشهادة أحد ضباط الاستخبارات من الموساد (١٩٩٥ : ١٨٩ هامش ١٦)..

وكان هناك أيضًا حالات بتر أعضاء واغتصاب. وقال «موريس»: «لم يكن لدى المحاربين النية للقيام بهذه المذابح، ولكنهم كانوا يفقدون رءوسهم أثناء المعارك». ويعترف أن هدفهم كان يكمن فى طرد سكان القرى. وعلى كل حال، نشرت مذبحة دير ياسين الرعب والهلع فى القرى المجاورة التى فر منها سكانها فور العلم بهذه المجزرة (موريس ١٩٨٧ : ١١٥). وكانت المنظمات الصهيونية المسئولة عن المجزرة تقوم بذلك بأمر من رجلين سوف يصبحان فى المستقبل من رؤساء وزراء دولة إسرائيل: مناحم بيجن، زعيم منظمة إيرجون من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٨، وإسحاق شامير نائب القائد فى منظمة شتيرن.

أدى تنفيذ خطة داليت إلى إحداث رعب لا مثيل له لدى الفلسطينيين[1]. وقد غرق مئات الرجال والأطفال ونساء المدن الساحلية المتاخمة ليافا وحيفا وعكا وهم يحاولون الهرب واللحاق بأى مراكب تأخذهم إلى مكان آمن. وتم طرد مئات الآلاف خارج الحدود من قبل القوات اليهودية المنتصرة. ومنذ ٢٣ أبريل حققت خطة داليت أهدافها.

وأخبر «ترومان» «وايزمان» أنه إذا تم إنشاء دولة يهودية؛ فإنه سيعترف بها فوراً. وفى الرابع عشر من مايو، وهو آخر يوم للانتداب البريطانى، قام الأمين العام للإدارة البريطانية بتنظيم مؤتمر صحفى فى فندق الملك داوود بالقدس، ورداً على سؤال أحد الصحفيين عمن سيتولى منصبه بعده، صرح قائلاً: «سأضع مفاتيح مكتبى تحت الفرش» (خاليدى ١٩٩٢ : ٧٦). وفى اليوم ذاته أعلنت اليوشوف (الجماعات اليهودية فى فلسطين قبل وأثناء ١٩٤٨) قيام الدولة الإسرائيلية، وفور ذلك اعترفت بها الولايات المتحدة.

المرحلة الثالثة للصهيونية (دولة إسرائيل ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧)

فى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨، أعلن بن جوريون قيام الدولة الإسرائيلية. وفى اليوم التالى، دخلت وحدات من الجيوش العربية للدول المجاورة فلسطين، كانت تضم حوالى ١٤٠٠٠ جندى إلا أنها لم تستطع التغلب على القوات الصهيونية التى فرضت نفسها فى الصراع المسلح، و احتلت أخيراً ٧٨٪ من أرض فلسطين.

(١) كانت السياسة اليهودية التى عبرت عنها خطة داليت هى السبب الأساسى لرحيل أغلبية عرب فلسطين (بابيه ١٩٩٢ - ١٩٩٣).

وعقب نهاية المعارك، كانت إسرائيل تسيطر على كل أراضى الانتداب باستثناء الضفة الغربية وغزة. ويوجد العديد من الأساليب التى من شأنها أن تشرح فداحة الكارثة(النكبة)[1] فى فلسطين[2].

ترحيل اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨[3]

و يمكن قياس فداحة الكارثة التى حلت بفلسطين بعدد الأشخاص الذين تم ترحيلهم؛ حيث فر أغلبهم أو تم طردهم من أراضى الدولة الجديدة. وماعدا بعض الاستثناءات القليلة، تم إخلاء المدن الفلسطينية الكبرى، بما فى ذلك المدن التى بها أغلبية عربية من السكان الفلسطينيين واستولى الصهاينة على ممتلكاتهم. هذا بالإضافة إلى مئات القرى العربية التى تم إخلاؤها من سكانها وتدميرها. وبقى حوالى ١٥٦٠٠٠ عربى فلسطينى فى مدنهم وقراهم فى وسط الأرض التى أصبحت إسرائيلية، بينما طرد حوالى ٢٥٪ من السكان العرب من قراهم، ونُقلوا إلى أماكن أخرى فى إسرائيل؛ حيث أصبحوا «لاجئى الداخل» (أو وفقًا لحقهم فى الامتلاك «الغائبين الحاضرين»، فلا يتم اعتبارهم فى حسبان الأشخاص المرحلين).

ويُقدر إجمالى عدد العرب الفلسطينيين المرحلين عام ١٩٤٨ بحوالى ٧١٤١٥٠ شخصًا[4]، أى ما يعادل ٥٤٪ من الشعب الفلسطينى تحت الانتداب. هذا كما تم

---

(١) النكبة هو عنوان كتاب تاريخ صدر عام ١٩٤٨ فى ستة مجلدات، مؤلفه المؤرخ الفلسطينى عارف العارف (بيروت وصيدا: المكتبة العصرية ١٩٥٦ - ٦٠).

(٢) قُتل حوالى ١٣٠٠٠ فلسطينى معظمهم من المدنيين (خاليدى ١٩٩٢ الملحق ٣: ٥٨١ - ٥٨٢) وتم تشريد أسر بأكملها، كما تضررت دول مجاورة الخ، وقد قام هداوى بتقدير الخسائر المادية والمالية للحدث (١٩٨٨: ١٨٣).

(٣) يطلق القرار ٢٤٢ لمجلس الأمن على الأشخاص المرحلين اسم «اللاجئين». وكلمة «لاجئ» غير مناسبة لأنه فى القانون الدولى وفى معاهدة الأمم المتحدة من أجل اللاجئين، تعنى الكلمة كل من يريد أن يقطن أو يقيم فى بلد أجنبى لأنه غير مرغوب فيه فى بلده الأم، وذلك خوفًا من التعذيب والاضطهاد الخ.
إلا أن «اللاجئين» الفلسطينيين يريدون أن يبقوا فى وطنهم، إذن الأمر يتعلق بالفعل بأشخاص مرحلين. وهذا رأى جون كويجلى، وهو أستاذ القانون والعلوم السياسية فى جامعة ولاية أوهايو.

(٤) تقدر چانيت أبو لغد هذا العدد ما بين ٧٧٠٠٠٠ و ٧٨٠٠٠٠ (١٩٨٧: ١٦١). أما إليا زوريق فيقدره بما يتراوح مابين ٧٠٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠٠ (١٩٩٤: جدول ٣، ١١). ووفقًا لتقرير المفوض العام لوكالة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة (UNRWA) كان هناك فى عام ١٩٩٤: ٥٠٤٠٧٠ لاجئًا فى الضفة الغربية، أى ما يعادل ٤٢٪ من الشعب و ٦٤٣,٠٠٠ فى قطاع غزة أى ٥٥,٧٪ (انظر سابيلا ١٩٩٦: ١٩٣). أما تقرير اللجنة فى عام ١٩٩٥، فيقدر أن هناك حوالى ٤,٦٤٥,٢٤٨ فلسطينيًا فى مخيمات فى سوريا ولبنان والأردن، وفى أماكن أخرى.

إضافة ٦ ملايين دونم - أى ما يعادل ٤ أضعاف مساحة الأراضى الفلسطينية التى اشتراها الصهاينة خلال السبعين سنة السابقة - إلى المستوطنات اليهودية القديمة والجديدة (خاليدى ١٩٩٢ : ٣٣).

تدمير القرى

لم يُعر المجتمع الدولى انتباهه للتدمير الدورى لبعض القرى الفلسطينية من قبل الإسرائيليين، لأن الدولة الإسرائيلية أخفت أسرارها بهذا الشأن، حيث لم تكن هناك أية إحصائية منشورة عن عدد هذه القرى أو أماكنها. وحقيقة أن التدمير كان شاملاً تفضح زعم اليهود بأنهم دخلوا فى بلد خالٍ وزرعوا الصحراء[1].

ويوضح غياب المصادر الفلسطينية بشأن الخسائر التى لحقت بهم عدم قدرتهم، بل وأيضًا مثلما يشير «إدوارد سعيد»، «عدم كفاءتهم الجماعية»؛ مما يؤدى إلى نقص الروايات الفلسطينية عن ١٩٤٨ والفترات اللاحقة، والتى كان عليها أن تواجه غزارة الروايات الإسرائيلية.

وعقب حرب ١٩٤٨، تم إخلاء مئات القرى من السكان، وتفجير المنازل بالديناميت أو محوها بالدبابات والمدرعات. ولم يتم الإبقاء إلا على مئة قرية فلسطينية فقط واقعة فى المناطق التى تم احتلالها حتى اليوم. كذلك تم مصادرة ٨٠٪ من الأراضى التى يمتلكها أفراد لم يغادروا قراهم أبدًا، وتم منحها بدون قيود إلى مواطنين يهود (خاليدى، ١٩٩٢، xxxii، انظر جريسى ١٩٩٤ : ٥٠- ١). وتشير الدراسة الشاملة والعميقة التى قام بها «خاليدى» إلى تفاصيل تدمير كل قرية وتعطى إحصائيات ومختلف أنواع المعلومات: جغرافية ومساحية وتاريخية وهندسية ومعمارية وأثرية واقتصادية، مع ذكر الظروف التى صاحبت الاحتلال، بما فى ذلك وصف طرد السكان ووصف بقايا كل حالة (خاليدى ١٩٩٢ xviii-xiv) .

---

(١) فى سبتمبر ١٩٨٧، تم توزيع طلب تبرع لجمع ستة ملايين فرنك لزرع الغابات السويسرية فى منطقة طبرية. وشكر الصندوق الوطنى اليهودى أولئك الذين وفروا الأموال، حيث سيسهمون فى تحويل الصحراء إلى أرض خضراء. وتم إقامة هذه الغابات على بقايا القرى الفلسطينية (الديب : ١٩٩٢ : ٨).

ومـا بقى يعـد ذكـرى ترصـد آلام مـئـات الآلاف من الرجـال والنسـاء والأطفـال ومـعـاناتهم، وكـأنه يشـيـد بالذكـرى الجـمـاعـيـة لهم ولتـاريخـهـم (خـاليـدى ١٩٩٢ : xvii-xxxiv). والرقم الذى يقدمه خاليدى بشأن تدمير ٤١٨ قرية جدير بالتصـديق، وهو يُشكل نصف إجـمـالى عـدد القـرى العـربيـة فى فلسطين[١] تحت الانتداب. فـمن أصل ٤١٨ قـرية، تم تدمـيـر٢٩٣ (٧٠٪) منهـا بشكل شـامل و٩٠ (٢١,٥٪) تم تدميرها بشكل كبير، ولم يتبق سليمًا إلا سبع قرى، بما فى ذلك عين كريم، إلا أن المستوطنين اليهود استولوا عليها.

و كـان يمكن لأى زائر ذى نظرة ثاقبـة أن يتـعرف على بعض الآثار التى تـشيـر إلى وجود قرى فى الماضى، لم يبق منها فى الغالب إلا «حجارة متناثرة توحى بمنظر حزين» (خاليدى١٩٩٢ : XV)[٢].

وكان اغتصاب الأماكن المقدسة مهينًا بصفة خاصة[٣].

(١) قام بينى موريـس عـام ١٩٩٠ بـدراسة رصـدت قـائمـة المدن والقرى المحتلة. وقـام بالأمر ذاته أيضًا إسرائيل شـاحاك، فأعد قائمة للقرى التى تم تدميرها (١٩٧٥). وقامت الحكومة الإسرائيلية بإعادة طبع خريطة رسمها الانتداب البريطانى، مع طباعة كلمة «هاروس» التى تعنى بالعبرية مدمرة. وأسفرت جهود تحديد تلك القرى المدمرة عن أرقام تتراوح بين ٢٩٠ إلى ٤٧٢ قرية.

(٢) زار باحثو خاليدى كل المواقع المعنية باستثناء ١٤ منها، حيث تم القيام بدراسات مفصلة ومصورة لما تبقى من آثار (خـاليـدى ١٩٩٢ : xix)، وتوضح الصـور قـرى تم إزالتـهـا، وبناء حدائق وأمـاكن ترفيـه على أرضـهـا، مـثل الطنطورة، زرين، ومـقـبرة سـلامـة (ص xxxix) بالإضـافة إلى بقـايا الأديرة والمسـاجد والكنائس والمقابر (ص xliii-xliv).

(٣) انظر جريسى ١٩٩٩٤ : ٤٩ . وتم تحويل كنيسة أرثوذكسية فى عين كريم إلى دورة مياه عامة، ومسجد صفد إلى معرض للفنون، ومساجد أخرى فى قيصرية و عين هود، إلى مطاعم وبارات. وتم تشييد فندق هيلتون تل أبيب وفندق بلازا فى القـدس والحدائق المجاورة، والتى أطلق عليها اسم حدائق الاستـقلال، على مقابر مـسلمين (يو. داڤيس ١٩٨٧ : ٢٤). وتمثل حالة قرية بيرام المسيحية مثالاً صارخًا على هذه الاعـتداءات، فقد غـادر سكان هذه القرية منازلهم فى عام ١٩٤٨ بعد تسليـمهم ضـمانات كتابية على رجـوعهم بعد أسبوعين، الأمر الذى لم يحدث. وفى نهـاية ١٩٥٠، أبلغـت المحكمـة العليـا الإسرائيلية الذين رحلوا أن بإمكانهم الرجوع إلى ديارهم إلا أن القـادة العسكريين رفضوا تطبيق قرار المحكمـة العليا (شكور ١٩٨٥ : ٣٦ - ٣٨، ٧١)، ولـيمنع نهائيًـا رجوع سكان هذه البلدة، أصدر «بن جـوريون» أمرًا بتدمير القرية فى ١٦ سپتمبر ١٩٥٣. وفى عام ١٩٨٧، قـام أتباع الحاخام «مائير كاهان» تحت حماية الشرطة بمحو الصلبان ورموز أخرى مسيحية منقوشة على جدران المنازل المدمرة. وفى سپتمبر دمروا قبر القسيس الذى تم دفنه قبل ثمـانية شهور (الديب ١٩٩٢ : ٩) أما بقايا دير ياسين، فتم بناء مستشفى أمراض نفسية للإسرائيليين عليها.

وأدى طرد السكان وتدمير ٤١٨ قرية عربية إلى هجرة ٣٨٣١٥٠ ساكنًا، مع حوالى ٦٩٩٤ من القرى المجاورة، أى ما يعادل مجموع ٣٩٠١٤٤ ساكنًا مرحلاً. ويبدو هذا الرقم أقل من الحقيقة (خاليدى١٩٩٢ : ٥٨١). أما بالنسبة للمدن، فالرقم الذى يمكن تقديره للسكان المرحلين يصل على الأقل إلى ٢٥٤٠١٦ .هذا كما يجب إضافة ما بين ٧٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ بدوى تم ترحيلهم عقب حرب ١٩٤٨ .

ما زال هناك الكثيرون الذين يعتقدون أن الفلسطينيين غادروا منازلهم وممتلكاتهم برضاهم، برغم الأدلة الوفيرة التى تثبت أن الاستيطان اليهودى استلزم استبعاد أغلبية السكان الفلسطينيين (ماسالها ١٩٩٢ : پاسيم).

ولكن حتى إن لم يكن هناك أدلة بشأن الطرد والمذابح لتفنيد حملة الدعاية الصهيونية، فإن رفض إسرائيل المتعنت للسماح للفلسطينيين بالرجوع إلى ديارهم كاشف تمامًا عن سياستها ونواياها [1] . هذا كما أن نفس الموقف بشأن المرحلين عام ١٩٦٧، يؤكد أن الصهيونية كانت تهدف من البداية إلى استبدال اليهود بالسكان الأصليين.

المرحلة الرابعة للصهيونية (١٩٦٧ -)

أدى الهجوم الوقائى الذى شنته إسرائيل ضد مصر بحجة أن العرب سيشنون حربًا تهدد وجود إسرائيل إلى اندلاع حرب ١٩٦٧ التى استمرت من ٥ إلى ١١ يونيه. ولم تكن إسرائيل فى الواقع خاضعة لأى تهديد ولا لأى خطر، والتفسير الأكثر إقناعًا لهذا العدوان الإسرائيلى؛ هو رغبتها فى جنى ثمار نصر أكيد. وعشية اندلاع الحرب، ذكر الوزير «يجال ألون» أنه من أولويات إسرائيل «تحقيق الوعد بأرض إسرائيل» (انظر فينكلشتاين ١٩٩٥ : ١٣٢ - ٤٣).

وأدي نصر إسرائيل إلى ضم الضفة الغربية (بما فى ذلك القدس الشرقية) على حساب الأردن، ومرتفعات الجولان على حساب سوريا، وغزة وسيناء على حساب

(١) منع الأعضاء الثلاثة عشر فى الحكومة المؤقتة رجوع اللاجئين يوم ١٦ يونيه ١٩٤٨ . ولم يتم أبدًا الإعلان عن هذا القرار، وكان يجب أن تخضع بيانات بن جوريون وشاريت لعدة تعديلات حتى تتماشى مع المعايير السياسية الدولية (موريس ١٩٩٥ : ٥٦).

مصر . وتجلت رغبة إسرائيل فى الحصول على مزيد من الأراضى فى تدمير ١٣٥ منزلاً عربيّا فى الحى المغربى القديم لبناء ساحة أمام حائط المبكى ، وعن طريق إصدار قانون يوسع حدود القدس الشرقية ؛ حيث ضمت قرى قريبة من بيت لحم جنوبًا ومن رام الله شمالاً . وأدانت الأمم المتحدة وأغلبية دول العالم ذلك ، ووصفت أعمال إسرائيل بأنها غير شرعية (انظر پلايفير ١٩٩٢ : ١) وعلى الرغم من هذه المعارضة الدولية ، أكدت إسرائيل عام ١٩٨٠ هذه الأعمال عندما أعلن الكنيست الإسرائيلى أن «القدس بأكملها (أى القدس الشرقية والغربية) هى العاصمة الأبدية لإسرائيل» .

خلال الاجتماع الطارئ الخامس للجمعية العامة ، كان هناك إجماع شبه تام بشأن فرض انسحاب القوات إلى حدود ٤ يونيه . وصوت مجلس الأمن على القرار ٢٤٢ (٢٢ نوڤمبر) حيث أصر على عدم شرعية امتلاك الأراضى واحتلالها عن طريق الحرب ، وأصر على ضرورة العمل لتحقيق سلام دائم وعادل ، حتى تعيش كل دولة من دول المنطقة فى سلام . كما طالب القرار بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى التى احتلتها خلال الحرب الأخيرة . وفهمت كل الأطراف المعنية ـ باستثناء إسرائيل ـ «الانسحاب من أراض محتلة» (بدلاً من «الانسحاب من الأراضى المحتلة») أنه يعنى الانسحاب من كل الأراضى المحتلة ، مع اقتراح إجراء تغييرات بسيطة على الحدود المرسومة قبل ٥ يونيه ١٩٦٧ (انظر نيف ١٩٩١ : ١٧ ، الذى ذكر لورد كارادون ، ودين رسك ، والرؤساء كارتر وريجان وبوش) .

وقد ضاعت فرصة الحل السلمى للمشكلة عام ١٩٧١ ، عندما أكدت كل من مصر والأردن للممثل الخاص للأمم المتحدة «جونار يارنج» استعدادهما لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل بشرط أن توافق إسرائيل على الانسحاب الذى نص عليه القرار٢٤٢ . وللأسف ، لم ينجح الضغط الأمريكى ولا القرار الدولى الذى صوتت عليه الجمعية العامة فى ١٩٧١ و١٩٧٢ فى إجبار إسرائيل على الانسحاب . وأثناء اجتماع مجلس الأمن الطارئ فى يوليه ١٩٧٣ ، وافق ١٣ عضواً على هذا القرار دون أن يمتنع أى عضو عن التصويت ، و أدان هذا القرار بشدة مواصلة القوات الإسرائيلية احتلال الأراضى ، كما عبر عن قلق الأمم المتحدة من عدم تعاون إسرائيل مع الممثل الخاص للأمين العام . إلا أن المندوب الأمريكى استعمل حقه فى الڤيتو ، وحينها قضى على أى أمل لتفادى اشتعال الحرب .

فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ (يوم كيپور)، هاجمت ٢٠٠ طائرة مصرية القواعد العسكرية الإسرائيلية فى سيناء. وفى الوقت ذاته شنت الفرق السورية هجومًا منطلقًا من مرتفعات الجولان. ولم يكن الإسرائيليون يتوقعون هذا الهجوم، إلا أن القوات الإسرائيلية صدت تقدم القوات المصرية فى سيناء يوم ١٤ أكتوبر. وعندما أنشأ الإسرائيليون رأس جسر على الضفة الغربية لقناة السويس وحاصروا الجيش المصرى(*)، تم وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر، وتم الاتفاق على هدنة يوم ٢٤. أدت هذه الحرب التى زعزعت ثقة الإسرائيليين، ورفعت من الروح المعنوية للعرب، إلى إعادة طرح متطلبات القرار ٢٤٢ مع القرار ٣٣٨ (٢٢ أكتوبر١٩٧٣) الذى كان ينص على تطبيق بنود القرار ٢٤٢. وفى عام ١٩٧٤، أثناء قمة الرباط، اختارت الدول العربية منظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل الوحيد والشرعى للشعب الفلسطينى، حيث قام رئيسها «ياسر عرفات» بأول زيارة له للأمم المتحدة فى نوڤمبر ١٩٧٤.

تهويد الأراضى المحتلة

بعد أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن وغزة، واصلت مصادرة الممتلكات الفلسطينية الخاصة والعامة؛ وأثبتت الأحداث المتلاحقة أن الحرب كانت مرحلة جديدة من مراحل الاستراتيچية الصهيونية التى تهدف إلى احتلال أرض إسرائيل كما جاءت فى الكتاب المقدس. واتبعت كل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٦٧ سياسة الاستحواذ على الأراضى العربية. ومن ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧، وهى الفترة التى تقلد فيها حزب العمل مقاليد الحكم، ضمت إسرائيل القدس الشرقية وثلث أراضى الضفة الغربية.

وسعت مجموعة «جوش إمونيم» [جماعة المؤمنين] أهم مجموعات المستوطنين اليهود - تم تأسيسها عام ١٩٧٤ - إلى استيطان كل أرض إسرائيل. وتم تنشيط عملية

(*) كان هناك حصار متبادل للقوات الإسرائيلية والقوات المصرية فى المواقع النهائية لعمليات ١٩٧٣ - المترجمة.

التهويد مع وصول حكومات الليكود للسلطة من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٤ . وأصبحت سياسة هذه الحركة بعد إجراء بعض التعديلات عليها (خطة دروبلاس) هى السياسة التى تنتهجها الحكومة (بنقنيستى و خياط ١٩٨٨ : ٦٤ ، ١٠٢) . وهدفت تلك السياسة ـ من خلال الاستيطان اليهودى الشامل ـ إلى منع رجوع السيطرة العربية على أى أرض فلسطينية (انظر أرونسون ١٩٨٧ ، بنقينيستى ١٩٨٤ ، هاريس ١٩٨٠) .

إسرائيل فى لبنان

عقب تعزيز المواقف الفلسطينية فى لبنان فى أواخر الستينيات، سمحت إسرائيل لنفسها بأن تلعب دور الشرطى فى المنطقة . وشنت اعتداءات مشينة ، مثل الاعتداء على مطار بيروت عام ١٩٦٨ ، واحتلال جنوب لبنان عام ١٩٧٨ بواسطة ٢٠٠٠٠ جندى يهودى . وقد لقى القرار ٤٢٥ لمجلس الأمن (١٩ مارس ١٩٧٨) الذى كان يفرض على إسرائيل أن توقف جميع عملياتها العسكرية ، والانسحاب الفورى من جميع الأراضى اللبنانية ، مساندة الرئيس الأمريكى كارتر . وانسحبت إسرائيل بالفعل ، إلا أنها أبقت على «منطقة أمن» على حدودها مع لبنان ، تمثل حوالى ١٠٪ من أرض لبنان . أما اتفاقيات كامب ديفيد الإسرائيلية ـ المصرية والتى تم إبرامها دون الأخذ برأى الفلسطينيين ، فقد أضافت زخمًا لسياسة الاستيطان .

بعد قصف لبنان عام ١٩٨١ ، واستخدام الاعتداء الذى استهدف «شولومو أرجوف» سفير إسرائيل فى بريطانيا (٤ يونيه ١٩٨٢) ، شنت الطائرات والمدرعات الإسرائيلية هجومًا على المواقع الفلسطينية فى جنوب لبنان وشرق بيروت . وصوت حينها مجلس الأمن على القرار ٥٠٨ الذى كان ينص على وقف الاعتداءات الإسرائيلية . واستهدفت إسرائيل من هذه العمليات استئصال القومية الفلسطينية ، وتدمير سلطة منظمة التحرير الفلسطينية (ماك برايد ١٩٨٣ : ٦٥ ، شاحاك ١٩٩٤ : ١٨ – ١٩) . بلغت التقديرات الدنيا للقتلى (١٧,٨٢٥) والجرحى (٣٠,٢٠٣) ، وتراوح عدد الفلسطينيين واللبنانيين المشردين ما بين ٥٠٠,٠٠٠ إلى ٨٠٠,٠٠٠ . وصرحت اللجنة الدولية للتحقيق بأن إسرائيل اخترقت قوانين الحرب فى عدة حالات (ماك برايد ١٩٨٣ : ٣٤ – ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ – ٤٢ ، ٩٩ ، ١٠٨ إلخ) .

حكومة الائتلاف من أجل الوحدة الوطنية ١٩٨٤ - ١٩٨٨

نشطت أعمال الاستيطان بعد قيام الائتلاف الحكومى من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٨ بين الليكود وحزب العمل . وفى نهاية ١٩٨٨ ، أدت سياسة مصادرة الأراضى إلى سيطرة اليهود على ٥٢٪ من الضفة الغربية . هذا كما تم إعلان ٤٠٪ من قطاع غزة «أرض الدولة اليهودية» ؛ وبالتالى تحت السيطرة اليهودية التامة (مطر ١٩٩٢ : ٤٤٤ - ٤٤٨ ، انظر أيضًا حلبى ١٩٨٥ من أجل الحصول على تحليل شامل) . وفى بداية ١٩٨٨ ، كان هناك١١٧ مستوطنة بها ما يزيد على ٦٧٠٠٠ مستوطن على أراض تم مصادرتها من الضفة الغربية ، أضف إلى ذلك ثمانى مستوطنات واسعة تشبه الحصون يقيم بها ١٠٠ , ٠٠٠ مستوطن فى القدس الشرقية المحتلة ، أما فى قطاع غزة ، فقد أصبح هناك ١٤ مستوطنة بها ٥٠٠ , ٢ مستوطن . وحتى تلك الفترة ، فقد حوالى ربع الفلسطينيين فى الضفة الغربية و قطاع غزة كل أراضيهم أو بعضها (مطر ١٩٩٢ : ٤٤٨) .

منذ ١٩٦٧ ، تم استغلال مصادر المياه فى الضفة الغربية بشكل شبه كامل لصالح اليهود ، سواء فى الأراضى المحتلة أو فى أراضى إسرائيل . ومنذ ١٩٨٧ ، قامت شركة المياه الإسرائيلية «ميكوروت» بحفر أكثر من ٤٠ بئرًا عميقة ، وضخت ٤٢ مليون متر مكعب سنويًا من المياه الجوفية فى الضفة الغربية للمستوطنات اليهودية فقط . أما الفلسطينيون ، فيضخون فقط ٢٠ مليون متر مكعب من آبارهم الضحلة التى ترجع إلى ما قبل ١٩٦٧ . وفى بعض الحالات ، قامت الشركة اليهودية بحفر آبار عميقة بقرب المصادر المائية التى يستعملها الفلسطينيون ، مما أدى إلى جفافها . وقبل ١٩٦٧ ، كانت إسرائيل تضخ ثلث احتياجاتها من الماء سنويًا ـ أى ما يعادل ٨ , ١ مليار متر مكعب ـ من المياه الجوفية التى تقع فى الضفة الغربية . ومنذ تلك الفترة يستغل الإسرائيليون الماء لتلبية احتياجاتهم ، وبعد ذلك يوزعون الماء على المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة . وعلى العكس من ذلك ، فإنه يتم منع الفلسطينيين من الاستفادة من مواردهم من المياه لتحقيق مطالبهم وبقائهم الاقتصادى (مطر ١٩٩٢ : ٤٥٤) .

الانتفاضة

أدى الاحتلال الإسرائيلى إلى موجة من المقاومة لا يمكن تفاديها ، أدخلت

مصطلحًا جديدًا فى المعجم الدولى، ألا وهو مصطلح الانتفاضة (Intifada). وكانت هذه الكلمة بداية المواجهة الفلسطينية للاحتلال فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧ . وأدت الجهود التى بذلها الإسرائيليون لإبقاء الوضع على ما هو عليه (سياسة الوضع الراهن) إلى صدمة المجتمع الدولى؛ بل وحتى صدمة بعض الإسرائيليين . وقد جعلت الانتفاضة الكنائس، سواء على الأرض المقدسة أو فى الخارج، تهتم بالصراع السياسى فى فلسطين (انظر پريور ١٩٩٠، ١٩٩٣، ١٩٩٦) بل وأيضًا تضامن العالم وتعاطف بشكل كبير مع الفلسطينيين، كما أدان الاحتلال الإسرائيلى. وفى ١٥ نوڤمبر ١٩٨٨، أعلن المجلس الوطنى الفلسطينى قيام دولة فلسطين تعيش جنبًا إلى جنب مع دولة إسرائيل. وأكد الرئيس عرفات رسميًا أن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف بإسرائيل و أنها تتخلى عن العنف، وتسعى إلى التفاوض، والتوصل إلى تسوية سلمية تعتمد على قرارات الأمم المتحدة.

عملية السلام(*)

تحولت فرحة الفلسطينيين بسبب انعقاد مؤتمر مدريد فى نوڤمبر ١٩٩١ إلى اكتئاب لدرجة أنه بحلول أغسطس ١٩٩٣ لم يبق هناك أى فلسطينى يأمل فى تحسن مصير الفلسطينيين وأوضاعهم. وعندما كنتُ أقوم بهذه الدراسة فى القدس، أجبرت الاعتداءات المنظمة والعنيفة للقوات الإسرائيلية على لبنان وعملية «المسئولية - Accountability» (٢٥ - ٣١ يوليه ١٩٩٣) ٤٠٠٠٠٠ شخص على الفرار إلى الشمال، وقُتل ١٣٠ شخصًا معظمهم من المدنيين، وألحقت خسائر بالغة بـ ٥٥ مدينة وقرية. وأدت هذه الاعتداءات الرهيبة إلى توحد لبنان بشكل جديد، على الرغم من أن الحرب الأهلية التى بدأت عام ١٩٧٥ كانت تمزقه[1]. وأخيرًا اضطرت إسرائيل إلى

(*) أطلق المفكر الأمريكى اليهودى ناعوم تشومسكى - بأسلوبه الساخر - على عملية السلام اسم: «الفراخ المقلية - Fried Chiken» فهو يرى أن مصطلحه الجديد لا يبعد عما يحدث فى فلسطين أكثر من بعد المصطلح الزائف: عملية السلام، فليس هناك سلام، وليس هناك عملية تحققه - المترجمة.

(١) لم تحترم إسرائيل خلال هذه العمليات مبادئ الحرب وقوانينها، وكان من الممكن ملاحقة المسئولين - خاصة رئيس الوزراء ووزير الدفاع إسحاق رابين، ورئيس أركان حرب الجيش إيهود باراك - بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. كما أن الرئيس كلينتون لم يُدنْ هذه الأعمال على الرغم من اعتراف إسرائيل بأن سياستها هى تدمير قرى جنوب لبنان، وإجبار مئات الآلاف على ترك منازلهم.

تنفيذ حل وسط ـ غير مكتوب ـ اقترحه الأمريكيون يقضى بأن يوقف حزب الله إطلاق قذائف الكاتيوشا على شمال إسرائيل. ولعب حزب الله دوراً حيوياً وجوهرياً فى استقبال المرحلين وفى تقديم الخدمات الطبية لهم. وفى هذا الصدد، أصبح حزب الله حركة المقاومة الفعالة الوحيدة فى مواجهة إسرائيل، مما رفع أسهمه لدى الشعب اللبنانى.

وبعد ٢٢ شهراً من الإحباط بسبب عدم حدوث أى تطور من جراء مؤتمر مدريد، هدد الجانب الفلسطينى بمقاطعة الاجتماع العاشر للمناقشات المقررة فى واشنطن فى بداية سبتمبر ١٩٩٣. ووعياً بالمكتسبات التى حصل عليها أثناء الاجتماعات السرية لأوسلو، عرف «عرفات» كيف يقنع الفلسطينيين بعدم اليأس من المفاوضات واستئنافها لجولة إضافية. وفى نهاية أغسطس، سمحت الاتصالات السرية التى قامت بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى أوسلو وفى مدن أوروپية أخرى، باقتراح قرّب التوصل إلى حل وسط تاريخى. وبناء عليه تكون غزة و أريحا أول من تحصلان على الاستقلال؛ حيث سيحصل الفلسطينيون على الحكم الذاتى لمدة مؤقتة تدوم ٥ سنوات. وبعد ثلاث سنوات سيتم استكمال المحادثات بشأن الوضع الفلسطينى بما فى ذلك مستقبل القدس والمستوطنات ومصير المزاحين (اللاجئين) الفلسطينيين.

أكدت مقدمة اتفاقات أوسلو (إعلان المبادئ) على إرادة الطرفين ورغبتهم «فى وضع حد لعهود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بالشرعية والحقوق السياسية المتبادلة وبذل الجهود اللازمة لتحقيق تعايش سلمى يحفظ كرامة الطرفين وأمنهما، وتحقيق اتفاق سلام عادل نهائى وشامل، بالإضافة إلى العفو التاريخى بفضل الاتفاق المبرم». وفى الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣، فى ساحة البيت الأبيض، أعلنت مصافحة «رابين وعرفات» عن بدء مرحلة جديدة. وأثناء لقائه مع الرئيس الأمريكى« بيل كلينتون» فى الثانى عشر من نوڤمبر، حصل رئيس الوزراء الإسرائيلى «رابين» على بعض الهبات الاقتصادية والتكنولوچية والعسكرية، مع إعادة تأكيد الرئيس الأمريكى«تعهد أمريكا الذى لا يهتز بمساندة إسرائيل وتعزيز أمنها».

إلا أن تأخر إسرائيل فى الانسحاب من غزة ومن أريحا، على الرغم من تحديد الاتفاقيات تاريخ ١٣ ديسمبر على أنه التاريخ النهائى للانسحاب، أدى إلى الشك فى

نوايا إسرائيل الجادة لتحقيق السلام . ويبدو أن القتل الجماعى لتسعة وعشرين مسلماً فى صلاة الفجر فى مسجد حبرون(المسجد الإبراهيمى) يوم ٢٥ فبراير ١٩٩٤ قد دق المسمار الأخير فى نعش اتفاقيات أوسلو . وتأزمت الأمور أكثر فى بداية أبريل، بسبب هجمات حماس بواسطة كتائبها ـ كتائب عز الدين القسام ـ فى عافولة وحديرة . وبعد شهور من تعثر المفاوضات، تم أخيراً إبرام اتفاق الحكم الذاتى الفلسطينى فى غزة وأريحا يوم الرابع من مايو فى وثيقة من ٤٥٠ صفحة، وصحب دخول عرفات غزة مظاهرات فى الأول من يوليه .

إلا أن المعارضة الدينية لعملية السلام كانت تتطور . وطلب كبير الحاخامات السابق «شولومو جورين» من العسكريين عدم الإذعان للأوامر التى قد يتلقونها بتفكيك المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة . وتم القبض على حاخام إفرات «شولومو ريسكين» مع مئات المستوطنين الآخرين، حيث طالبوا بالقيام باستفتاء على اتفاقيات أوسلو ٢ (و هى المرحلة الثانية من اتفاقيات أوسلو التى وافق عليها الكنيست فى أكتوبر ١٩٩٥ بفارق صوت واحد) . وأثناء تجمع معارض لـ «رابين» أمام سفارة إسرائيل فى لندن ٩ أغسطس ١٩٩٥، وصف رئيس المعبد اليهودى الكبير فى القدس «إسحاق رابين» بأنه يرأس حكومة يهودية نازية .

وبموجب اتفاقيات طابا التى أبرمت فى سبتمبر عام ١٩٩٥، يتعين على إسرائيل أن تنسحب من ست مدن (حوالى ٤٪ من الضفة الغربية) يقطنها ٢٥٠٠٠٠ فلسطينى، وتسيطر السلطة الفلسطينية على الخليل جزئيّاً، كما تصبح مسئولة عن النظام العام فى ٤٤٠ قرية فى الضفة الغربية بها ٦٨٪ من الفلسطينيين تشغل ٢٣٪ من مساحة الضفة الغربية . واحتفظت إسرائيل بالسيطرة على ٧٣٪ منها . وأعطت اتفاقيات أوسلو ٢ الحق للسلطة الفلسطينية بالسيطرة الفعلية على ٤٪ من الأرض ومنحتها(*) مسئولية محدودة على ٩٨٪ من سكان الضفة الغربية .

و أثبت هذا الاتفاق، الذى وصفه المنشقون الفلسطينيون بأنه «فاجعة» و «استسلام عن طريق المفاوضات»، عدم توازن الطرفين واختلافهما الشديد، حيث كانت منظمة

(*) وضعت عليها مسئولية ـ المترجمة .

التحرير الفلسطينية غير قادرة و ضعيفة سياسيّا وبدون موارد مالية . ويبقى أن نستكشف هل دشن الحكم الذاتى الذى منحته الاتفاقيات بالفعل« مرحلة جديدة يعيش فيها الشعب الفلسطينى حرّاً ويتمتع بالسيادة فى بلده» وفقًا لوعود عرفات . وقضى الانسحاب الإسرائيلى المحدود على الحلم الصهيونى لدولة إسرائيل الكبرى . وبدأ الانسحاب يوم ٢٥ أكتوبر فى جنين(*) . وأحدث اغتيال رئيس الوزراء «رابين» على يد يهودى متعصب دينيّا(**) يوم ٤ نوفمبر صدمة عميقة وحزنًا بالغًا لدى أغلبية الإسرائيليين ؛ والبعض الآخر أبدى فرحته ، لاسيما المستوطنون وأعضاء الجماعات الدينية لدرجة أن بعضهم رقص فى الشوارع[١] . وبعد انسحاب القوات من طولكرم ونابلس و قلقيلية و بيت لحم ورام الله فى ديسمبر ١٩٩٥ ، زار الرئيس عرفات كل مدينة وأكد أنه فى نهاية النفق الذى يؤدى إلى السلام تظهر «المآذن وجدران كنائس القدس» . وقد تم استقباله فى بيت لحم ، التى قال عنها إنها مكان ميلاد المسيح الفلسطينى ، كضيف شرف فى القداس التقليدى الذى يقام فى منتصف الليل . وشبه البطريرك الأرثوذكسى اليونانى «ديودوروس» الأول «عرفات» بالخليفة «عمر بن الخطاب» الذى تم إعطاؤه «مفاتيح القدس» لأنه حمى المسيحيين . وهذه العبارة الواردة فى الصفحة الثامنة من جريدة القدس ، ألقت بمحررها فى الحبس لمدة ستة أيام من قبل شرطة «عرفات» [لأنه وضعها فى الصفحة الثامنة وليس الأولى] .

وبعد انتظار طويل ، جرت الانتخابات الفلسطينية أخيراً فى ٢٠ يناير ١٩٩٦ على الرغم من مقاطعة المعارضة . وأثبتت المشاركة الواسعة رغبة الفلسطينيين فى إرساء العملية الديموقراطية ، حيث صوت ٦٨٪ من الناخبين فى الضفة الغربية بما فى ذلك القدس الشرقية و ٩٠٪ من الناخبين فى غزة أدلوا بأصواتهم . ولم تصل نسبة المشاركة

(*) ثم قاست جنين من اجتياح الجيش الإسرائيلى لها فى مذبحة عام ٢٠٠٢ ـ المترجمة .

(**) برغم موضوعية المؤلف والتزام الحياد والحق ، وجرأته فى نشر كتابه ـ وهو قسيس ـ فلم يصف جولد شتين الذى قتل تسعة وعشرين مصليًا ، وأصاب أكثر من ذلك ، وكذلك لم يصف قاتل رابين ، بالإرهاب ، وكأن هذا المصطلح حكر على المسلمين ـ المترجمة .

(١) كتب كبير الحاخامات الإنجليز السابق اللورد چاكوبوڤيست إلى رابين لمساندته فى جهوده من أجل عملية السلام قائلاً : «وبما أننى واحد من الحاخامات التقليديين القليلين الذين يساندون جهودكم من أجل السلام ، أظن أننى قد أسهم بتهدئة عداء أهم معارضيك : المستوطنين والجماعات الدينية» (Jewish Chronicle ، ١٨ أغسطس ١٩٩٥ ، ص ١٧) .

فى القدس الشرقية إلا إلى ٤٠٪ بسبب تخويف الإسرائيليين للفلسطينيين من الإدلاء بأصواتهم. وقد حصل عرفات على ٨٨٪ من الأصوات فى الانتخابات الرئاسية، بينما حصل حزبه فتح على ٥٠ من ٨٨ مقعداً فى المجلس. هذا وتم انتخاب ١٦ عضواً آخرين من فتح، من المعارضين لقائمة عرفات. و فوراً تحول زخم الانتخابات إلى أعمال عنف؛ حيث انفجرت فى ٢٥ فبراير حافلة من جراء هجوم انتحارى فى القدس، أودى بحياة ٢٤ شخصًا من بينهم فلسطينيون، وفى أماكن أخرى تم التأثير سلبًا على عملية السلام. وأنزلت إسرائيل هذه المرة عقابًا جماعيًا هائلاً فى الأراضى المحتلة بمساعدة الشرطة الفلسطينية. وأكد إغلاق غزة والمدن و قرى الضفة الغربية مخاوف الذين كانوا يعتبرون أن اتفاقيات أوسلو٢ لم تكن إلا وسيلة لجأ إليها الصهاينة لمحاصرة السكان الأصليين فى مناطق مغلقة مثل بانتوستانات جنوب أفريقيا ومجمعات أمريكا اللاتينية [للهنود].

اندلع العنف فى جنوب لبنان والحدود الشمالية لإسرائيل، وبلغ ذروته مع عملية «عناقيد الغضب» التى شنها رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك «بيريز» يوم ١١ أبريل ١٩٩٦، وبعد ستة عشر يومًا من القصف العنيف، قُدر عدد القتلى اللبنانيين بأكثر من ١٥٠ مدنيًا ونصف مليون من المُزاحين، كما تم تدمير البنية التحتية المدنية لجنوب لبنان. وأدى «القصف الجراحى ـ Surgical Strikes» على أهداف حزب الله بواسطة قنابل ذكية إلى قتل أكثر من ١٠٠ مدنى مُزاح قرب مقر قيادة قوات الأمم المتحدة فى قانا يوم ١٨ أبريل. وتعدت هذه الأعمال الحدود المسموح بها حتى بالنسبة للذين كانوا فى الغرب يجدون الأعذار بشكل سهل للغاية لتبرير أعمال إسرائيل[١]. واخترق هجوم إسرائيل على أهداف أغلبها من المدنيين معاهدة چينيف لعام ١٩٤٩ التى تنص على أن مرتكبى مثل هذه الأفعال يمثلون أمام المحاكم بتهمة جرائم ضد الإنسانية[٢]. وجسدت

(١) بالسخرية القدر، تم إبلاغى بهذه المأساة أثناء حفل أقيم فى لندن فى إطار مؤتمر عن مئوية كتاب هيرتزل «الدولة اليهودية».

(٢) أثناء الاعتداء الإسرائيلى (١٥ أبريل)، مثل أحد اللاجئين الفلسطينيين يبلغ عمره ٨٥ عامًا أمام محكمة بريطانية بتهمة قتل ثلاثة يهود خلال شتاء ١٩٤١ – ١٩٤٢. وأدلى ١٦ شاهداً جاءوا من إسرائيل وسيبريا والكاپ و الولايات المتحدة الأمريكية بشهادتهم. وأقر مسئول كبير هذه المحاكمة باسم مبدأ تطبيق العدالة بدون الأخذ فى الاعتبار الزمن الذى مر منذ ارتكاب الجريمة.

عمليات القتل فى لبنان الحسابات الخاطئة للحاصل على جائزة نوبل بطريقة لا تنسى(*).

وبالفعل، جَمّعَت عملية عناقيد الغضب الجماعات اللبنانية المختلفة و توحدت بشكل جيد ضد إسرائيل، حيث أجبرت إسرائيل على الإذعان للقرار ٤٢٥ للأمم المتحدة الذى يقضى بانسحاب الإسرائيليين من جنوب لبنان. وكشفت مساندة «كلينتون» ووزير خارجيته «كريستوفر» التى لا تهتز لإسرائيل عن عدم احترام الإدارة الأمريكية للقوانين الدولية والسلوك الحضارى عندما يتعلق الأمر بسياستها الخارجية، وعندما يقترب موعد الانتخابات الرئاسية. لم يؤت غزو لبنان ثماره لـ «بيريز»، حيث تم انتخاب «بنيامين نتانياهو» فى انتخابات ٢٩ مايو بدلاً منه. أما «كلينتون» فقد تم انتخابه لفترة ثانية.

وأثناء المفاوضات بين إسرائيل وفلسطين، والتى كان من شأنها أن تتطرق لنقاط هامة تسمح بإرساء السلام بشكل نهائى، وأن تأخذ بعين الاعتبار متطلبات العدالة واحترام القوانين الدولية و معاهدات حقوق الإنسان، ألقى عدم التوازن بين الطرفين ثقله. فالمفاوضات بين طرفين غير متكافئين، و هناك احتمال بسيط جداً لأن تقبل إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة وأن تحترم حقوق الشعب الفلسطينى مثلما هو منصوص عليها فى معاهدات حقوق الإنسان. ولن يتم تصحيح الاضطهاد الذى مارسته وتمارسه الصهيونية على السكان الفلسطينيين على الأقل فى المستقبل القريب. ويكمن الحل العادل للمشكلة فى تراجع الطموح الصهيونى وفى التخلى عن أيديولوچيته؛ وهذا ما يعنى إمكانية رجوع الفلسطينيين المرحلين لديارهم، أو الحصول على تعويضات عادلة وفقًا للقانون الدولى. وهناك احتمال ضعيف جداً لأن تعترف الدولة الإسرائيلية بالقمع الذى مارسته الصهيونية على الفلسطينيين، و تطلب منهم العفو، وأن تمنحهم تعويضات عادلة. وبلا شك يمكن أن نجد حلاً پرجماتيًا مبنيًا على حل وسط يرضى الطرفين، ولكن سيتعين على العدالة أن تصبر بعض الوقت قبل أن يتم تطبيقها.

(*) فى الواقع، نسى المجتمع الدولى ذلك لبيريز، بل نسيته حتى مصر، التى تكرر حضوره إليه ضيفًا معززًا مكرمًا، حتى وهو خارج الحكومة ـ المترجمة.

البعد الدينى

يدفعنا قتل ٢٩ مصليًا بالمسجد الإبراهيمى فى الخليل على يد مستوطن يهودى متعصب دينيًا (٢٥ فبراير ١٩٩٤)[1] واغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين (٤ نوڤمبر ١٩٩٥) من قبل يهودى متعصب ادعى أنه يتصرف باسم الله، إلى التحدث عن البعد الدينى للصهيونية.

كان «يجال أمير» ابن أحد الحاخامات التقليديين، وكان طالبًا فى المعهد العالى لدراسات التوراة فى جامعة بار إيلان التى أنشأها الحزب الوطنى الدينى. ومن بين الكتب التى تم العثور عليها فى غرفته، نذكر كتابًا تم تحريره لتمجيد جولدشتين (Jewish Chronicle ١٠ نوڤمبر ١٩٩٥، ص٣). وأثناء انعقاد اجتماع سبق اغتيال «رابين»، كان زعيم الليكود «بنيامين نتانياهو» يقف على المنصة أمام تجمع المعارضين لـ «رابين»، الذى وصفوه بأنه «هتلر»، وهتفوا صارخين: «رابين» خائن. وأكد العديد من الحاخامات، على سبيل المثال «موشيه تندلر» و«أبراهام هيشت» من نيويورك أنه لن يتم التخلى عن بوصة واحدة من الأراضى التى تم احتلالها (هكذا قالوا) وأضاف «هيشت» أن أى زعيم يهودى يسلم الأرض اليهودية يجب قتله (هرتزبرج ١٩٩٦ : ٣٧). وسنرى أن مثل هذه الآراء المتشددة تنبثق من بعض التفسيرات الخاطئة لتراث الأرض فى الكتاب المقدس.

على الرغم من أن وعد الله بهبة الأرض لإبراهيم و ذريته الوارد فى الكتاب المقدس يشكل عنصراً خاصًا فى تاريخ الإنسانية، إلا أن جميع الأجيال اليهودية تبنوه؛ حيث يتم تأكيده يوميًا فى الصلوات. ولكن لدى يهود الشتات، أصبح «جبل صهيون» مفهومًا ميتافيزيقيًا. واكتشف الحاخامات غير الهيابين لسقوط دولتهم أنه يمكن حمل فلسطين معهم، وبفضل شبكة المعاهد اليهودية، تصوروا أن فلسطين يجب أن تعيش فى إسرائيل إذا لم تستطع إسرائيل أن تعيش فى فلسطين(زانجويل ١٩٣٧ : ٣ - ٤).

فى أدب القابلاه(*) أرض إسرائيل والتوراة والله شىء واحد. أدت الوحدة الروحية

(١) تبدو مقبرة باروخ جولدشتين «الشهيد الصالح» كحديقة ذكريات فى حديقة كاهان فى كريات أربا. وبها مكان معد لصلاة الحجاج إلى قبر الشهيد جولدشتين وإشعال شموع الذكرى. ويقوم مؤيدوه بتقبيل قبره والصلاة عليه. وتحدث الحاخام دوف ليور إلى ابن جولدشتين بمناسبة ذكرى بلوغه سن الرجولة قائلاً: «يعقوف يائير، سر على خطى والدك، كان صالحًا وبطلاً عظيمًا» (تقرير القدس، ١٢ ديسمبر ١٩٩٦، ص. ١٠).

(*) القابلاه: التأويلات الصوفية اليهودية - المترجمة.

للشعب والأرض إلى قبول فكرة الفصل المادى (الجسدى) بين الأرض والشعب حتى نهاية الأزمنة (انظر شوايد ١٩٨٧ : ٥٣٩).

وخلال العصور الحديثة، رأى اليهود الذين اختاروا التحرر واعتبروا البلد الذى يعيشون فيه مماثلاً لما اعتبره أجدادهم صهيون، رمزاً للتحرر العالمى، ورفضوا فكرة إعادة تأسيس السيادة اليهودية. ولكن رفضت الأقلية التقليدية التحرر، واحتفظت بفكرة أن النفى مؤقت حتى عودة المسيا. والصهاينة من جانبهم يطمحون فى التحرر والمساواة لليهود؛ إلا أنهم أصروا على أن هذا الأمر لن يتحقق إلا فى إطار دولة يهودية مستقلة فى أى مكان فى العالم، مثل أوغندا أو شمال سيناء أو فى الأرجنتين (لاكير ١٩٧٢ : ١٥٧ - ١٥٨، ٢٤٧ - ٤٢٨) أو الأفضل فى صهيون.

تبدو العلاقة الوثيقة بين ما هو دنيوى ودينى فى الاسم العبرى لـ (الصندوق) الوطنى اليهودى ـ Keren Kayemet L'yisrael)(*). ففى قداس «سيدو» صباح كل يوم، بعد الصلوات التقليدية، تنشط قراءة الإصحاح ١٣ : ١-١٠ من سفر الخروج ذكرى التحرر من مصر، و تدعو كل شخص ـ حتى اليوم ـ إلى اعتبار نفسه فى رحلة من العبودية إلى الحرية:

> **اليوم فى شهر أبيب (أى فى شهر آذار ـ مارس) أنتم خارجون، لذلك عندما يدخلكم الرب أرض الكنعانيين والحثيين و الأموريين والحويين واليبوسيين، التى تفيض لبنًا وعسلاً، والتى أقسم لآبائكم أن يهبكم إياها، تمارسون هذه الفريضة فى هذا الشهر . . . . فى ذلك اليوم تقول لابنك: إننى أمارس هذا من أجل ما صنعه الرب لى، حين أخرجنى من مصر (الخروج ١٣ : ٤ ـ ٩).**

ويواصل النص:

> **ويكون حين يدخلك الرب إلى أرض الكنعانيين ، كما أقسم لك ولآبائك أن يهبك إياها، أنك تفرز للرب كل ذكر فاتح رحم. . . . إنه بيد قديرة أخرجنا**

(*) كانت مهمته جمع الأموال من يهود الشتات لشراء أراض فلسطينية وبناء مستوطنات إسرائيلية عليها. واختصاره بالإنجليزية هو (JNF).

الرب من ديار العبودية . . . لذلك أنا أقرب للرب الذكور من كل فاتح رحم . . . فتكون هذه الفريضة بمثابة علامة على يدك ورمز على جبهتك ، لأن الرب قد أخرجنا بيد قديرة من مصر (الخروج ١٣ : ١١ - ١٦).

ثم تتبع ذلك بركات دراسة التوراة ، وبركات الكهنة من نسل هارون (العدد ٦ : ٢٤ - ٢٦) . ثم نقرأ من التلمود البابلي :

ها هي الوصايا التي يتمتع الإنسان بثمارها في هذا العالم ، ولكنها تبقى ليتمتع بها ثانيًا في العالم القادم. إنها تكريم الأب والأم ، والقيام بأعمال الخير ، و الحضور الدائم للدراسة [دراسة التوراة] صباحًا ومساءً ، وإكرام الضيف وزيارة المرضى ، وتقديم المهر للزوجة ، ودفن الميت ، والصلاة الخاشعة ، وإرساء السلام بين البشر ، ودراسة التوراة تساوي كل ذلك .

يستدعي الاسم العبري للصندوق الوطني اليهودي الأسطورة المؤسسة : التحرر من مصر ، ودخول أرض الوعد المأهولة بالسكان . وهو يتوسل بفكرة تضحية اليهود لتقديم الشكر ، بتقديم أول مولود من الماشية [بدلاً من أول مولود ذكر في كل عائلة يهودية] . وإذا كانت الهبة المقدسة مقدمة إلى يهوه في الماضي ، فإنه يجب اليوم تقديمها إلى الصندوق الوطني اليهودي كتضحية تساوي الوصايا الأخرى أو تعدلها ، والتي بالإضافة إلى الفوائد والمصالح التي يستفاد منها في هذه الحياة ، سيُجزى عليها في العالم الآخر .

في بادئ الأمر ، كانت فلسطين تعتبر أرضًا خالية من السكان ، إلا أنه ابتداء من أول موجات الهجرة ، عندما واجه المهاجرون الصعوبات كان عليهم أن يعلموا أن تلك الأرض كان يقطنها أكثر من نصف مليون من السكان الأصليين منذ القرن التاسع عشر (أبو لغد ١٩٨٧ : ١٤٠) . ووفقًا للقانون العثماني الخاص بملكية الأرض لعام ١٨٥٨ ، يجب تسجيل أية أرض باسم مالك فردي ، إلا أنه كان يمكن التلاعب بهذه القوانين من قبل الملاك الغائبين . ولكن الفلاحين الذين كانوا يزرعون أرضهم اكتسبوا حس الملكية ، ولم يدركوا أن موقفهم كان ضعيفًا إلا عندما «تم بيع أراضيهم إلى اليهود بدون علمهم» (انظر خاليدي ١٨٩٨ : ٢٢١ - ٢٢٤) . هذا فضلاً عن أن سعر الأرض

أصبح مرتفعًا، وازداد ارتفاعه مع زيادة هجرة اليهود لفلسطين، وحتى قطع الأرض الجدباء كانت مملوكة (للسلطان وفيما بعد للتاج الملكى). وفهم «زانجويل» فوراً المشكلة وحلها طبقًا لـ «الكتاب المقدس»:

> **هناك حقيقة يصعب على الصهيونى أن يصرف نظره عنها، وهى أن فلسطين مأهولة فعلاً بالسكان . . . وبالتالى هناك احتمالان: إما أن نطردهم بالسيف مثلما فعل أسلافنا، وإما أن نواجه مشكلة التعايش مع شعب أجنبى كبير، أغلبه من المحمديين الذين تعودوا على أن يزدرونا منذ عدة قرون (أبريل ١٩٠٥، ١٩٣٧: ٢٠١).**

وبما أنه صاحب الهجرة اليهودية بداية الانزعاج السياسى العربى، كان حتميًا أن تصطدم المصالح.

لم يكن هناك جدل كثير داخل الحركة السياسية الصهيونية بشأن حق اليهود فى الاستقرار فى فلسطين المأهولة بالسكان. وبينما كنا نتوقع بعض المناقشات حول الحق الطبيعى والحق التاريخى و الحق الأخلاقى أو الحق الدينى، اكتفى النقاش بالحاجة إلى «القومية» مع افتراض أن الحاجة تؤسس الحق.

ونتوصل هنا إلى بعض التساؤلات الصعبة: هل ستكون الدولة وطنًا لشعب علمانى، أو الأرض المقدسة التى يجب فيها ممارسة الطقوس الدينية اليهودية؟ هل كان مشروعًا توقع المبادرة الإلهية واللجوء إلى الوسائل العلمانية لإنشاء وطن قومى؟ وفى علم الأخرويات اليهودى، هناك نزاع بين الخلاص الذي يأتى بمبادرة من الله، وذلك الذى يسهله التدخل الإنسانى. ويكمن خطر تخليص إسرائيل نفسها بنفسها فى أنه عمل علمانى على أساس طموح سياسى، فى الاغتراب عن التراث الدينى. ونلاحظ أن هذا النزاع بين العلمانى والدينى مستمر فى إسرائيل حتى اليوم.

التمسك بحرفية الكتاب و التأويلات السياسية

يصعب أن نقيِّم - بدقة - الدور الذى لعبه رجال الدين اليهود واستناد الصهيونية على الكتاب المقدس فى نشر أيديولوجيتها. ومنذ بداياتها، لم تكتف المؤسسة الدينية بعدم

الاعتراف بالصهيونية السياسية، بل عارضتها بشدة. وكما نعلم فقد تغير اللاهوت التقليدى بشكل مفاجئ، وانضم إلى الصهيونية العلمانية والسياسية. وفى هذا السياق الجديد، أمد الرجوع إلى تراث الكتابات المقدسة وتأويله فى المشناه والتلمود وغيرها فى اللاهوت اليهودى، الصهيونية العلمانية بكل الحجج اللاهوتية الكافية لتبرير الاستيطان فى فلسطين، تأسيساً على تراث أقدم من القومية والاستعمار الأوروپى.

يعد الحاخام «أڤراهام إسحاق كوك» (هاراڤ أو راڤ ١٨٦٥ - ١٩٣٥) - الذى سيصبح أول أشكينازى يرأس الحاخامات فى فلسطين - الشخصية المحورية لهذا التحول الرئيسى فى التأويل التقليدى لليهودية. وكانت المهمة أمامه صعبة. و باستثناء الحاخامات المبكرين «ألكالاى» و«كاليشر» وفيما بعد أعضاء الجناح الدينى لحركة «Hovevei Zion» مثل «شموئيل موهيليڤر» و«إسحاق راينز» و«يهيل مايكل پاينز» (أڤينيرى١٩٨١ : ١٨٧)، فكل الحركة اليهودية التقليدية والإصلاحية كانت تعارض الصهيونية. كان أعضاء حركة التقوى، الذين شكلوا سكان المستوطنات اليهودية القديمة، يعارضون بشدة العلمانيين الذين كانوا يخرقون التوراة بانتظام، حين كانوا يهدفون إلى تحقيق خلاص اليهود بطرق علمانية. وبالنسبة للصهاينة (للقادمين الجدد)، لم يكن هؤلاء التقويون إلا متطفلين منحطين عُمْيًا عن رؤية التحرير اليهودى. وقد واجه «راڤ كوك» نقداً شديداً من أشهر الحاخامات (بن صهيون بوكسر فى كوك ١٩٧٩ : ١٠)؛ لأنه أبدى مساندته للعلمانيين الذين يحتقرون قداسة التراث. إن الجمع بين الحركة السياسية الصهيونية والتقليد اليهودى ما هو إلا أمر محفوف بالمخاطر.

وتعد كتابات «راڤ كوك» وتعاليمه من المبادرات الأولى المنظمة لإدماج الفكر الدينى التقليدى والسلبى [فيما يخص قدوم المسيا]، فى تطبيق علمانى عدائى حديث للصهيونية. حيث أدى هذا إلى نشأة الصهيونية، التى تجمع بين الدين والقومية[1]. وأثبت «راڤ كوك» قدرة استثنائية عندما جمع العديد من التقاليد اليهودية فى كل متكامل، حيث اقترح تجديد ما هو قديم، وتقديس ما هو حديث. وحرصاً منه على إيجاد «بريق الأمل المقدس» فى أية أيديولوچية يهودية، كان يعتبر الصهيونية العلمانية

(١) انظر كوك ١٩٧٩ : ٣٠٩ - ٣٩٢ - وكثير من كتاباته لم تنشر إلا بعد وفاته عام ١٩٣٥.

أداة من الله للتمهيد للتحرير والتجديد عند قدوم المسيا، ليس فقط لليهود بل وأيضًا للبشرية جمعاء (بمعنى النوع البشرى فى جسد واحد وروح واحدة) وهذه الفكرة تشكل عاملاً أساسيًا فى لاهوته، يتجاهله تمامًا حواريوه: «ليس من الممكن أن لا نحب جميع المخلوقات لأن هناك نوراً يلمع من كل هذه المخلوقات وكل مخلوق من هذه المخلوقات يبرز جمال يهوه». «يحب البر والعدل. ورحمته تغمر الأرض» (المزمور ٣٣ : ٥) (المبادئ الأخلاقية: الحب، كوك ١٩٧٩ : ١٣٥ فصل ٣). ويتطور كل التاريخ الإنسانى بشكل حتمى نحو كمال مملكة الله؛ وحتى ما هو علمانى له شرارة مما هو مقدس، فأى شىء ما هو إلا قشرة خارجية، داخلها جوهر إلهى.

إلا أنه عند مجيئه إلى فلسطين فى عام ١٩٠٤، لم تلق آراؤه الدينية حماسًا. ووفقًا لرواد الصهيونية، فإن زمن التدين التقليدى للجيتوهات قد ولى.

أما بالنسبة للمؤسسة الدينية التقليدية، فهى ترى أن الصهيونية العلمانية كانت مرتبطة بالأرض بشدة لدرجة أنها لم تعد ترى السماء: «كانوا يرفضون الرجوع إلى تعاليم الله». فقد ألهاهم تركيزهم على القوة والمجد عما هو مقدس وإلهى فى كل شىء حولنا (انظر يارون ١٩٩١ : ٢١٦).

يرى «راف كوك» أن تطبيق خطة الله كانت مرهونة بوحدة الشعب اليهودى، وليس فقط بوحدة التقليديين. وفى تلك الفترة، كانت الطاقة المحركة الإلهية فى ذروتها فى ثورة رواد الصهيونية العلمانيين، وإذا كانت اليوتوبيا العلمانية هرطقة فى عيون المؤسسة التقليدية، فقد كانت مصدراً للتجديد عند «كوك».

جمع فكر «كوك» اليهودى بين التقليدية والقومية الصهيونية و تحرر عصر التنوير، على الرغم من أن دفاعه عن قيم عصر التنوير لم يؤثر فى تلاميذه. وأثبتت التقليدية الدينية جفافها، بينما لم تكْف القومية ـ مثلها فى ذلك مثل أى نظرة ضيقة ـ إلا لشريحة من الحياة، وليس لكل الحياة. ولم تكن الصهيونية مذهبًا جديداً، وإنما وسيلة منذ القدم لتحقيق المثالية وهى الاستيطان على الأرض بهدف تطبيق التعاليم اليهودية، الذى يعد شكلاً من أشكال التعجيل بالتحرير الإلهى. الرجوع إلى صهيون واجب فورى على كل يهودى، وليس فقط فرضية مسيانية متروكة لتدبير الله؛ فهدف «كوك» هو القدس الأرضية وليس فقط القدس السماوية. ويرى «كوك» أن العلاقة بين الله والأرض لها

أصل إلهى «تظل طبيعتنا الداخلية التى لا تتغير ـ قلوبنا وأرواحنا ـ ملتزمة بشدة بالأرض المقدسة . . أرض إسرائيل . . مما يشكل الأساس للرسالة الإلهية للشعب اليهودى. ولا يمكن أن يحقق أى فرد يهودى وجوده إلا فى إسرائيل . وستشع عبقرية إسرائيل الإلهية وتضىء العالم بأكمله عندما تجتمع كل الأمة جسديًا وروحيًا بالأرض . ويعد إعادة إقامة إسرائيل فى موطنها شرطًا لاكتمال الطهارة اليهودية . ويطبق الصندوق اليهودى القومى بعمله فى استعادة أراضى إسرائيل من الأغيار دوره فى الأمر الإلهى فى «فتح أرض إسرائيل» (يارون ١٩٩١ : ٢٠٨-٢١٢).

وزعم الحاخام «كوك» ، وفقًا لنظرته المسيانية القبالاية الفريدة ـ والتى تحجب أكثر مما تكشف - أن الله بعث بالتحرير من خلال إلهام «بلفور» بإصدار إعلانه ، الذى عكس فجر الخلاص (يارون ١٩٩١ : ٢٢٦)[1] . لم يكن من الممكن فصل الممارسات العملية عن الطموحات الروحية ، كذلك كان النشاط الاجتماعى والباطنى ذا معنًى دينى ؛ حيث كان العمل بشكل نشط يشكل أرضية سفلية لاستدعاء النعمة المسيانية من أعلى (هرتزبرج ١٩٩٦ : ٣٩) . وبينما كان الصهاينة المتدينون مثل «أحد هاعام» يركزون على البعد الدينى للعودة ، و الصهاينة العلمانيون مثل «هيرتزل» يوضحون البعد السياسى ، كان «راف كوك» يبحث عن نتيجة يزعم من خلالها أنه يمكن تداخل الأبعاد السياسية والميتافيزيقية فى دولة واحدة . وحتى الملحدون وأنصار الصهيونية العلمانية يعكسون المقدس عندما يتشربون روح إسرائيل (يارون ١٩٩١ : ٢٠٣) .

وحتى إن كان العلمانيون يستوحون أفكارهم من القومية والاشتراكية الأوروبية ، من وجهة نظر عالمية موضوعية ، فإن روح أعمالهم مستوحاة من الإرادة الإلهية التى يخفيها الحافز العلمانى الظاهر . وحتى إن أرادوا أن ينفوا نهائيًا قدوم المسيا مرة أخرى ، فإن أعمالهم كانت تعجل بقدومه دون أن يعلموا ذلك ؛ حيث كانوا يطبقون الخطة الإلهية . وكان يتعين على اليهودية الدينية أن تتخلل القومية العلمانية الملحدة إلى البريق الإلهى فى قلب الصهيونية . فروح الله هى روح إسرائيل (القومية اليهودية) .

---

(١) بعد الإعلان عن وعد بلفور ، كتب كوك للورد روتشيلد وأكد خلال لقائه فى لندن : «لم آت لأشكر إنجلترا ، وإنما لأهنئها لأن الله اختارها لتكون مصدر هذا الإعلان للشعب الإسرائيلى » (يارون ١٩٩١ : ٣١٨ هامش ١٢) .

وأثار مثل هذا الالتحام بين العلماني و الديني معارضة قوية لدى الذين لم يستطيعوا أن يقبلوا أن القومية الصهيونية تعد تعبيراً كافيًا عن إحساس الأمة اليهودية بأنها مُشبعة بالمقدس. فى بادئ الأمر، قام بعض الحاخامات بنقد رواد الصهاينة بشكل علنى، لاسيما رواد الموجة الثانية المتأثرين بالثورة الاشتراكية فى روسيا. إذ بدا للآخرين أن الصهيونية فد تخلت عن جذورها الدينية اليهودية، عندما بحثت عن التطبيع بدلاً من التفرد والتميز المناسب لشعب مُشبع بالألوهية، فقد استطاعت رؤية «راف كوك» أن تتخلل الضباب العلمانى الذى ألقى بظلاله، والأحجبة المتعددة التى غطت القيم الجوهرية للتقاليد اليهودية .

وبما أنه كان رئيس الحاخامات فى القدس وفلسطين لمدة ١٦ عامًا حتى وفاته عام ١٩٣٥، فلقد استغل «راف كوك» الفرص الكثيرة التى لاحت له لنشر نظرته الخاصة بشأن الباطنية السياسية فى الخطاب الصهيونى. وكما سنرى، فإن كتاباته العديدة وإنشاءه لمركز الحاخامات[1]، لعبت دوراً مهمًا فى نهضة صهيونية سياسية دينية حتى اليوم.

ولم تتناول مقتطفات كتاباته التى تم نشرها بشكل واسع، تجديد إسرائيل على أرض كان اليهود فيها أقلية وكان فيها سكان أصليون، وعلى ضوء ما جرى بعد ١٣ عامًا من وفاته من أعمال وحشية خلال التحقيق الجزئى لحلم الصهيونية العلمانية فى ١٩٤٨-١٩٤٩، وفى الظلم الذى أوقعه حواريوه، وما زالوا يوقعونه بالسكان الأصليين، والذى ينبع من حماستهم الدينية، والذى صدم البشر العاديين بقسوته، يتساءل المرء عن ثقة الحاخام فى تحرك التاريخ نحو مملكة السماء، وربما أنقذت وفاته قبل البداية الأولى للعصر المسيانى عام ١٩٤٨، سمعته كروحانى وفيلسوف وقديس.

دولة إسرائيل

أكد إعلان إسرائيل بشأن «قيام الدولة اليهودية»أنه ستكون هناك علاقة وثيقة بين

(١) أسس مركز الحاخامات عام ١٩٢١ كمؤسسة تخدم كل الشعب اليهودى، ويتم فيه تدريس تعاليم اليهودية بما فى ذلك الهالاكاه، ودراسات الكتاب المقدس والتاريخ اليهودى، وأرض إسرائيل والفلسفة اليهودية والعلوم وكذلك الأدب، فى دورات مدتها ست سنوات (يارون ١٩٩١ : ١٧٧-٧٩).

الحياة الدينية و الحياة السياسية، وأن الأيديولوچيات التى تستند على مبادئ دينية ستميز الخطاب السياسى بالمعنى الواسع والشامل. وقد حظيت فكرة الرجوع إلى الأهمية التأسيسية للتوراة بدعم واسع حتى بين اليهود الملحدين[1]، ولكن لم تعد القيم الدينية خاصة فقط بالأحزاب السياسية (حصلوا على ٢٣ مقعداً فى الكنيست من ١٢٠ فى ١٩٩٦). وفى ما يخص بعض المسائل الأساسية مثل مسألة الأرض، تتعدى الموافقة إطار الأحزاب بشكل يعتمد على مذهب «كوك» الذى يجمع بين العلمانى والمقدس. ومن مميزات السياسة الإسرائيلية قدرة المجموعات غير البرلمانية على التأثير فى المسار السياسى.

هذا كما أن النظام الانتخابى فى إسرائيل يعطى لأيديولوچيات الأقلية تأثيراً أكبر من حجمها، وأى حزب أو قائمة انتخابية تحصل على ١,٥٪ من الأصوات لها الحق فى التمثيل فى الكنيست بالنسبة التى حصلت عليها. ويؤدى هذا النظام إلى انتشار الأحزاب وتعددها، والتى بفضل عدد ضئيل من المقاعد، يصبح لها وزنها على الساحة السياسية بين ١٢٠ عضواً فى الكنيست. وفى انتخابات مايو ١٩٩٦، كان هناك ٢٠ قائمة، حصلت ١١ قائمة منها على مقاعد، بينها ٥ قوائم لم تحصل إلا على خمسة مقاعد. وبما أنه لم يحصل أبداً أى حزب على الأغلبية المطلقة، تعين على كل رؤساء الوزراء أن ينشئوا ائتلافات، وفى كل مرة مع أحزاب دينية. وصوت حوالى ٩٠٪ من أنصار الأحزاب الدينية وأتباعها لصالح «بنيامين نتانياهو» الذى تم انتخابه رئيس وزراء بفارق ضعيف للغاية، واستطاع أن يشكل حكومة ائتلاف تتكون من ١٩ عضواً ينتمون

(١) كان بن جوريون يعقد بشكل منتظم «حلقة رئيس الوزراء لدراسة الكتاب المقدس». وكان ينضم إلى هذه الحلقة زلمان شازار الذى كان وقتها رئيساً لدولة لإسرائيل. وكان خطابه المقدس الذى ألقاه فى نهالال يوم ٢٠ يوليه ١٩٦٤ والذى كان يحمل عنوان « الكتاب المقدس والشعب اليهودى» يستعمل بشكل واسع نصوص الكتاب المقدس وخاصة النصوص التى تشير إلى استعادة الأرض. وعندما يشير إلى أنبياء اليهود وحرصهم على تطبيق العدالة، فإنه لا يُلمح نهائيّاً إلى الأوامر التى تدعو لسلب الكنعانيين ممتلكاتهم، ولا يشير إلى أسطورة يشوع، ولا للتقاليد العنصرية التى تحض على كراهية الأجانب والدعوة إلى القتل باسم الله، والمرة الوحيدة التى ذكر فيها الفلسطينيين، هى تلك التى كان يريد أن يثبت فيها أن العالم أجمع يحترم إسرائيل وينظر إليها بإعجاب بينما: «لم يستوعب بعد جيراننا العرب وجودنا السلمى، ويؤكد زعماؤهم رغبتهم فى تدميرنا» (١٩٧٢ : ٢٩٤). انظر أيضاً موشيه ديان: العيش مع الكتاب المقدس (١٩٧٨).

لحزب شاس السفاردى، وللأحزاب الدينية القومية(NRP)، مع تأييد أربعة أعضاء من حزب «يهودية التوراه المتحدة ـ United Torah Judaism» وتقلد أعضاء حزب شاس و(NRP) فى هذه الحكومة مناصب مهمة فى وزارات التعليم و الثقافة و العمل والداخلية، وشهدوا مشاركة واسعة فى عدة لجان فى الكنيست. وفى المقابل، تستغنى الأحزاب الدينية عن جزء من أيديولوچيتها فى حل وسط مع الأيديولوچيات العلمانية لاعتبارات ترتبط بالمصالح والظروف. وفيما يلى سأدرس بعض الطرق التى عن طريقها تخللت قيم التوراة المجتمع الإسرائيلى.

اليمين الصهيونى المتطرف

يعنى اليمين المتطرف أو اليمين الراديكالى فى إسرائيل، تلك الجماعات التى تهدف إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى التى تتعدى الحدود التى رسمتها هدنة ١٩٤٩ . وبالنسبة للبعض، يعنى هذا الأمر ضم الأراضى المحتلة، ولكن البعض الآخر له أهداف فى ضفة نهر الأردن الشرقية أيضًا. يبرز الدين والتوراة بشكل واضح فى هذه الأيديولوچية التى تتفق مع أيديولوچية غلاة القوميين فى كراهية الأغيار، وأيضًا تتفق فى معظم الأحيان فى استخدام العنف والوسائل الفاشية لتحقيق أهدافها الدينية السياسية. وينتمى كل من «جوش إمونيم» و«تحيا تزوميت» و «موراشا» و«مولديت» و«الكاخ»[١] ـ التى أصبحت مؤخراً حركة غير قانونية ـ إلى الحركات التى تهدف أساسًا إلى إقامة إسرائيل الكبرى. وكانت حركة «كاخ» الأكثر تطرفًا فى دفاعها عن سياسة كراهية الأجانب الواضحة والتى اعتمدت فيها على التوراة، و اتضح أن مجموعة «جوش إمونيم» المجموعة الأكثر نفوذًا.

ومن أهم مميزات الحياة السياسية الإسرائيلية الحديثة هو صعود اليمين الدينى القومى منذ الثمانينيات. و بالتالى يتم اليوم احترام كل الأفكار التى كانت تبدو فى الماضى مغالية فى القومية، متمركزة على العرق الذاتى، ذات هلع مرضى ضد الأغيار، وقتالية.

(١) انظر لوستيك ١٩٨٨ و سپرينزك ١٩٩١ . تظهر الأحزاب وتختفى بسرعة فى الساحة السياسية المضطربة لليمين الإسرائيلى.

وإذا كان «راف كوك» قد ذكر فى كتاباته بوادر النهضة اليهودية ، فإن فضل تطويرها يرجع إلى ابنه الحاخام «زيفى يهودا كوك» وحوارييه فى مركز «هاراف». وإذ لم يتم أخذ معتقدات «راف كوك» بشأن بداية العصر المسيانى بجدية فى عصره، فقد قام ابنه ـ بفضل برنامج ذى أنشطة سياسية مسيانية بتأكيد أفكار والده ومعتقداته. واستنادًا على فكرة أعلوية الشعب اليهودى، أصر «كوك» الابن على الطبيعة الفريدة والمقدسة للشعب اليهودى ولكل يهودى حتى الصهاينة الملحدين أو المعادين للدين، وكان يرى فى إقامة الدولة اليهودية الخطوة الأولى فى طريق قدوم المسيا، وجميع مؤسسات الدولة وسائل تسعى إلى قدوم المخلص ؛ وبذلك تكون الحكومة والجيش مقدسين(كوك ١٩٩١ : ٣٥٣).

وعشية ٢ مايو ١٩٦٧، ألقى الابن «كوك» كلمة أثناء تجمع خريجى مركز «هاراف». ورثى بحزن تقسيم أرض إسرائيل. فقد فككت خطة تقسيم الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ «أرض إسرائيل إلى قطع، وهى إرث أسلافنا، حيث أصبحت بعض أجزاء وطننا لدى الأجانب» وعاش هو بنفسه هذا الحزن فى غرفة أبيه الصغيرة، بينما كان اليهود يرقصون فى الشارع. واليوم فى ١٩٦٧، متذكرًا ذلك اليوم الحزين ومتأملاً كلمة يوئيل : «اقتسموا أرضى» (٣: ٢) يصرخ بكل حزن :

أين الخليل؟ هل نسيناها؟ أين شكيم؟ هل نسيناها؟ أين أريحا ؟ هل نسيناها أيضًا؟ أين الجانب الآخر من نهر الأردن؟ أين كل قطعة أرض وكل ذرة ومتر مكعب من أرض الله؟ هل الأمر متروك لنا لنتخلى عن أى ملليمتر من هذه الأرض؟ . . . ثم أجاب : لا قدر الله. (كوك ١٩٩١ : ٣٣٨-٣٣٩).

وبعد ثلاثة أسابيع ، وقعت كل من القدس و الخليل وشكيم وأريحا فى أيدى إسرائيل التى كانت تسيطر على دولة ذات أراض محتلة مساحتها أكبر من دولة إسرائيل نفسها بثلاثة أضعافها، و اقتنع أنصار «كوك» الابن أنه فى ذلك اليوم سكنته روح مقدسة ألهتمه ما قال (سپرينزاك ١٩٨٥ : ٣٧-٣٨). وعززت الحرب الوحدة القومية لليهود داخل إسرائيل وخارجها و أعلنت بدء «إعطاء الأهمية الكبرى لتوسع الأراضى» (سپرينزاك ١٩٩١ : ٣٥- ٦٩). أما بالنسبة للأكثر تدينًا، فمثلت الحرب صحوة على

المستوى الدينى و القومى. وكان احتلال القدس الشرقية وكل الأماكن المقدسة بمثابة برهان على بداية الخلاص الإلهى الذى يقوم على ثلاثة عناصر: أرض إسرائيل وشعب إسرائيل و توراة إسرائيل. وكان الجانب الدينى مستعداً أن يملأ فراغ مثاليات الصهيونية التى ضعفت. واقتربت أيام قدوم المسيا، وكان يمكن تسهيل قدومه بالعملية السياسية، ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى القوة. وتم تدريجيّا اكتشاف أن مثل هذه الأفكار لم تكن قاصرة على الحاخام «مائير كاهان» وإنما شاركه فيها عدد من الشخصيات اليهودية التقليدية الهامة فى القرن العشرين (هرتزبرج ١٩٩٦: ٣٧).

يرى الحاخام «مائير كاهان» وتابعوه من حزب «كاخ» (حزب سياسى أسسه عام ١٩٧٢) أن أسس الدولة هى الدين والتوراة وليس الديموقراطية. فالصهيونية والديموقراطية الغربية غير متوافقتين. إن التوراة فقط التى تميز بين اليهودى وغير اليهودى، أما اليهودية العلمانية فما هى إلا إلحاد يتزيا بعباءة الصلاة. وتعطى التوراة الشرعية للدولة اليهودية لأن الله حرر شعبه من العبودية فى مصر وأعطى أرض الوعد لليهود و أمرهم بالعيش فى أرض إسرائيل. وليس هناك إلا التوراة التى تحفز أى يهودى للعيش فى منطقة بائسة وبدون مصالح، وهى كارثة كاملة من الناحية الجغرافية والمادية (كاهان فى ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧: ٣٨-٤٠). يجب أن يترك اليهود الشتات ويستقروا فى الأرض بأمر من الله. ويحدد الكتاب المقدس الحدود«أدناها من العريش شمال سيناء بما فى ذلك ياميت، وجزء من شرق نهر الأردن، وجزء من لبنان، وأجزاء من سوريا، وجزء من العراق حتى نهر دجلة» (ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧: ٥٤-٥٥).

يعيش اليهود منفصلين عن مجتمعاتهم بأمر من الله، مع علاقات محدودة مع كل ما هو أجنبى، بشكل يسمح لهم بالحفاظ على الثقافة اليهودية النقية، القائمةعلى التوراة. و بالاتفاق مع نظريات «كوك»، فإن «كاهان» مقتنع بأن الصهيونية تعجل بقدوم المسيا وأن إقامة دولة إسرائيل تشكل بداية عصر المسيا. ولهذه العناصر أهمية تلغى أى اعتبارات تخص السكان الأصليين، ولتفادى أى مشاكل فى المستقبل يجب ترحيل العرب باستخدام أقل قوة ممكنة. . إلا أن «كاهان» يرى أنه ليس لديهم أى حق أن يبقوا فى القدس، وسيفرح إذا فجر أحدهم مسجدى جبل المعبد (ميرجى وسيمونوت

١٩٨٧ : ٤٣-٤٨-٨٥-٨٦). وأكد «كاهان» إجماع كل الحاخامات ـ وبوضوح ـ على استبعاد العرب، وإن كان بعضهم يصرح بذلك فى السر فقط.

وبعد سقوطه فى انتخابات عام ١٩٧٧ و١٩٨١، تم انتخابه فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤ بنسبة ١,٣٪ من الاقتراع الوطنى. ومنذ السبعينيات وحتى اغتياله فى الخامس من نوڤمبر ١٩٩٠، كان من طائفة الزيلوت الأكثر تشدداً بشأن تطبيق نموذج الكتاب المقدس فى الاستيطان على أرض إسرائيل (فريدمان ١٩٩٠، ١٩٩٢، سپرينزاك ١٩٩١). وكانت أيديولوچية «كاهان» المعادية للديمقراطية متناسقة مع التأويل الحرفى للتوراة. لا يمكن تخطئته على سعيه لتنفيذ الأوامر الإلهية فى التوراة، والتى لا تجيز طرد السكان الأصليين فقط، بل تأمر به. وقد لقى جمعه بين قيام دولة إسرائيل وبداية العصر المسيانى تعاطفاً حاراً فى معسكر غلاة القوميين الدينيين، أصحاب الرؤية الغائية للتاريخ.

وقد أحرجت مناهج «كاهان» الخاصة والعنيفة ولهجته العدوانية المؤسسة السياسية، وتم أخيراً حظر حزبه خلال الانتخابات، وأطلق عليهم «الجماعة المجنونة» فى المجتمع الإسرائيلى. ولكن كانت هناك طرق أكثر ذكاء وأقل إزعاجاً للتوصل لنفس الأهداف. وجددت حرب ١٩٦٧ الصهيونية الدينية وأظهرت قيمة الثقافة الصهيونية الحقيقية المعنية بنهاية العالم، والتى كانت محدودة فى بعض المدارس. وتأسست عدة حركات، مثل حركة «كل أرض إسرائيل» والتى أعلنت فى سپتمبر ١٩٦٧ أن غزو الأراضى العربية يشكل عملية لا يمكن التراجع عنها، وأن إسرائيل يمكنها أن تستوعب عدداً أكبر من المهاجرين، وأنها تستطيع إنشاء مستوطنات جديدة (سپرينزاك ١٩٩١ :٣٨-٤٣)

وأدت حرب يوم كيپور عام ١٩٧٣ التى أولها الحاخام «يهودا أميتال» على أنها إعادة تأكيد لعملية تحرير المسيا، والحاجة لاتخاذ إجراءات حاسمة لضمان تعزيز الوجود اليهودى على أرض إسرائيل. وأدى ذلك إلى تأسيس «جوش إمونيم» من قبل طلاب كانوا يدرسون فى مركز «هاراڤ». وتأسست الحركة فى فبراير ١٩٧٤ كحركة غير برلمانية بدلاً من أن تبقى مجموعة ضغط فى حزب (NRP) (سپرينزاك ١٩٩١: ٦٤-٦٦). وبدت من أول الأمر كمنظمة فعالة، قوية التمويل، رفضت دائماً أن

تتحول إلى حزب سياسى، أو أن تساند بعض الأحزاب مهما كانت. وكان أعضاؤها من اليمين المتطرف ومن اليمين وحتى من اليسار.

استمدت الحركة أفكارها من تعاليم «كوك» الأب، ثم الابن الذى بقى الزعيم الروحى للحركة حتى موته عام ١٩٨٢ .وبالنسبة لـ «كوك» الابن وحوارييه، تعد حرب ١٩٦٧ مرحلة تحول حاسمة فى عملية التحرير المعقدة. وبما أن حدود أرض إسرائيل محددة فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين وليس بوضع إسرائيل قبل ١٩٦٧، كان لليهود الحق فى أن يطبقوا «أوامر الغزو»؛ وبالتالى أن يستوطنوا كل الأرض لحماية السيادة اليهودية عليها. وعندئذ فقط، يصيرون فى موطنهم الصحيح، وبالتالى فليس بإمكانهم على الإطلاق التخلى عن يهودا والسامرة (الضفة الغربية).

وكان سكان المنطقة العرب يتذكرون دائمًا مأمورية يشوع المقدسة. وكان من الممكن للعرب أن يبقوا لكن بشرط الموافقة على وضعهم كأقلية، وأن لا يثيروا مشاكل. وعندما يستوعبون أن الأرض يهودية، يمكن حينها إقامة علاقات صداقة. ويرى «زيفى يهودا كوك» أنه لم يتم أبدًا طرد العرب فى ١٩٤٨و ١٩٤٩ «لقد غادروا وحدهم سواء بسبب الجبن أو بسبب الخوف المبالغ فيه». إن المطالبة اليهودية بشأن الأرض ترتكز على مفهوم الإرث الذى يؤكده الكتاب المقدس والتاريخ. وعقب الهولوكوست ـ وهو رمز شر الأغيار وكراهيتهم العميقة لليهود ـ أصبح ضروريًا لليهود أن يستقروا فى دولتهم بعيدًا عن الأغيار، دعمًا لبعض أكثر روايات الكتاب المقدس الخاصة بتقاليد الهلع المرضى من الأجانب، والذاتية العرقية، مثل (عزرا ٦ :٢١، ٩ :١، ١٠ :١١ ونحميا ٩:٢، ١٠ :٢٨، ١٣ :٣)

وبينما ركزت حركة «جوش» على استيطان اليهود فى الأراضى المحتلة، فقد اعتبرت نفسها أيضًا حركة تجديد للصهيونية. وبعد إقامة الدولة، استقرت الصهيونية على إنشاء مجتمع مادى حلت فيه المتعة الفردية محل أهداف الأمة ورسالتها، بينما قررت حركة «جوش» جعل عملية الخلاص الوطنى مستمرة كما أمرت التوراة، وكما ركزت نظريات «كوك». وكان الاستيطان فى يهودا والسامرة يشكل عنصرًا حاسمًا فى هذه العملية التى كان على كل يهودى أن يلعب فيها دورًا. وكان هذا الأمر يتعارض

بشكل كبير مع المفهوم التقليدى للمسيانية اليهودية التى تفضل موقفًا سلبيًا وغير مُسَيَّس فى انتظار قدوم المسيا الإعجازى. هذا بالإضافة إلى أن حركة «جوش» أقحمت عنصراً سياسيًا عنيفًا فى الصهيونية الدينية.

ومنذ بداياتها، كان يدير حركة «جوش» الحاخام «موشى ليفينجر» الذى كان أحد نواتج مركز «هراف». وكان يعتبر أن المعركة من أجل الاستيطان اليهودى تمهد لقدوم المسيا. ويعد إنشاء إسرائيل الكبرى واجبًا مقدسًا مثل احترام يوم السبت. وتنبثق هذه الممارسات بشأن احتلال يهودا والسامرة من التأكيدات الأيديولوجية لتعاليم «راف كوك» وأفكاره. نمت عشرات المستوطنات على تلال يهودا والسامرا نتيجة إصراره ومثابرته فى تشبيه إقامة مستوطنات بالخليل وشكيم بإقامة مستوطنات تل أبيب والقدس، تنفيذاً لأوامر إلهية فى التوراة. وأنشأ المستوطنات الأولى بعد ١٩٦٧ (كفر الزيتون، كريات أربا والخليل) حاخامات شباب من خريجى مركز «هراف». رأوا أن الاستيطان تطبيق للتوراة مثلما كان غزو يشوع استمراراً لتعاليم موسى ورسالته على الأرض. ورأوا أن كل استيطان جديد شهادة جديدة على اختيار الله لشعب إسرائيل وصدق التوراة وكلمة الرب وأنبيائه (انظر حزقيال ٣٦: ٣٤ - ٣٦ تم ذكره فى زفى يهودا كوك ١٩٩١ : ٣٥١ - ٣٥٢). ويواصل اليوم «ليفينجر» وأتباعه أهدافهم مرتدين ملابسهم السوداء التقليدية، وعلى رءوسهم قبعاتهم وطواقيهم، ورشاشاتهم على أكتافهم. وتم سجن «ليفينجر» لمدة ١٠ أسابيع بتهمة قتل فلسطينى فى الخليل فى سبتمبر ١٩٨٨(*).

تتمثل سياسية حركة «جوش» فى توسيع بناء المستوطنات واستقرار مليون يهودى فى الضفة الغربية قبل نهاية الألفية الثانية، بشكل يجعل من أى حل وسط بشأن الأرض مستحيلاً، ويصبح ضم الأراضى المحتلة الحل الوحيد و النهائى(**). وبما أن حركة «جوش» لم تلق مساندة كبيرة من قبل اليهود خارج إسرائيل، فقد سعت إلى تشجيع اليهود الذين يعيشون فى إسرائيل للاستقرار فى الجولان والضفة الغربية وغزة.

(*) لا تعليق! ـ المترجمة.

(**) هل نجحت حركة «جماعة المؤمنين ـ جوش إمونيم» فى فرض أجندتها وحلها على أرض الواقع؟ ـ المترجمة.

ويرى مسئول نشاط الاستيطان فى الحركة «هنان پورات» أن: العمل فى المستوطنات يعطى تجدداً روحيّا، وهو علاج ضد المادية والإباحية التى غزت الوطن. ولهذا السبب انتقلت قيادة الدولة من المعسكر العلمانى إلى المعسكر الدينى ـ القومى (ذكر فى ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧: ١٢٦ - ١٢٧).

بسبب عدم انتمائها السياسى لأى حزب، أثرت حركة «جوش» بشكل كبير على جميع الحكومات. ونظم حزب العمل أول حركات الاستيطان، وبتقلد الليكود برئاسة مناحيم بيجن الحكومة عام ١٩٧٧، أعطت الحكومة الجديدة لحركة «جوش» أعلى مستويات الشرعية الحكومية، وأنهت كل الحذر الذى لازم حكومات العمال فى عملية بناء المستوطنات (سپرينزاك ١٩٩١: ٧١ - ١٠٥). وعرف «ليڤينجر» كيف يستغل تضارب الآراء داخل الحكومة ليقيم مستوطنة كريات أربا. هذا بالإضافة إلى أن زوجته «ميريام» قادت فى الثالثة صباحًا فى مارس ١٩٧٩ عملية احتلال أرض فى الخليل لتصبح نواة مستوطنة لأربعمائة يهودى يعيشون فيما يشبه قلعة وسط ١٥٠٠٠٠ فلسطينى.

ووقعت كل الحكومات الإسرائيلية تحت ضغوط «ليڤينجر». وواصلت الحركة تطبيق سياسة الأمر الواقع. وقد أنشأت فى بادئ الأمر مستوطنات غير شرعية، وبعد ذلك حصلت على موافقة الحكومات، بل ومباركتها ومساعدتها. ولا تبالى حركة «جوش» نهائيّا بالعواقب التى تلحق بالسكان الأصليين، فهى ترى أن الأرض ملك لليهود بأمر إلهى، وهذا أمر حتمى. ولا يتم تطبيق المبدأ العالمى بشأن حق تقرير المصير إذا تعلق الأمر بدولة إسرائيل، وبالتالى فإن المطلب الفلسطينى بشأن تقرير المصير لا يعنى شيئًا للصهاينة. فالفلسطينيون ليسوا يهوداً، وفى هذا الصدد يجب معاملتهم بتسامح واحترام لا أكثر(*) (سپرينزاك ١٩٨٥: ٣١ - ٣٢). وللفلسطينيين ثلاثة خيارات: أن يقبلوا بتفسير الصهيونية وفقًا لحركة «جوش» والحصول على الحقوق المدنية، أو القبول بقوانين الدولة دون الاعتراف رسميّا بالصهيونية والحصول على جميع الحقوق التى يتمتع بها أى أجنبى مقيم، أو الحصول على حوافز والسفر إلى بلد عربى.

(*) أين هو؟ ـ المترجمة.

وترى حركة «جوش» ـ وفقًا لأيديولوچيتها ـ أن الفلسطينيين ما هم إلا محتلون غير شرعيين، وهم يشكلون إذن تهديداً بالنسبة لعملية الخلاص. ولا يمكن تقديم حقوقهم على الإرادة الإلهية. وبالتسلح بالتوراة المعصومة، والتى لا تقتصر على تبرير العنف، بل تقدسه بالأوامر الإلهية، وباتباع نموذج يشوع المجيد، تواصل حركة «جوش» سياستها التوسعية دون الاكتراث بالفلسطينيين. وترجع أيديولوچية الحركة إلى الفكر الدينى القومى، وهى تمثل جزءاً من الثقافة الدينية الأكثر توسعًا التى انتشرت سريعًا فى الخمسينيات (سپرينزاك ١٩٨٥ : ٢٧). ويرجع سبب نجاح الحركة إلى قدرتها على تبنى القيم الأولية للصهيونية فى وقت فقدت الصهيونية أهم ما يشكل تصورها وفكرها.

وأسس كل من البروفيسور «يوڤال نيمان» و «جولا كوهين» ـ وهما من المؤيدين السابقين لحزب الليكود ـ حزب Tehiya (حزب النهضة) عام ١٩٧٩، حيث صُدما «بخيانة» بيجن فى كامب ديڤيد. ولحقهما بعد ذلك أعضاء من حركة «جوش إمونيم» وحزب أرض إسرائيل، وباركهم «راڤ كوك». وعلى الرغم من أن «نيمان» ملحد إلا أنه يرى أن التراث مهم للغاية للقيام بحركة ثورية تدافع بقوة عن الإرث الروحى للشعب اليهودى، وطالب بالرجوع إلى الكتاب المقدس، كما حافظ على الحوار مع المجموعات القومية والدينية المتطرفة؛ فقد تسهم نهضة الصهيونية فى إيقاف الانحدار الأخلاقى للشباب الإسرائيلى. ويرى حزب النهضة نفسه بمثابة جسر بين اليهود المتدينين والعلمانيين (سپرينزاك ١٩٩١ : ١٦٩).

وتحت الضغط الاستعمارى الواسع والمستمر، تخلى العرب عن يهودا والسامرة مثلما تخلوا عن الجليل. وكان «نيمان» يسعى إلى الحصول على ٢٠ مقعداً أثناء انتخابات ١٩٨١، إلا أنه لم يحصل إلا على ثلاثة مقاعد، ثم حصل على ٥ مقاعد عام ١٩٨٤. ويرى حزب النهضة أنه يجب على إسرائيل أن لا تتخلى عن ذرة أرض، ويجب أن لا تسحب قواتها، الأمر الذى سيؤدى حتمًا إلى قيام الدولة الفلسطينية. وكان يتعين إذن ضم الأراضى المحتلة بشكل نهائى بفضل توسع سياسة الاستعمار والاستيطان. وقد ظهرت جيداً قوة الائتلاف بين الصهاينة العلمانيين والصهاينة المتدينين فى حزب النهضة، عندما التحق بالحزب كل من «الچنرال رافائيل إيتان» رئيس أركان الجيش الإسرائيلى من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٣، والحاخام «إليزير والدمان». فبعد أن

غادر الجيش، انضم «إيتان» إلى حزب النهضة مع مجموعته، وأعلن عن برنامجه بشأن ضم الأراضى المحتلة، والتعامل بصرامة مع العرب العنيدين، مستخدمًا أسلوب العقاب الجماعى، حيث أصر على توقيع عقوبات على آباء وأمهات من يرتكبون اعتداءات من الشباب « ليس من شأننا حل المشكلة الفلسطينية، هناك ١٠٠ مليون عربى، و يمتلك السعوديون فائضًا فى ميزانيتهم قدره ١٣٠ بليون دولار، فليجدوا لهم حلاً» (ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧ : ١١٣). وتم انتخاب «إيتان» فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤.

وفى الفترة نفسها، برزت حركة سرية ليهود متطرفين، شكلت اتحادًا واسعًا يضم نشطاء من المستوطنين، حيث ينتمى بعضهم إلى حركة «كاخ» وحركات دينية أخرى تشاركت كلها فى أيديولوچية «كوك» ، وآخرون يتبنون أفكار المجموعات المغالية فى القومية من قبل قيام الدولة، وكان أعضاء هذه الحركة يرفضون تبعية حركة «جوش» للحكومة، وتخطيطات «كاهان»، كما كانوا يرفضون أى حل وسط مع الحكومة العلمانية، ويرون ـ وفقًا لتراث الكتاب المقدس ـ أن محاربة الأعداء واجب مقدس. ومثل «كاهان»، كانوا يرون أنه لا بد من طرد العرب ورفض الديموقراطية، وأنه يجب انتزاع الحرم الشريف (معبد الجبل لديهم) من المسلمين. وكفلت لهم نقاوتهم الدينية، وتأويلهم المتقن للكتاب المقدس، بالإضافة إلى انضمام حاخامات بارزين لهم، وزنًا معتبرًا داخل اليمين الإسرائيلى. وصدم إلحاحهم على دعم الإرهاب اليهودى الداخلى ـ بخلاف المستورد من أمريكا، مثل نموذج كاهان ـ المؤسسة الإسرائيلية، التى تناست نشاطها الإرهابى فى الماضى ليتم إلصاق الإرهاب اليوم بالبربرية العربية. و درس «سپرينزاك» الأيديولوچيات اللاهوتية لهذه الجماعات السرية والطريقة التى لقوا بها تأييد الحاخامات المهمين، والتى نقلت الإرهاب اليهودى من الهامش إلى القلب، وأصبحت جوهرية فى المناقشة بشأن هوية اليهود ومصيرهم (١٩٩١ : ٢٥٢ - ٢٨٨). وخلال ١٢ عامًا كان يتخلل هذه الحركة المستوحاة من التوراة والتى نشأت داخل المستوطنات غير الشرعية فى يهودا والسامرة، عناصر كانت تشجع ليس فقط الأعمال غير الشرعية بل أيضًا إرهابًا أعمى، وحتى إذا كانت تصطدم بالأفكار الليبرالية الغربية، إلا أن هذا التطور الأيديولوچى يتطابق مع تفسير خاص جدًا لتراث الكتاب المقدس عن أرض إسرائيل.

وفى الساحة السياسية الإسرائيلية التقليدية، تم إعادة انتخاب الحاخام «إليزير والدمان» فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤، وبصفته حواريًا للحاخام «زفى يهودا كوك» فقد أصبح الرأس المدبر للأمور الدينية فى حزب النهضة. وأسس مع «ليفينجر» مستوطنة كريات أربا، التى أصبحت المرتع الخصب لدى الحاخامات المستوطنين الذين انتشروا فى الضفة الغربية ومرتفعات الجولان. وكان «والدمان» يخشى تشتت المجتمع الإسرائيلى بين قطبى الجماعات الدينية، والجماعات العلمانية، وبرر انضمامه لحزب النهضة مع العلمانيين مثل «نيمان» و«كوهين» و«إيتان»، بأنه يؤمن بإخلاصهم للصهيونية و للشعب اليهودى ولأرض إسرائيل، كما كان يؤمن بأفكارهم الاجتماعية وفكرهم الرائد (انظر ميرجى وسيمونوت ١٩٨٧ : ١١٥). وقد تم إجبار حزب النهضة على إدانة الإرهاب اليهودى، لكن بقى «والدمان» غامضًا، حتى اتُّهِمَ بالتحريض على هجوم ضد رؤساء بلديات عرب عام ١٩٨٠، إلا أنه تم الإفراج عنه لَعدم كفاية الأدلة. ويرى «والدمان» أن القانون الإلهى هو الذى يفرض أن لا يترك اليهود شبرًا من أرض الوعد: «أعطانا الله عام ١٩٦٧ فرصة فريدة إلا أن الإسرائيليين لم يجيدوا استغلالها. لم يحتلوا الأرض التى أتوا لغزوها. . . . . وكأنهم رفضوا هدية الله، مع شكره فى نفس الوقت. هذا ما أدى بالله إلى إنزال معاناة حرب يوم كيپور على إسرائيل عقابًا لها» (انظر ميرجى وسيمونوت ١٩٨٧: ١١٤).

وفى ١٩٨٧، ترك «رافائيل إيتان» حزب النهضة وأعاد إنشاء حزب «تزومت»؛ حيث كسب مقعدين فى انتخابات ١٩٨٨. وبعد أن فاز بأربعة مقاعد عام ١٩٩٦، تم مكافأته بانضمامه للِّيكود، وتم تعيينه وزيرًا للزراعة والبيئة فى حكومة «نتانياهو».

ويدل تولى الحاخام «حاييم دروكمان»، وهو ناشط قديم فى «جوش» وحوارى «كوك»، للمنصب الثانى فى حزب (NRP) على تشدد المعسكر الدينى. وعقب خيبة أمله من موقف الحزب بشأن مسألة إسرائيل الكبرى، أعيد انتخابه عا م ١٩٨١ على قائمة حزبه «ماتزاد ـ Matzad»؛ وعشية انتخابات عام ١٩٨٤، انضم حزب ما تزاد إلى حزب (Poalei Agudat Israel) (وهو حزب عمالى متدين) لتشكيل حزب «التقليد ـ Morasha »، والذى أصبح ائتلافًا للحركات الرائدة لإسرائيل الأولى والأصولية الدينية، وحصل على مقعدين فى الكنيست. ويرى دروكمان أنه: «لا يمكن فصل

الصهيونية عن التوراة، وإلا أمكننا أن نقول إننا نؤمن بالتوراة ولكن لا نؤمن بالسبت. وإذا كنت أؤمن بالتوراة، فأنا أؤمن أيضًا بالصهيونية» (ميرجي وسيمونوت١٩٨٧ : ١٦٧). وبعد ذلك، حل دروكمان حزب الموراشا وانضم إلى (NRP) بعد أن تأكد أن ذلك سيسمح بانتشار أعضاء حركة «جوش إمونيم» على جميع أصعدة الحزب.

ومنذ ١٩٨٥، اقترح متطرف قومى آخر يدعى«ريهاڤام زيڤى» «المفاوضة» على ترحيل كل عرب الأراضى المحتلة إلى الدول العربية المجاورة. وأسس حزب «الوطن ـ Moledet»، وكان برنامجه الوحيد يستند إلى ترحيل العرب. وتم انتخابه عام ١٩٨٨ فى الكنيست مع زميله البروفسور «يائير سپرينزاك». وفى عام ١٩٨٤، كان أغلبية المتطرفين يعتبرون «كاهان» عنصريًا لأنه نادى بنفى العرب؛ إلا أنه فى عام ١٩٨٨، أصبحت الفكرة مقبولة، وداخلة فى الجدال الوطنى العام، برغم المتاعب التى يثيرها خلق مشكلة لاجئين عرب جديدة للصهيونية. ولقى شعار «زيڤى»: «نحن هنا، وهم هناك، والسلام لإسرائيل» استحسانًا لدى الكثيرين. وتبين كتاباته الموقف المركزى للترحيل فى الأيديولوچية الصهيونية وممارساتها بشأنه، وتوضح نفاق اليسار الذى ـ منذ أن أقام الكيبوتز على الأراضى العربية ـ اتهمه بالعنصرية (انظر سپرينزاك ١٩٩١ : ١٧٣ ـ ١٧٤).

الحاخامات التقليديون

لقد أدانت جميع الأحزاب تقريبًا، والأغلبية العظمى من الحاخامات التقليديين ما يُسمى: «عملية السلام» بين إسرائيل و الفلسطينيين والدول العربية المجاورة. وخلال النقاش الطويل بشأن التساؤل: هل يجوز التفريط فى الأرض اليهودية (أى الأراضى التى استولى عليها اليهود من العرب) لغير اليهود، لم يؤخذ بعين الاعتبار إطلاقًا حقوق غير اليهود. وتأتى بعض أعلى الأصوات ضجيجًا من المعسكر الدينى التقليدى.

وكان بعض الحاخامات التقليديين يعلنون دوريًا عن تفسيراتهم بشأن تراث الكتاب المقدس عن الأرض. وجَسَّد الحاخام «شلومو جورين» (١٩١٧ - ١٩٩٤) ـ وكان كبير

حاخامات إسرائيل (١٩٧٣- ١٩٨٣)، وكذلك كبير الحاخامات العسكريين ـ تغلغل التطرف الديني والسياسي ـ الذي أنشأ حركة «جوش إمونيم»، لدرجة أنه طلب من الجنود أن يعصوا الأوامر عندما يتعلق الأمر بنزع مستوطنات الأراضي المحتلة. ونقد «التنازلات» المقدمة للفلسطينيين و أمر ببناء معبد يهودي على جبل المعبد وكتب: «إن ياسر عرفات يستحق الموت» (لانداو ١٩٩٤). وفي الثامن عشر من ديسمبر عام ١٩٩٣، وزع «جورين» منشورات في المعابد اليهودية في الأراضي المحتلة مؤكداً فيها أن اليهود لهم الحق بأمر إلهي في أرض إسرائيل المذكورة في الكتاب المقدس، ونفى في اليوم التالي أنه دعا إلى قيام حركة تمرد، مدعياً أن القانون الأعلى في إسرائيل هو قانون موسى: «أي أمر يتعارض مع تعاليم موسى، يشكل تمرداً ضد موسى وضد التوراة وضد اليهودية. ولا يمكن اعتبار أي رفض للأوامر العسكرية تمرداً إذا كان هذا الرفض مبنيّا على إطاعة تعاليم موسى» (ديريك براون في القدس، جارديان، الإثنين ٢٠ ديسمبر ١٩٩٣).

ورشح الحاخام «بن يوسف» ـ الذي كان يُطلق عليه في السابق باروخ جرين ـ نفسه لمنصب عمدة القدس عام ١٩٩٣، وكان تفسيره للتوراة والعمل بها يقضي بأن تكون القدس يهودية تماماً:

> **يجب ألا يكون هناك مساجد ولا كنائس في القدس. . . يجب ألا يسمح لأي غريب عن تقاليدنا بأن يعيش في القدس. . . يمكن أن يأتوا كسياح. . . نعم أوافق، ولكن ليعيشوا هنا. . . لا أبداً. يجب ألا يكون في المدينة عبدة أوثان. . . القدس ليس لها حدود. يجب أن تتوسع بلا نهاية إلى أبعد الحدود والأفضل حتى دمشق (في. إس. لاييوويتز ١٩٩٣).**

الآراء المعارضة

وبالطبع لقيت أيديولوچية حركة «جوش إمونيم» ومناهجها، وكذلك الجماعات المتطرفة الأخرى ـ وهي تنتشر وتتطور ـ معارضة لدى العلمانيين والمتدينين على حد

سواء. إلى جانب الحركات الدينية التى لا تولى اهتمامًا لمفهوم الدولة أو التى تعتبرها ردة[1]، وشهد الاتجاه الدينى تطور العديد من الجماعات التى تدافع عن حقوق الإنسان (أوزڤى شالوم، نيتيڤوت شالوم، حاخامات من أجل حقوق الإنسان، إكليروس من أجل السلام، إلخ) والتى كانت تركز على أعلوية القيم الأخلاقية لليهودية أكثر من الأرضية التى تركز عليها «جوش». إلا أن هذه الجماعات كانت غالبًا ما تهمل الظلم الأساسى الذى صاحب الصهيونية، وكانت تركز انتقاداتها فقط على الاعتداءات المرتكبة فى الأراضى المحتلة ضد حقوق الإنسان. ويمكن أن نتساءل عن حماستهم فى اتباع التوراة، هل أصابتها عدوى القيم التى نشأت فى عصر التنوير؟ أو اتجهت للاعتدال بسبب اتباعها التعاليم العالمية لتقاليد أنبياء بنى إسرائيل؟

اتهم اللورد «چاكوبوڤيتس» المعسكر التقليدى بمساندة سياسة القوة والعنف مقابل مصالح مالية. ويتحسر على إفلاس القيم الأخلاقية التراثية لديهم، كما أنه يتهم الحاخامات التقليديين بتبنى مواقف الرضا عن النفس وادعاء التقوى، بينما هى، تبعد كل البعد عن التراث النبوى. وقد حافظ اليهود المتدينون على بقاء الحكومة الإسرائيلية بفضل مساندتهم غزو لبنان، تاركين للعلمانيين مهمة تفضيل الضمير وإنقاذ الشرف اليهودى. وهذا عكس منحرف للأدوار (Jewish Chronicle، ١٨ أغسطس ١٩٩٥، ص ١٧).

وفى سبتمبر ١٩٩٥، نشر عدد من الحاخامات الذين ينتمون للجناح القومى لمجموعة دينية تقليدية وثيقة «لجنة العمل لإلغاء خطة الحكم الذاتى». وأعرب الحاخام

---

(١) يؤكد الحريديم المغالون أن بقاء الشعب اليهودى مرهون قبل كل شىء باحترام التوراة، وأن بناء مجتمع مبنى على التوراة يسبق فى الأهمية امتلاك أرض معينة. فمجمل اهتمامهم هو أن تستحق الأرض حمايتها. وموقفهم غير مبال، أو غير معاد للدولة. ويؤمن يهود مى شيريم بأن إسرائيل هى عمل الشيطان. أما يهود إن إيوتورى كارتا، فيرفضون وجود دولة إسرائيل لأن وجودها يعنى انتهاك المقدسات؛ لأن اليهود يجب أن ينتظروا المسيا حتى تكون دولتهم. وتأمل المجموعة أن تتنازل دولة إسرائيل عن الأرض لصالح دولة فلسطين ويعتبر أعضاء الحركة أنفسهم «يهودًا فلسطينيين». ويسعى الحاخام هيرش، وهو زعيم الحركة إلى تدمير إسرائيل. وكذلك حركة ـ ساتمار شايديم، فى بروكلين بنيويورك، حيث تعادى الصهيونية، ويقوم أعضاء هذه الحركة بتنظيم مظاهرات معادية للصهيونية أمام قنصلية إسرائيل. ويقول الحاخام يوئيل تايتلباوم ـ وهو الزعيم السابق للحركة إنه يفضل أن تختفى مجموعته بدلاً أن تعيش فى دولة يهودية لم يؤسسها المسيا (جيوفروى پول، Jewish Chronicle، ٨ يوليه ١٩٩٤، ص ٢٢).

المتوفى حديثًا وأحد أهم حاخامات زمانه «يشاياهو لايبووتيز» عن ازدرائه المجموعات الدينية كلها، واعتبر الخلط بين الدين والسياسة بمثابة سم حقيقى. وفور حرب الأيام الستة، عندما كان كل الوطن تحت تأثير الفرحة الدينية، قال «هذا النصر البراق سيصبح كارثة تاريخية وسياسية بالنسبة لدولة إسرائيل». وكان يعتبر الجدار الغربى حانة، يُسعده بصدر رحب إرجاعها للعرب (برمانت ١٩٩٤ : ٢١).

وقد انتشر فى أوساط العلمانيين عدد كبير من المجموعات التى تدافع عن حقوق الإنسان (السلام الآن، B'Tselem ACRI ، النساء الإسرائيليات ضد الاحتلال، النساء ذوات الملابس السود، Yesh Gevul ، أهال ضد التدهور الأخلاقى، وحركات أخرى) (هيرويتز ١٩٩٢ : ١٩٧-٢٠٨). ولكن علّى عكس حركة «جوش» التى كان لها وجود على أرض الواقع، ترتكز هذه الحركات على المظاهرات والكلمات، مثلما رأيناها مؤخرًا عند قبر «إسحق رابين» الذى طهره اغتياله من جرائمه ضد الإنسانية، وأصبح أحد قديسى معسكر السلام، والذى أعلنت مصافحته ـ بعد تردد ـ لـ «عرفات» فى ساحة البيت الأبيض، المصحوبة بتوقيعه الإعلان المبدئى فى الثالث عشر من سپتمبر ١٩٩٣، سقوطه السياسى. بينما أعلنت هذه الأحداث [إعلان المبادئ] بالنسبة للعالم عن أمل جديد وبداية جديدة، إلا أنه بالنسبة للمتدينين المسيانيين، وغلاة القوميين، فقد عنت كارثة ونهاية حلم الدولة اليهودية ـ الغارقة فى الدماء غرب الأردن ـ الموحدة. لذلك كان يجب إزاحة رابين الخائن، والعقبة أمام المخطط الإلهى.

خاتمة

على الصعيد الثقافى العالمى، يعتبر العداء للسامية اليوم شكلاً من أشكال التمييز الاجتماعى والقانونى و السياسى ،و يجب حل مشاكله داخل هياكل الدول على أساس الحقوق المدنية. إلا أن «ثيودور هيرتزل» كان يرى أن حل المشكلة اليهودية لا تكفله فقط سماحة وتحرر [ليبرالية] الدول التى تأوى اليهود؛ وإنما يجب إنشاء دولة يعيش فيها اليهود على أرض يهودية خالصة تتماشى مع هويتهم اليهودية وانفصالهم. وعلى الرغم من أن «هيرتزل» نفسه اندمج فى المجتمع الأوروبى، إلا أنه رأى أن

المجتمعات الأوروبية كانت غير قادرة على التسامح مع اليهود؛ لأنهم كانوا يشكلون أجانب ، ولهم سلوكيات مختلفة . وباللجوء إلى الاستعمار القومى ، تجنب «هيرتزل» أى حل دستورى أو أى حل يعتمد على الحقوق المدنية .

ومنذ تبلورت مبادئ الصهيونية ابتداءً من تسعينيات القرن التاسع عشر ، إلى تنفيذ تلك المبادئ، كانت أيديولوچية سياسية ، شاركت القومية والاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر فى كثير من الأوجه ، رغم اختلاف الصهيونية فى بعض الأوجه الحاسمة . ومثلها مثل العنصريات الأوروبية التى كانت تنسب إلى السكان الأصليين صفات التدنى والتخلف ، بدأت الصهيونية فى تحسين وضع اليهود فى العالم أجمع على حساب السكان الأصليين فى فلسطين . وحتى ينجح برنامج الصهيونية ، كان يحتاج مساندة الدول العظمى ، فى بادئ الأمر بريطانيا وفيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية . حيث سيؤدى تواجد دولة صديقة واستقرارها فى الشرق الأوسط ذى الأهمية الاستراتيچية ، إلى خدمة مصالح السياسة الخارجية لبريطانيا و أمريكا .

وعلى الرغم من أن الغزو الصهيونى لفلسطين قد يتشابه كثيراً مع بعض حالات الاستعمار السابقة(الهجرة الأوروبية لأمريكا الشمالية أو هجرة الإنجليز إلى أستراليا أو نيوزلندا) إلا أنه يتميز بخصائص فريدة . فأولاً ، تمت هجرة اليهود فى بضعة عقود بدلاً من قرنين أو ثلاثة قرون . وثانيًا ، ظهر الاستعمار الصهيونى بعد وصول الاستعمار الأوروپى إلى ذروته فى وقت بدأت فيه الدول المستعمرة تحترم حق تقرير مصير الشعوب ، وفى وقت بدأت فيه فكرة الاستعمار فى الذبول . ثالثًا ، جرت جميع مراحل الاستعمار الصهيونى خلال فترة انتشرت فيها وسائل الإعلام الجماهيرية بشكل واسع . و على الرغم من ذلك ، نجح الصهاينة فى أغلب الأوقات ، وإلى وقت قريب ، فى أن يمثلوا أنهم ضحية بريئة حصلت أخيراً على حقها العادل .

ولكن الأمر الغريب هو أن الاستعمار الصهيونى حظى بمساندة واسعة من قبل الديانتين المسيحية واليهودية على حد سواء ، فقد اعتبر رجال اللاهوت والدوائر الدينية أن الحركة الصهيونية متوافقة مع نبوءات الكتاب المقدس ، أو على الأقل اعتبروا أنها ليست أكثر مما يستحقه اليهود بناءً على الوعد الإلهى بالأرض .

وتستمد الصهيونية جزءاً كبيراً من قوتها من تفسيرها الحرفى للكتاب المقدس بشأن الأرض، وبعض النصوص الخاصة بالمسيانية، فى الوقت الذى تغفل فيه نصوصًا أخرى عن حقوق السكان الأصليين. ولكن بحثًا عن الشرعية أمام القانون الدولى، ترتكز الصهيونية فى بنائها دولة إسرائيل على «التناخ ـ Tanakh» [أسفار موسى]، ولكن ليس ذلك بكاف، فهو يشبه أن تزعم إسپانيا والبرتغال ملكيتهما للعالم الجديد: أمريكا، بناءً على أوامر البابا نيكولا الخامس والبابا ألكسندر السادس (لامدريد ١٩٨١ : ٣٤٦). وإذا أخذنا بعين الاعتبار وضع السكان غير اليهود فى فلسطين، فنحن مجبرون على أن نلاحظ التباين بين المبادئ المعلنة فى ديباجة إعلان الاستقلال(١٤ مايو ١٩٤٨) والتكاليف الحقيقية للمشروع:

> **ستفتح دولة إسرائيل الباب لرجوع المهاجرين اليهود والمنفيين. كما ستحقق الدولة التطور لصالح جميع سكانها، وستكون قائمة على الحرية والعدالة والسلام، مثلما أعلن ذلك أنبياء إسرائيل. وستحقق الدولة المساواة التامة فيما يتعلق بالحقوق السياسية والاجتماعية لجميع السكان، دون الأخذ بعين الاعتبار الديانة أو الضمير أو اللغة أو التعليم والثقافة؛ حيث ستحمى الأماكن المقدسة لكل الأديان وستحترم مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.**

يظهر فى بعض تجليات النصر الصهيونى، أن على السكان الأصليين تقدير مسارهم السلبى للخلاص بفضل رجوع اليهود لوطنهم. وتتوفر بكثرة المراجع بشأن المفهوم اليوتوپى لوعد الله لإسرائيل «يُساهم اتحاد الأرض والشعب [الإسرائيلى] فى دفع العالم فى اتجاه مملكة الله» (بوبر ١٩٧٣ :٤٧) بينما يمكن اتهام أمم أخرى تطرد السكان بسرقة الأراضى وانتزاع ملكيتها من السكان الأصليين. .

> **إلا أن اتهام إسرائيل بذلك غير عادل؛ لأن دولة إسرائيل تتصرف بأمر إلهى، وهى تعى أن من حقها فعل ذلك. . . . لا يوجد أبدًا أمة سمعت وقبلت الأمر الإلهى مثلما كان الأمر لإسرائيل. . . فى كل مرة كانت إسرائيل تطبق الوصايا كانت فى طريق الحق، وهى فى طريق الحق طالما تطبق الوصايا الإلهية. وفى هذا الإطار يجب فهم هذه العلاقة الفريدة بالأرض. وعندما يكون الغزو فى بعض الظروف التاريخية مصحوبًا بالطاعة والإيمان، فليس هناك سرقة (بوبر ١٩٧٣: ١٤٦).**

وبالنسبة لـ «أندريه نهير»، فإن فلسطين تفتح الباب للوجود اليهودى. إنه يدعى أنه متخصص فى علم اللاهوت الجغرافى، ويساند الرأى الذى يقول إن التوجه إلى الأرض يجب أن يعجل بتخليص العالم وقدوم المسيا (١٩٩٢ :٢٢-٢٣). إلا أنه يجب احترام تعاليم التوراة الروحية والأخلاقية، و إلا ستطرد الأرض الإسرائيليين مثلما طردت الكنعانيين فى الماضى «هؤلاء الذين أعطاهم الله الأرض فى لحظة من الطيش العجول[*] hasty imprudence» (نهير ١٩٩٢ : ٢٠). وتعد دولة إسرائيل بمثابة المصلح بين اليهود، والمسيحيين والمسلمين، المقدس والمدنس، وبين اليهود الذين ليس لديهم نفس التصور بشأن قدوم المسيح(١٩٩٢ :٢٧- ٢٩).

لا يظهر لدى مثل هذا «الإصلاح» القائم على عودة اليهود، بل أرى الإذلال والإهانات اليومية للفلسطينيين، وانتزاع أراضيهم وطردهم منها.

وليس هناك شك فى أن المؤسسة الدينية اليهودية، أصبحت اليوم ـ وقد استغرقت وقتًا طويلاً للانضمام للصهيونية ـ توافق على كل هذه الممارسات. وبالنسبة لكثير من اليهود المتدينين «تشكل دولة إسرائيل التعبير الجماعى الأكثر قوة لليهودية والتطور الأكثر أهمية فى الحياة اليهودية منذ الهولوكوست» (چوناثان ساكس، كبير الحاخامات فى بريطانيا). أكثر من هذا، فإن الجماعات الدينية فى طليعة معارضى «الحل الوسط» مع الفلسطينيين (وهو تعبير مخفف عن عبارة «إعادة الأرض للفلسطينيين»)؛ الذى يوافق عليه قلة قليلة من الحاخامات التقليديين، بينما ترفضه تمامًا الكثرة الغالبة منهم. ومن المقلق أن نرى أن رجال الدين اليهود لا يولون اهتمامًا للفلسطينيين الذين دفعوا ثمنًا غاليًا لإسرائيل. ولكن وفقًا لروايات الكتاب المقدس، لم يول يشوع اهتمامًا كبيرًا بالسكان الأصليين.

تقوض المأساة الفلسطينية زخارف إنجازات الصهيونية المقدسة؛ حيث أدى قيام الدولة اليهودية إلى استبعاد أغلب الفلسطينيين ونفيهم، وتدمير معظم قراهم، واللجوء الدائم للعنف وإرهاب الدولة بالحروب والعمليات العسكرية، كما تلطخ الإهانة الدائمة للشعب الفلسطينى والقائمة الطويلة للأعمال الوحشية والإذلالية التى لحقتهم، إنجازات الحلم اليهودى العرقى والقومى والاستعمارى فى القرن التاسع عشر. والأكثر إيلامًا من الناحية الأخلاقية والدينية، أن الأساس الأيديولوچى فى دعم

(*) ونستغفر الله من نقل ذلك ـ المترجمة.

الإمبريالية الصهيونية ، والعائق الرئيسى أمام احترام حقوق السكان الفلسطينيين ، يأتى من الدوائر الدينية ، التى ترى روايات الكتاب المقدس عن الأرض أوامر واجبة التنفيذ.
لقد جعل السلوك الشرير للصهاينة مع الفلسطينيين ـ مبكراً ، منذ عام ١٩١٣ ـ «أحاد هاعام» يخشى المستقبل الذى يتسلط فيه اليهود قائلاً «إذا كان ذلك هو المسيا ، فلا أريدْ أن أرى قدومه» (ليهن ١٩٨٨ : ١٣).

***

هذا الكتاب

قد تبدو كلمة الاستعمار من مصطلحات الزمن القديم، الذى تخطته الحداثة... وجَبَّتْهُ العولمة والسوق الحرة والخصخصة، وإجماع واشنطن، وصندوق النقد والبنك الدوليين .. وحق التدخل «على طريقة المحافظين الجدد الليبرالية؟!» وما إلى ذلك.

وبصرف النظر عما إذا كانت تلك الأخيرة هى أساليب استعمارية جديدة أم لا؟ فما زالت هناك الأشكال التقليدية للاستعمار... فى فلسطين مثلاً.... وزاد عليها - بعد انتهاء القس مايكل پريور من تأليف هذا الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٧م، ثم أعيد طبعه ١٩٩٩م- الاستعمار الأمريكى لأفغانستان والعراق؛ حيث تدخل القوات المحتلة لأسباب مزعومة، وتستمر لأسباب مزعومة، تتغير كلما تبين زيفها.. وتفرض القوة العسكرية الأمر الواقع فى نهاية الأمر...

استهل القس پريور دراسته بتحليل الأساس الأيديولوچى الذى استند إليه الاستعمار الإسپانى والبرتغالى لأمريكا، والاستعمار الهولندى لجنوب إفريقيا، والاستعمار الصهيونى لفلسطين... لقد تشكل ذلك الأساس من تأويل انتقائى لنصوص الكتاب المقدس التى تتناول:أرض الوعد، شعب الله المختار، التفرقة العنصرية بناءً على قصة نوح وحكمه على أولاده بأن يكون كنعان عبد العبيد لإخوته؛ فصار كنعان رمزًا لكل من يستحق لعنة الاضطهاد والعبودية من جانب سام المبارك، وإذا لزم فيستحق الاستئصال أيضًا.

ثم ختم القس دراسته بالاستعمار الصهيونى لفلسطين، فإذا كان المسيحيون فى غرب أوروپا قد استعاروا نصوص العهد القديم ليبرروا استعمارهم لأمريكا وجنوب إفريقيا، واستغلالهم للسكان الأصليين - وإذا لزم إبادتهم - فقد اعتبر الصهاينة - من اليهود والمسيحيين فى الغرب- أنفسهم الأجدر بتلك الأيديولوچية؛ أليسوا هم الأولى بالعهد القديم؟ أليسوا هم الأولى باستبعاد الأغيار وإبادتهم باسم رب الجيوش؟

كل التحية والحب والاحترام للأب مايكل پريور الذى عمل بعقله وقلمه وجسده، ما أملته عليه روحه الحرة، فى وقت نرى فيه الكثيرين يمجدون المجرم ويجرمون الضحية.

عادل المعلم

